

الوسطية اللغوية وإشكاليات الوعي اللغوي العربي

د/ محمود فرغلي

تمهيد

الحمد لله رب العالمين الذي علم بالقلم، والذي علم آدم الأسماء كلها، وكان اختلاف السنة الناس من آياته، وصلاة وسلاما على المبعوث رحمة للعالمين ومن نزل عليه القرآن الكريم بلسان عربي مبين.

وبعد

تطرح الدراسة مفهوم الوسطية اللغوية للدرس والمناقشة باعتباره جزءا من منهج وسطي أكبر يسم الأمة، هذه الوسطية اللغوية ومقوماتها هي التي أعطت للغة العربية هويتها المميزة عن مجموعتها السامية التي كتب لمعظمها الانقراض والزوال من ناحية؛ والمميزة لها عن غيرها من المجموعات اللغوية الأخرى من ناحية أخرى، ذلك أن مجموع تلك الخصائص هو الذي يكسب العربية فرادتها، وهو مجلى عبقريتها، فالعربية بوسطيتها وإمكاناتها الهائلة وتاريخها الممتد وخصائصها اللسانية المميزة مؤهلة للقيام بدور أساسي في المستقبل في ظل صراع الهويات والحروب اللغوية والمعارك الحضارية المحتدمة.

وطرح مفهوم الوسطية اللغوية يستلزم دراسة الانحرافات التي تخرج عن جادة هذه الوسطية، هذا الانحراف يتم عن وعي حيناً و عن غير وعي حيناً آخر، لذا درس الباحث الوعي اللغوي وحدد أبعاده ومستوياته التي تدنيه أو تبعده عن تأكيد الهوية الحقيقية للغة العربية ودورها الفاعل في بناء هوية العربية والإسلامية، ومن ثم طرح الباحث بعض انحرافات المستشرقين وتابعيهم من دعاة الحداثة حيال اللغة العربية، كما طرح على طرف نقيض دعاوى النقاوة اللغوية ومسألة الغلو في تقديس اللغة العربية ومخاطر هذا التقديس الخالي من الفعالية والنفاذ، ولذلك كان مفهوم الوعي اللغوي وتنميته ضروريا لإدراك أبعاد قضية اللغة وخطورتها خاصة في هذا العصر، لذا جاء الجزء الأخير من البحث يحمل مقترحا منهجا لتنمية الوعي اللغوي لدى طلاب المرحلة الثانوية، يتم تضمينه داخل المناهج التقليدية أو يسير موازيا للمناهج القائمة لا بديل عنها.

وينطلق الباحث من قراءته لمفهوم الوسطية من وضعية اللغة في القرآن الكريم، هذه الوضعية التي تجعل اختلاف الألسنة آية من آيات الله تعالي، ليس اختلافها في القرآن الكريم نقمة أو عقابا، إنما هو كاختلاف الألسنة وخلق السماوات والأرض، ولا فضل للغة على أخرى إلا بمقدار وعي أهلها بها ودورها في حياته الاجتماعية والعلمية والثقافية، وعليه فإن كل خطاب لا يتوسل بالمنهجية العلمية في دراسة ظاهرة اللغة من الخارج والداخل؛ يشكل خطورة على اللغة وفاعليتها وعلى

المتحدثين بها. لقد لاحظ الباحث أن ثمة خطابين يسيطران على الوعي اللغوي العربي، وكلا الخطابين بحاجة إلى المراجعة؛ فثمة خطاب تقديسي يعلي من شأن العربية بصورة تجافي طبيعة اللغة ذاتها، وتجافي حديث القرآن ذاته عن اختلاف الألسنة، وأن الله أرسل كل نبي بلسان قومه، هذا الخطاب يبالغ في تقديس العربية بصورة أضرت بهذا الخطاب ودور اللغة معاً، من حيث لا يدري أصحابه، إذ تمت عملية أيقنة للغة الفصحى على وجه الخصوص، وعزل لها عن فاعليتها المجتمعية وتقليص لدورها الحضاري والعلمي المنطوق بها، وما كان هذا إلا لارتباط العربية - وهذه خصوصيتها الأكيدة- بالقرآن الكريم، لكن تقدير اللغة والاعتزاز بها لا يكون شعاراً يُلاك ولا خطباً تلقى، بل هو فاعلية مجتمعية وعلمية وأدبية تزدهر على إثرها اللغة، وتكون هي العنصر الفاعل والأداة الناجزة لفعل النهضة والرقى. ومن طبيعة هذا الخطاب أنه اعتاد أن يقوم على رد الفعل لا الفعل، فهو لا يقوم بمراجعة ذاتية وفق متغيرات العصر أو الإفادة من منجزاته العلمية والفكرية، لكنه ينتظر ما يأتي به الخطاب الآخر، وهو خطاب التبعية والاستلاب ومحاولاته الانفلات بالعربية إلى عاميات ولهجات مختلفة متشردمة؛ ليقوم بالرد عليه بتوكيد علاقة اللغة بالقومية العربية وبالهوية العربية والإسلامية. ومن خصائص هذا الخطاب التقديسي أنه يقوم على المبالغة في تصوير خصائص اللغة العربية، بناء على أساس ديني أو قراءة مسطحة لنصوص القرآن الكريم فيما يخص اللغة العربية، وخط بين اللغة والخطاب القرآني، مما يزيد انعزالية اللغة عن أهلها، فنجد يناقش قضايا أبعد ما تكون عن الواقع اللغوي الفعلي، وما لا جدوى منه فيما يخص ازدهار اللغة وتطورها وفاعليتها، ومن ذلك قضايا لغة أهل الجنة، ولغة آدم، وأصل اللغات¹، وغيرها من القضايا التي دار السجال حولها طويلاً، دون أن تقدم للغة في آنيتها فوائد تذكر. وعليه فإن الباحث إذ يقدم مفهوم الوسطية العربية يرى أن دراستنا للغة من خارجها ولقضاياها الملحة، لا بد أن يكون أكثر فاعلية وأكثر علمية، دون غمط اللغة العربية عظمتها، فهي عظيمة بالفعل والفاعلية في حياة أهلها لا بالقول أو رد الفعل لخطاب آخر موتور في تبعيته وتطرفه.

في الناحية الأخرى ثمة خطاب تبعي استلابي، يقوم على التقليد للغرب، ويستمد منه قياساته وآراءه، ويحاكيه محاكاة تكاد تكون تامة دون مراعاة للفروق بين الثقافات والبيئات والأديان، وقد أخذ هذا الخطاب في النمو في بدايات القرن العشرين وفي ظل الحقبة الاستعمارية، وذلك بعد أن ظهرت أطروحات المستشرقين حيال اللغة العامية واللهجات وترجمة القرآن وغيرها من قضايا لاكها من بعدهم ثلة من المفكرين العرب دون روية، فبدأت تظهر دعاوى من مثل: التقعيد للعامية واستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، وترجمة القرآن إلى العامية تشبهاً بترجمة الكتاب المقدس، إلى غير ذلك من قضايا أثارت غباراً كثيفاً لدى مفكري النهضة في النصف الأول من

1 تتبع موريس أولندر مغالطات كل من ج.غ.هردر، وربنان وماكس مولر وغيرهم في هذه القضايا، انظر موريس أولندر، لغات الفردوس، آريون وساميون: ثنائي العناية الإلهية، ت جورج سلجان، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة 2016

القرن العشرين، وتعاود الظهور بين حين وآخر، ونحن إذ نتابع هذه القضايا نجد أنها أخذت منحى سجاليا أبعد ما يكون عن العلمية والمنهجية، حيث كال أصحاب هذا الخطاب الاتهامات للغة العربية، ودعوا لهجرها، ربما لم يجد معظم هذه الدعاوى ترحيبا من النخب أو جموع الأمة؛ ولكن خطورة ما يطرحه أصحاب الخطاب أن خطابهم يحمل طابعا تشكيكيا من شأنه زعزعة الثقة في اللغة الأم، ومن ثم يحدث نوعا من التذبذب النفسي خاصة لدى الناشئة حيالها، يضاف إلى ذلك واقع لغوي يدعو إلى الحزن والأسى يعضد افتراءاتهم بصورة ترسخ لهذا التذبذب وتؤكد.

إننا بتحيزاتنا وبعندا عن جادة الوسطية نمارس كثيرا من العنف باللغة، والعنف ضدها أيضا، هذا العنف يتمظهر في أشكال عدة، على مستوى الاستعمال بكل تجلياته اليومية والعلمية والثقافية، وعلى مستوى معالجة قضاياها الملحة. في حين أن وسطيتنا العامة تقتض إلى جوارها نوعا من الوسطية اللغوية، وهنا تستوقفنا آيات قرآنية كريمة تمس عملية الكلام/ الفعل، مثل لحن القول، ولي اللسان، والنهي عن القول الذي لا يتبعه فعل يصدقه ووصف المنافق، والكلام الذي لافائدة منه، والتتاجي... إلخ، إنها إضافة لكونها أخلاقيات فعلية ذمها القرآن، تؤشر لأخلاقيات لغوية مرفوضة، وهو ما نجده في أحاديث الرسول الكريم مما لا يتسع المجال لاستقصائه.

مثل هذا الإشارات لا تمثل مجرد لغة، إنما هي نوع من الخطاب الإنجازي أي أن أحداث التلفظ هو إنجاز لفعل ما¹، أي يكون الفعل هو عين القول أي يتطابقان. فحين نقول أنها تمثل أخلاقيات لغوية فهي لا تتفصل على كونها فعل واقع وحادث. كما إن تنظيم جماعة العلماء والتمثيل الخارجي للمعارف التي ينتجونها يشكلان بالفعل مشكلة أخلاقية علمية لعلوم اللغة، فعلى هذه العلوم تقع مسؤولية شاملة ومن واجبها أن تضطلع بها، وهذه المسؤولية تتعلق بانتشار بعض الأفكار الخيالية عن اللغة في أوساط المجتمع²، وبناء على ذلك يمكننا أن نتفهم إشكاليات اللغة وعلاقتها بالأخلاق، وخطورة الوعي الزائف بها وما ينتجه من خطابات مختلفة ومنحرفة عن جادة الصواب اللغوي، ومشبعة بالتحيز الضار والتعصب المقيت.

كذا نجد أن تنوع اللغات والنسبية اللسانية، هما اللذان يدفعان اليوم إلى طرح مبادئ أخلاقية في ما يتعلق باللغة³، ومن شأن تلك النظرة أن تخفف أن غلواء المثاليين؛ لأن اللغة دائما ما تكون قوية بالفعل في إطار مجموعة من الوقائع التاريخية التي تؤكد على قوتها، والعكس صحيح. وبناء عليه تبدو المفاهيم والمبادئ حاكمة لسياسات اللغوية أو الحقوق اللغوية والتسامح اللغوي أمرا جديرا بالعبارة، وننوه هنا بأن موقف القرآن الكريم من:

■ اللغة بوصفها آية من آيات قدرة الله

1 عن اللغة الإنجازية يمكن العودة لنظرية أوستن، نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلام) ت عبد الله قبيني، أفريقيا الشرق، المغرب 1991م

2 سيلفان أورو وآخرون، فلسفة اللغة، ترجمة، بسام بركة، المنظمة العربية للترجمة ط1 بيروت 2012، ص498

3 سيلفان أورو وآخرون، فلسفة اللغة، السابق، ص528

▪ تعدد القراءات واللهجات

▪ العلم الأعجمي

يمثل أساسا متينا لمفهوم التسامح اللغوي يمكن البناء عليه، عن طريق الوسطية اللغوية ومن خلاله.

وفي الفكر الغربي نجد لوك يخصص الجزء الثالث من كتابه (مقالة في الإدراك عند البشر) للكلمات بسبب أن البشر غالبا ما يفرطون في استخدام الكلمات، ويقدم نصائح خلقية للتعامل بالكلمات¹، وأيا ما كان الأمر فإن السياسات اللغوية لمجتمع ما يتأثر بعوامل عدة، "قالميثولوجيا، والجماليات، والإيديولوجيا السياسية (من ضمن أمور أخرى) تمثل عناصر هامة لنيل وتحقيق وضع لغوي معين، ولا تستطيع السياسة اللغوية، وهي تروم تعزيز أو تغيير الأدوار الاجتماعية ووظائف اللغات، أن تتغلب على تأثيرات الثقافة اللغوية للمجتمع بسهولة"²

إننا نمارس نوعا من التعصب اللغوي في كثير من الأحيان حين نبالغ في تقديس اللغة على حساب الفعل، أو حين نقول بالنقاء اللغوي، ونمارس على النقيض تاما مع هذا التعصب المفرغ من المعنى نوعا من الهدر اللغوي لإمكانات لغتنا التي تراكمت في بنيتها عبر مراحل تطورها المختلفة، وتعطل مقومات تطورها وتطورنا. أليس في كل ذلك سلوكيات لغوية بحتة يمكن أن يطلق عليها أخلاقيات اللغة؟ ومن ثم يكون للوسطية اللغوية وجود فعلي داخل اللغة وخارجها، ولعل من مظاهر هذا التسامح ما عرف عن القراءات القرآنية، فلم يجحد العلماء المسلمون القراءات القرآنية التي أقرها الرسول لصحابته، وقد نهض بهذه القراءات السبع عدد من الصحابة وقراء التابعين، وهم جميعا ممن يحتج بكلامهم العادي به قراءاتهم التي تحروا ضبطها جهد طاقتهم... وكانت هناك قراءات شاذة لم تتوافر لها صحة القراءة لكنها عدت بعد ذلك مصدرا من مصادر العربية³، إن علما مثل علم القراءات أعطى مشروعية واضحة للتنوع اللغوي، وما كان نزول القرآن على سبعة أحرقق للقول النبوي الكريم، وأوضح ما نريد بالتسامح اللغوي لا التساهل، وبالتالي للهجات الحق في الوجود وحضورها ضروري في كتابة تاريخ اللغات وتطورها، إذ " قد تحتفظ اللهجات المعاصرة بصيغ أقرب تاريخيا من الصيغ المكافئة لها في الفصحى"⁴

إن اللغة لا تحتاج من يدافع عنها، وإنما تحتاج من يفعلها ويستخدمها في قاعة درسه وحواراته العلمية وندواته الدينية والثقافية ويدرس بها علومه وآدابه وفنونه، ويصك بها مصطلحاته ومفاهيمه، و بحاجة العمل المستمر لتطويرها وتطويرها لمستجدات العصر من علوم اتصال وحوسبة، وكل

1 سيلفان أورو وآخران، فلسفة اللغة، ص506

2 عبد القادر الفاسي الفهري، السياسة اللغوية والتخطيط، مسار ونماذج، إصدار مركز عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط1 الرياض 2014، ص18

3 - سمر روي الفيصل : قضايا اللغة العربية في العصر الحديث، الهيئة السورية العامة للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق 2010، ص7

4 من حوار مصور مع د سعد مصلوح، قناته على تويتر أثاره من علم، مايو 2022

ما يساعد على تطور وعي لغوي فاعل يجعل من اللغة هوية، ومن الهوية لغة دون انفصام بينهما، وهذا هو تصور الباحث للدفاع الحقيقي عن اللغة العربية، وبناء عليه خصص دراسته لطرح مفهوم الوسطية اللغوية وأبعادها المتمثلة في :-

- **وسطية لغوية** مستنتجة من خصائص اللسان العربي، صرفا ونحو ومعجما ودلالة وغيرها مما يخص البنية الداخلية للغة، ثم يتسع ليشمل الخطاب اللغوي في عمومياته.
- **وسطية المتكلمين** بها- بوصفها جزءا من الوسطية العامة- في خطابهم اللغوي وفي سلوكهم اللغوي أيضا، وتحيزهم لها بدون تهوين مغل بدورها أو تقديس أجوف ينذر بجمودها ويعوق تطورها. في إطار ثقافة لغوية وسطية، ذلك أن " اللغة من حيث هي شفرة تتداخل مع اللغة باعتبارها نصًا، واللغة باعتبارها نصًا تتقاطع مع اللغة باعتبارها ثقافة، دون أن يتطابقا"¹ وهو ما يبرز أهمية الثقافة اللغوية وخطورتها على مختلف المستويات السياسية والاجتماعية والحضارية.

وقد تحرك الباحث في دراسته من مفهوم الوسطية، وحاول أن يعمق مفهوم الوسطية اللغوية، ثم عرج إلى دراسة الخطابين السابقين في تحيزاتهما، وانحرافاتهما عن هذه الوسطية، ويمثلان إشكالية أساسية من إشكاليات اللغة العربية في عصرنا، بما قد يقدمانه من وعي زائف، لذا عرج الباحث على هذا الوعي المنتج لهذين الخطابين من خلال دراسة الوعي اللغوي وعلاقته بالهوية، وأهم إشكاليات وعينا اللغوي المعاصر، ثم أخيرا تقدم بمقترح لمحتوى يمكنه أن يقاس ويضبط للإفادة منه في تنمية الوعي اللغوي لدى طلابنا ومن ثم تتغير طريقة تعاملنا مع اللغة، أو إضافة بعد جديد ضروري وملح لمنهجنا، بحيث يتطور خطابنا اللغوي الواصف لها من الداخل والخارج. خاصة أن متانة اللغة يتوقف على لغة وصفها بالأساس، ومن الصعب الحديث عن اللغة إلا من خلالها أي ما وراء اللغة، الذي يتماس مع مفهوم الوعي اللغوي على نحو ما سنرى، ذلك أن الوصف الصحيح للغة ما غير ممكن ما لم نأخذ في الاعتبار رأسا ما وراء لغته، بما أن الالتباس بين اللغة وما وراء اللغة قابل للحدوث في أساس كل دراسة حول اللغة²، حيث تقوم العلاقة بين اللغتين لا على التجاور بل الاحتواء، ف" ما وراء اللغة لا تعارض اللغة الموضوع بل تحتويها"³ ونشير إلى أن العربية تجمع بين عناصر القوة والضعف، وأنها " في كافة التقديرات والتصنيفات تقع ضمن اللغات العشر الكبرى في هذه المنظومة"⁴ وأنها تشغل وفق المؤشرات المختلفة مركزا

1 منصور بن مبارك ميغري، عقيل بن حامد الزماي الشمري التصورات الشعبية عن اللغة في الأدبيات اللسانية المعاصرة: مقارنة إستمولوجية ضمن كتاب التصورات الشعبية عن اللغة العربية، مفاهيم، وقضايا، وحالات، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز المولي لخدمة اللغة العربي، الرياض 2017، ص: 31: 68

2 جوزيف ري - دبوب، الميتالغة: مقدمات ومعطيات اولية، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، ع8/ خريف 1989، لبنان 1989، ص: 62: 76

3 جوزيف ري - دبوب، الميتالغة: السابق، ص: 62: 76

4 عقيل بن حامد الزماي الشمري، العربية بين عوامل الازدهار والانحدار: قراءة لمؤشرات مكانتها العامة في التاريخ والواقع، مجلة التخطيط والسياسة اللغوية، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز المولي لخدمة اللغة العربي، ع7، إبريل 2018، ص: 8: 59

متقدما خاصة دراستها كلغة ثانية* بيد أن مكنم الخطورة في الأمر هو التفاوت الزمني بين عوامل القوة والضعف، ذلك "أن العوامل التي تسهم في تقدم العربية هي العوامل الموروثة عن تاريخها الحضاري المتميز، مثل: (1) أعداد الناطقين، و(2) الانتشار الجغرافي، و(3) الارتباط بالإسلام الذي يجعلها متقدمة جدا من ناحية الإقبال على تعلمها لغة ثانية. وأما العوامل المرتبطة بالواقع المعاصر كالاقتصاد والمعرفة والإعلام فمن مظاهر تأخرها عن مثيلاتها من اللغات العالمية الكبرى. ويلاحظ أن منزلة العربية في مجال المعرفة والإعلام بالذات متدنية جدا، بشكل لا يتناسب مع منزلتها المتقدمة عموما. فهي تحتل المرتبة الثامنة عشرة في هذا المجال، وتتقدمها لغات صغيرة الحجم نسبيا كالبولندية والكورية"¹ وهو ما يدعو إلى الحيرة والحذر، ويزيد من أهمية مدارس اللغة على أساس علمي من جهة وإضافة عوامل قوة جديدة ومحفزة دون الاكتفاء بالعوامل التقليدية التي أسهمت في إنتشارها واتساع رقعتها.

وبناء على النقاط السالفة الذكر جاءت فصول الدراسة كالتالي:-

1- الفصل الأول يدرس فيه الباحث مفهوم الوسطية اللغوية وأهميته، وأهم الأطروحات

في هذا الشأن، خاصة محاولات نبيل علي وعبد الحميد إبراهيم، وعلاقة هذه الوسطية اللغوية بالوسطية الأساس باعتبارها معالم من معالم أمة الإسلام. وتؤكد أيكولوجيا اللغة بدعواها إلى الاعتدال اللغوي وحفظ الحقوق اللغوية وتحفيز التنوع في إطار الوحدة.

2- الفصل الثاني من الدراسة طرح الباحث طبيعة الخطابين اللغويين السائدين،

وملاحظهما وأهم الخصائص المميزة لهما من لاخلال توقعه أمام نموذجا للتبعية أوتبيان مخاطر التقديس الذي لا يعضده الفعل الناجز، وقدم لدراسة الخطابين بدراسة أهم المحطات التاريخية التي شكلت وعينا اللغوي المعاصر.

3- خصص الباحث الفصل الثالث لدراسة مفاهيم الوعي والهوية وعلاقتها باللغة، لما

لهما من دور في إنتاج الخطاب اللغوي، إذ خلف كل خطاب لغوي وعي يشكله ويقيم أسسه ومرتكزاته، أما الهوية، فاللغة هي مقوم رئيس من مقوماتها على اختلاف تعريفاتها ومدخلها، ومن ثم كانت مناقشة العلاقة بين كل منهما، ناهيك عن أن اللغة أمر ضروري لفهم طريقة تفكيرنا في اللغة وكيفية التعامل معها، وقد مهّد الباحث لكل ذلك بمبحث أساسي تناول من خلاله أهم الدراسات التي عُنيت بالوعي اللغوي العربي.

4- أما الفصل الرابع فجاء لتناول مستويات الوعي اللغوي وإشكالياته وعقد له الباحث

مبحثين: المبحث الأول مستويات الوعي اللغوي، والمبحث الثاني خصه الباحث لدراسة

♦ من أشهر التصنيفات التي تتعلق بقوة اللغات وضعفها: تصنيف غرادول2000، تصنيف دو سوان 2011، سكوت مونتجمري2014، كاي تشان 2016

¹ عتيل بن حامد الزماي الشمري، العربية بين عوامل الازدهار والانحدار، السابق، ص28

إشكاليات الوعي اللغوي العربي وأمراضه، وأهمها في رأي الباحث، الفصامية والنزعة السلطوية والوعائية.

5- أما الفصل الخامس، فدرس فيه الباحث الوعي اللغوي في مناهجنا وأهميته التعليمية والعلمية، وموقفها منه، ثم قدم مقترحا لمنهج يقوم على فكرة تنمية الوعي اللغوي لطلاب المرحلة الثانوية من خلال دراسة اللغة بوصفها موضوعا للمعرفة بجوار وظيفتها الأدائية والوعائية؛ ذلك لأن معالجة قضايا الوعي اللغوي دون رابطة من عاطفة تربط اللغة بالطلاب وتحببها إليهم؛ ضرب من الخيال، وكل حديث عن أهمية اللغة سيذهب إدراج الرياح إذا لم يقف ورائه عاطفة رابطة، ووعي لغوي فاعل يربط الطالب بلغته وينزلها من نفسه منزلة اللحم والدم، في إطار من التوازن والوسطية اللغوية الفعالة.

عن المنهج

بنى الباحث محتوى منهجه من خلال النظر إلي اللغة العربية نظرة كلية شاملة، وكأنها موضوع قائم بذاته، ففي عصرنا الحالي يتجاوز دور اللغة من أن يكون مجرد منهج دراسي أو كتاب مدرسي يغوص في دقائق وتفريعات اللغة دون المساس بجوهر علاقتها بالإنسان والمجتمع، وهذا الأمر يشبه ما ذهب إليه رودولف كارناب وتارسكي في تفرقتهما بين لغة الموضوع ولغة الشرح أو ما وراء اللغة، وهو ما يتبلور بصورة أكثر وضوحا في المدارس النقدية الحديثة من خلال ما يعرف بالنقد الشارح metacriticism¹، فقد فرق كارناب بين لغة الموضوع ولغة الشرح، أي أن اللغة التي هي في حد ذاتها وسيلة لا محالة، أمكنها أن تتخطى دائرة الآلة لتغدو هي بذاتها موضوعا معرفيا، وهو ما يمثل مرجعية معرفية جديدة أخرجت القائم بالقوة إلى حيز الوجود بالفعل²، وعندما يدرس الطلاب مناهج اللغة وقواعدها وبلاغتها فتلك لغة موضوع، أما حين نقوم بوصف تلك المناهج ونقدها، فنحن عندئذ أمام لغة شارحة للغة الأولى، إذن نحن دائما أمام مستويين من اللغة، لغة موضوع تتحدث عن الأشياء تمثل المستوى الأول، ولغة أخرى شارحة لها تمثل المستوى الثاني، تتحدث عن لغة اللغة، وقد أفاد رومان ياكبسون من هذه التفرقة واعتبرها وظيفة أساسية من وظائف اللغة، أطلق عليها وظيفة ميتالسانية، فاللغة الواصفة ليست أداة علمية ضرورية في خدمة المناطق واللسانيين فقط؛ فهي تلعب دورا في اللغة اليومية. فنحن نمارس اللغة الواصفة دون أن ننتبه للخاصية الميتالسانية لعمليتنا... بل إن كل سيرورة تعلم اللغة، وخاصة

1 - جابر عصفور، نظريات معاصرة، الهيئة المصرية للكتاب (مكتبة الأسرة)، ط1 القاهرة 1998م، ص272
2 عبد السلام المسدي، العربية والإعراب، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1 ليبيا 2010، ص27: 32

اكتساب الطفل للغة الأم، تلجأ بكثرة إلى مثل هذه العمليات الميتالسانية¹ ، وفي إطار التفرقة بين اللغة ولغة اللغة، أو الميتالغة، نجد أن الثانية واصفة للأولى، لذا تتميز اللغة عن الأنساق الأخرى " بخاصيتين أساسيتين تتميز بها اللغة، وهما الاستعمال والذكر، بمعنى أن خصوصيات اللغة الطبيعية يقتضي منا استحضار الاختلاف القائم بين الحالات التي تستعمل فيها الكلمات أو الأسماء والحالات التي تكون مذكورة"² ، أي أن للغة القدرة على الكلام عن الأشياء والكلام عن ذاتها في الوقت نفسه، ومن هنا تتبع أهمية تلك اللغة الواصفة من حيث كونها تمثل القدرة الذاتية على التأويل والقراءة، هذا التأويل الذاتي يعبر عن إمكانية تمثيل كل لغة لنفسها... كما أن هذه الإمكانية الخاصة للغة تتطوي على الاختلاف القائم بين الاستعمال والذكر³ ، وتتبدى أهمية الميتالغة بوصفها خطابا محمولا في كون حضورها لا يقل عن حضور الخطاب الموضوع الذي يشير إلى أشياء وموضوعات غير لغوية، " فإذا كان الموضوع ذاته خطابا لغويا، فإن صياغة المحمول عليه تنشيء خطابا حول الخطاب فتشتق لغة من لغة فتكون لغة محمولة على لغة موضوعة"⁴ كذا نلاحظ أن أهمية ما وراء اللغة خاصة عالقة باللغة دون غيرها من الأنظمة الدلالية التي تعتمد على اللغة في وصفها، فليس دور اللغة الواصف وصف اللغة العادية فقط بل وصف مختلف الأنظمة الإشارية والدلالية الأخرى،" فليست الوظيفة الوحيدة للغة المقعدة للغة أن تتكلم على لغة تنتمي إليها، فهي قادرة على التكلم على كل إشارات اللغات كلها. الطبيعية والاصطناعية، أي على كل الإشارات التي لا تنتمي إلى اصطلاحها الخاص والتي لم تعد تخضع لصلاحية المستعملين اللغوية وتسهم هذه الوظيفة خصوصا في تعليم اللغات"⁵ كذا يبرز دور هذه اللغة الواصفة في كونها تمارس " تأثيرا رجعيا، على اللغة الصالحة للتكلم على العالم، مما قد يؤدي إلى إعادة التفكير في علاقة الدال/ المدلول من حيث الانعكاسية أو عدم الانعكاسية. إنها لمسألة أساسية في اللسانيات وأكثر منها في الأدب، أن نعرف إلى أي حد قد تدل إشارة عادية على ما هي، أي إلى أي حد قد تفقد شفافيتها لتفرض دالها الخاص مع استمرارها في التدليل على العالم"⁶، فاللغة هي الأداة التي تصف غيرها وتصف نفسها، لكونها لب الوعي وأداته الرئيسية، فلا وعي

1- رومان ياكسون : قضايا الشعرية - ترجمة : محمد الولي، مبارك حنون، دار توفال للنشر ، ط1 المغرب 1988، ص31.

2- حسن الباهي، اللغة ولغة اللغة، مجلة المناظرة ، ع2، الرباط 1989، ص109.

3- حسن الباهي، السابق، ص110.

4- عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا 2010، ص33

5- جوزيف ري - ديوف، الميتالغة: مقدمات ومعطيات أولية، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، ع8/ خريف 1989، لبنان 1989، ص62: 76

6- جوزيف ري - ديوف، السابق ص62: 76

يتشكل بدون لغة تبلوره وتعبّر عنه وتكشف مكوناته وتوجهاته العقلية والعاطفية على حد سواء، إن وجود هذين النوعين من اللغة يجعل للغة عالماً موازياً لعالم الأشياء التي لا يتم تمثيلها والتعبير عنها إلا من خلال اللغة المستعملة. وفي مستوى آخر من دلالة العلاقة بين مستويي اللغة، يلاحظ أنه من المستحيل على لغة ما، كنسق مغلق، أن تقدم الدليل على اتساقها دون الوقوع في تناقض، بل إن ذلك يقتضي اللجوء إلى لغة أقوى تمكننا من إثبات القيمة الصديقة للغة الأولى... فكل لغة تحتوي على الأقل على قضية صادقة يستحيل البرهان عليها داخل هذه اللغة، بل إن ذلك يستدعي الأخذ بلغة أقوى وأكثر غنى"¹.

نقطة أخرى لصيقة بما وراء اللغة واللغة، حيث تحيل هذه التفرقة - فيما تحيل إليه- إلى مجال بحثي مستحدث في طور النمو هو التخطيط اللغوي *Planification Linguistique*، والسياسة اللغوية *Language Policy* بوصفه ميداناً حديثاً منبثقاً عن علم اللغة الاجتماعي، ويتسم هذا المجال بأنه دراسة بينية. وماتزال أدبياته في طور البناء والتكوين في وطننا العربي، رغم أنه يسجل حضوراً متميزاً في الغرب منذ منتصف القرن العشرين. فقد استخدمه إينار هوجن *Einar Haugen* عام 1959 لمناقشة الإشكالات اللغوية في النرويج² حيث أبرز من خلاله أهداف السياسة والتخطيط اللغويين ودورهما في حل المشاكل اللغوية، حيث يؤكد هوجان "أنه تظهر الحاجة إلى التخطيط اللغوي تظهر كلما ظهرت مشاكل في اللغة، وعندما نلاحظ أن لغة ما لسبب ما صارت غير وافية بالغرض المطلوب، عندها يتفسح المجال أمام برامج تخطيط لغوي"³ حيث يعرف بأنه "الجهود الموجهة من قبل الحكومات أو الهيئات الرسمية وشبهها، أو الأفراد؛ إلى التأثير على السلوك اللغوي للمجموعات اللغوية الكبيرة أو الصغيرة فيما يتعلق باكتساب اللغة، أو بنيتها، أو وظيفتها، أو مكانتها داخل مجتمع ما"⁴ فيما يعرفه الجهد الحكومي الواعي والمقنن والطويل المدى والدائم الصلاحية لتغيير وظيفة لغة في مجتمع ما، وذلك من أجل حل مشكلات التواصل. وعى هذا الأساس أصبح ذلك التخطيط اللغوي جزءاً من تكوين الأمم في العالم المعاصر، لأنه بات

1 - حسن الباهي، السابق، ص 110.

• طرح جون روبن Joan Rubin وبجورن جرنود Björn Jernudd هذا التساؤل عن التخطيط اللغوي وإمكانية سياسة اللغة في الدور النامية في كتابها: *Can Language Be Planned? Sociolinguistic Theory and Practice for Developing Nations* Hardcover [1971] Honolulu

2 انظر محمود بن عبد الله المحمود، التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية، تأصيل نظري، مجلة التخطيط والسياسة اللغوية، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي

لخدمة اللغة العربية، 5، إبريل 2018، 8: 48

3 نقلًا عن " روبرت ل كير: التخطيط اللغوي والتغيير الاجتماعي، ت خليفة أبو بكر الأسود، مجلس الثقافة العام ليبيا 2006، ص 75

4 محمود بن عبد الله المحمود، التخطيط اللغوي، السابق، ص 6

الاتجاه العالمي قوياً لاقتران اللغة بالقوموية. بل إن كل بلد جديد ينضم إلى هيئة الأمم المتحدة صار يرغب في لغته الخاصة؛ إذ تحولت اللغة إلى شعور قومي بالانتماء إلى الثقافة العرقية والتاريخ المرتبط ببعض الأمجاد المعتر بها، وبدأت تشغل المادة الأولى أو الثانية من الدساتير القومية الحديثة¹ ونجم عن ذلك ظهور علم قائم بذاته من علوم اللغة المتنوعة وهو علم اللُّغة الاجتماعيّة Sociolinguistics التي تدرس اللُّغة في المجتمع مع منظور واسع نسبياً، والمعنيّة بتوزيع اللُّغات ووظائفها الواسعة، بدلاً من دراسة دقيقة لتفاصيل بنية اللُّغة الداخليّة والتّباين. ويغطّي علم اللُّغة الاجتماعيّة الكلّ مواضيع، مثل: اختيار اللُّغة Language Choice ، والمجالات Domains ، والتّخطيط اللُّغويّ Language Planning، والسياسة التّعليميّة، وما إلى ذلك²

لم يعد أمر اللغة قائماً في مجمله على الظنّيات، وإنما صار أمرها إلى مناهج علمية محكمة ودقيقة إلا قليلاً، ومن ثم يصبح من الخطورة بمكان مناقشة قضايا اللغة بذات الأدوات التي ناقش بها السابقون قضاياهم، إذ إن كل خطاب هو نتاج سياقات حضارية مختلفة، وما كان يدس ظاهراً جلياً أصبح يتم في الخفاء والعكس صحيح، وليس المقصود بالمنهج العلمي أن القضايا محسومة، ولكن المقصود هو أن المعالجة اللُّغوية أصبحت تمر حتماً عبر المعالجة الآلية، ولم يعد الإسهام في الجدل المعرفي مقبولاً إذا ما قام على الظنّيات أو التّخمينات التقريبية، وعليه فقد أفاد الباحث من المناهج وعلوم متنوعة الآتية:

1. تحليل الخطاب كأداة لتحليل خطابنا اللُّغوي وآليات قراءته لقضايا اللغة العربية، وما الخطاب إلا بناء من الأفكار يحمل وجهة نظر معينة يطرحها الكاتب بوعي منه وإرادة في موضوع ما، ومن خلفها شبكة من التّعالقات الاجتماعيّة والسياسية والثقافية. وقد أتاح تحليل الخطاب واشتماله على مختلف الممارسات اللُّغوية الشافهيّة والكتابية على ظهور اللسانيات التطبيقية وتطور علم اللغة الاجتماعي والأخذ بعين الاعتبار التّصورات الشعبيّة حول اللغة، وتطرّح التّصورات الشعبيّة عن اللغة باستصحاب هذا التّفريق والتّدقيق، مسألة قيمة

1 Weinstein, B: Language planning in Francophone Africa. Language Problems and Language Planning 4 (1),1980 pp.-77
55

2 جون سوان وآخرون، معجم اللُّغويات الاجتماعيّة، ت فواز محمد راشد، عبد الرحمن حسني، مركز الملك عبد الله بن عبد الملك الدولي لخدمة اللغة العربيّة، الرياض 2019، ص245

- الآراء والاعتقادات والمواقف ذات الصلة باللغة عند التفكير في القضايا المجتمعية العمليّة التي هي جوهر اللسانيات التطبيقية.
2. علم النفس فيما يخص مفهوم الوعي لبلورة مفهوم فاعل للوعي اللغوي وتشكلاته وطبيعته علاقته باللغة.
3. دراسات ما وراء اللغة، أي اللغة ذاتها بوصفها موضوعا، وهو أمر يحتاج إلى توضيح، على سبيل التطبيق والتبسيط نجد أن التساؤل عن معنى كلمة أو شرح مفردة ما يمثل عملية ميتالسانية، لكننا نتوسع لنجعل من تساؤلاتنا أكثر اتساعا عن المعنى أو الشرح متجاوزين ذلك إلى القضايا اللغوية الكبرى ، فطلابنا ليسوا مغرقين في اللغة من الداخل فقط بوصفها موضوعا له مكوناته القاعدية والبنائية، بل مغرقين فيها بوصفه وعاء لمحتوى آخر ثقافي أو تاريخي أو اجتماعي، حقا هو لا ينفصل عن اللغة، لكنه وفقا لطرق التعليم المتبعة لا يلقي الضوء إلا عليها من الداخل، بوصفها مجموعة من التراكيب الأسلوبية والمفردات لغوية فقط، دون النظر إلى لغة شارحة لظاهرة اللغة تاريخيا أو اجتماعيا أو سياسيا، فالمقصد هو وضع اللغة بكل مكوناتها ووجودها وفعاليتها الاجتماعية والنفسية والاقتصادية على مسافة بحيث ننظر إليها نظرة كلية، نستطيع من خلالها أن ندرك دورها وقيمتها في وجودنا وهويتنا، فجعل اللغة "موضوعا للدرس أو لغة أخرى شارحة يكسب هذه اللغة وجودها الفعلي" ¹، ويجعلها في نطاق الوعي الذاتي والجمعي على حد سواء، ولعل الميزة الأولى فيما أذهب إليه هو تحريك الوعي وتحويله إلى وعي آخر مضاد يحاول مساءلته، ويجعل من اللغة في عموميتها مجالا للتأمل والمراجعة الدائمة، ورغم صعوبة استخدام اللغة بكل مكوناتها في وصف ذاتها، إلا إنه يمكن لتلك اللغة" الوصفة التي تفرض نفسها عند كل محاولة لبناء خطاب متماسك عن اللسان العربي؛ أن تملك مستويات متعددة من الكثافة والتنوع"²

أهداف الدراسة

1 - حسن الباهي، السابق، ص111

2 الحسين الزاوي، الهوية وفلسفة اللغة العربية، منتدى المعارف، بيروت 2014، ص7

اللغة نشاط إنساني وطاقة حيوية إنسانية الخصائص والسمات، هي شكل المعرفة ومضمونها وعلّة نسبتها؛ المعرفة لغة واللغة معرفة، كل واحد منهما شرط إمكان الآخر وشرط وجوده، ومن ثم يمكن النظر إلى اللغة والسلطة من الزاوية نفسها التي ننظر منها إلى المعرفة والسلطة. " فليس استقلال اللغة النسبي، الظاهر، عن المعرفة سوى استقلال السلطة النسبي والظاهر عنها، أي عن المعرفة؛ بل إن هذا الاستقلال لا يزيد على كونه فاصلاً بين المنطوق وغير المنطوق أو الملفوظ وغير الملفوظ، وبين المبني وغير المبني، وهو فاصل يشبه الفاصل بين الوعي واللاوعي، وبين العقل واللاعقل" 1 . وقد لاحظ الباحث أن العقل العربي الحديث يمارس أشكالاً عدة من التحيز حيال اللغة العربية، مع أو ضد، منها ما هو ظاهر جلي، ومنها ما هو مطمور خفي، لكن أخطر أشكاله ما يمارس تحيزاته تحت لواء العلمية تارة، وأتحت لواء الدفاع عن قدسية اللغة تارة أخرى، وأفدح أشكال التحيز تلك التي تمارس فيه الجماعة تحيزها ضد ذاتها، في فصامية غريبة كتلك التي تصيب الفصامي الذي يحاول في بعض نوباته أن يعتدي على نفسه، وعليه فقط طرح الباحث إشكالية تعامل العقل العربي الحديث مع لغته العربية، وما يعبر هذا التعامل عنه من دلالات تعبر عن شدوخ واضحة في الوعي اللغوي العربي.

والتحيز رغم أنه لصيق باللغة، إلا إنه أحياناً ما يكون ضد الوسطية التي نطرحها كمفهوم يمكنه أن يساهم في بناء وعي لغوي جديد، خاصة إذا أخذ شكل التحيز ضد الذات، فالتحيز " موقف عقلي يسخر القيم المعرفية المكتسبة ووسائل البحث ومناهجه لخدمة الموقف السابق على البرهان"²، لذلك كان لصيقاً باللغة الإنسانية عموماً، وتفسير ذلك كما يطرحه عبد الوهاب المسيري هو أنه لا توجد لغة إنسانية تحتوي على كل المفردات الممكنة للتعبير عن الواقع بكل مكوناته، أي أنه لا بد من الاختيار كما ثبت أن كل لغة مرتبطة إلى حد كبير ببيئتها الحضارية وأكثر كفاءة في التعبير عنها ... وقد لوحظ تداخل الدوال وتداخل المدلولات والثبات النسبي للدوال (باعتبارها جزءاً من النسق اللغوي الثابت) والتغير السريع للمدلولات بدرجة تفوق تغير الدوال. كل هذا يعني أن اللغة الإنسانية ليست أداة محايدة"³ ، والتحيز واقع في القلب منها، ولذلك مارس الخطابان التبعية الغربي، والتقليدي التقليدي نوعين من التحيز، كلاهما يقع ضد ذاتنا اللغوية، خاصة من الخطاب التابع لحركة الاستشراق، الذي يتمسح بمسوح العلمية، إذ يقوم بدراسة الظواهر اللغوية، واكتشاف أنظمتها، سواء ما اتصل منها بسياقات استخدامها، الزماني منها والمكاني، والتواصلية، واللغوي النفسي، واللغوي الاجتماعي، والأنتولوجي، وذلك من خلال أدوات البحث والاستقصاء

1 - جابر الكرم الجباعي، اللغة والمعرفة والقيود الصدى للحرية، مجلة الجديد، ع12، لندن 2016م، ص42.

2 - محمد أكرم سعد الدين، اعتداء الفكر العربي الحديث على ذاته اللغوية: نحو رؤية معاصرة وفتح باب الاجتهاد، دراسة ضمن سلسلة أبحاث إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، ط3، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا 1998م، ص216

3- عبد الوهاب المسيري، هاتان نقاحتان حمراوان، دراسة في التحيز وعلاقة الدال بالمدلول، دراسة ضمن سلسلة أبحاث إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، ط3، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، 1998، ص63

المتوافرة لديه، ومن خلال رؤيته لتلك الظواهر اللغوية، سواء اتسع أفق تلك الرؤية أم ضاق، قد تتحد الرؤية المتحيزة مع السلوك المتحيز في اختيار أدوات البحث لتفرز منطقتا متمنطقا بمنطق اللامنطق، فتلقي على التحيز مسوح الحياد، وتخدع- بمنطقها الصوري وأرباع الحقائق التي تطرحها، وأسلوب العرض المراوغ الذي تستخدمه جموع الناس من أرباع وأنصاف المثقفين الغافلين عن النفق المسدود، ولذلك يتوخى الباحث تحقيق ثلاثة أهداف أساسية من دراسته:

الهدف الأول : طرح الوسطية اللغوية باعتبارها جزءا من معالم الأمة الوسط، تتبدى من خلالها قوة اللغة دون مبالغة وتقديرها دون انتقاص، وإعادة الثقة فيها بوصفها أداة للتقدم وقاطرة إنتاج المعرفة. أي أن يتمظهر من خلالها نوع جزئي من التحيز هو تحيز الشخص الوثائق من نفسه ذي الهوية الواضحة الذي يدور في إطار رؤيته ويقف على أرضيتها، وله تحيزاته المحددة، يمسك الميزان بيده كما يقول عبد الوهاب المسيري.

الهدف الثاني: مراجعة موقفنا من اللغة، من خلال مراجعة الخطابات اللغوية العربية السائدة بما فيها من انحرافات فكرية أضرت باللغة ولم تنفع الدين، وتلك الخطابات الأخرى التي قصدت بتبعيتها لخطاب الاستشراق أن تسلب الأمة وحدتها وهويتها، من خلال الدعوة للعامية تارة واللاتينية تارة أو التقليل من حق اللغة العربية، ودورها كلغة عالمية لم تقصر عن أداء دورها عبر القرون، في ظل ما أتاحه لها أبنائها من تطور وفاعلية.

الهدف الثالث: تنمية وعي لغوي فاعل لا يقوم على الصوتية الجوفاء، ومن الضروري أن يعضده درس علمي وعاطفة مشبعة بحب العربية، وإدراك لإشكالياتها الطارئة، ومشكلاتها المستعصية وعرضها على المجتمع باعتبارها قضية وجود لا قضية منهج دراسي؛ لأن في تنميته تأكيد هويتنا التي تعد اللغة مقوما أساسيا من مقوماتها أو نواتها الصلبة.

وفي النهاية يمكن القول إن الباحث حاول من خلال بحثه أن يضع اللغة في بؤرة الاهتمام، وأن يلفت الانتباه لضرورة تطوير خطابنا اللغوي برمته، هذا الخطاب الذي لا ينفصل بحال عن شبكة من الخطابات تشكل منها واقعنا العربي المأزوم، ومن خلال مفهوم الوسطية اللغوية والعمل على تنمية وعي لغوي فاعل.

الفصل الأول نحو مفهوم للوسطية اللغوية

ويتضمن المباحث التالية:

- مفهوم الوسطية
- موقف القرآن من اللغة

تمهيد

مع تصاعد الاهتمام باللغة ومركزيتها في ظل العولمة وثورة الاتصالات الحديثة ظهرت مصطلحات عديدة دالة وكاشفة عن خطورة المسألة اللغوية وذلك من مثل الحقوق اللغوية، والهيمنة اللغوية والامبريالية اللسانية... إلخ، كما برزت مخاطر الحروب اللغوية في إطار من ثنائية اللغة المهيمنة واللغة المهيمن عليها، قد أصبحت قضية «الحقوق اللغوية» مطروحة بقوة منذ أن صارت جزءاً من حقوق الإنسان الرئيسة في عام 1985 م؛ لكنها قد ازدادت قوة بصورة خاصة بعد عدوى الانتشار الطاغية للغة الإنجليزية في العالم. ثم جرى تدشين مبادئ هذه المنظومة في برشلونة بإسبانيا سنة 1996 م بعنوان: «الإعلان العالمي للحقوق اللغوية»، من أجل نرى الوعي العالمي بشأن أهمية الحقوق اللغوية¹ وبدأت اللغة كأنها قارة مترامية الأطراف تحت قلب الدراسات اللغوية، فلم تعد أهميتها قاصرة على المتخصصين فحسب، بل تماسمت اللغة مع مختلف مجالات العلوم والمعرفة، ومن ذلك تماسها مع علم البيئة Ecology فظهر علم ايكولوجيا اللغة دراسة التفاعل بين اللغات ومداهما الاجتماعي واللغوي التاريخي والبيئة السياسية. كما وُجد مصطلح علم البيئة اللغوية Linguistic Ecology كاستعارة عن البيئة اللغوية، وعرفه عال اللغة الاجتماعي Einar Haugen بأنه مجموعة من الأسئلة التي يحاول اللغوي الإجابة عنها، تشمل الأسئلة، مثل: ما هي العلاقة اللغوية بين لغة معينة واللغات الأخرى؟ من مستخدميها؟ وأين؟ ما هي مجالات استخدامها؟ هل مستخدميها يتحدثون لغة واحدة أم لغتين؟ هل هناك لغات أو لهجات داخلية؟ هل اللغة كتبت التقاليد؟ وهل هي موحدة؟ هل هناك دعم سياسي ومؤسسي؟ ما هي توجهات متحدتي اللغة نحو التنوع اللغوي؟ هل اللغة رمزٌ للمجموعة أو الهوية الوطنية؟ الاستعارة من البيئة اللغوية² هذه التساؤلات وغيرها كثير تكشف عن خطورة الوعي الزائف باللغة أو التحيز غير المبرر علمياً، أو النزعة الخطابية المفرغة من المعنى، وتدعو إلى أن نطور وعينا اللغوي بخطورة مسألة اللغة على مختلف مستويات تداولها، وفيما يلي يحاول الباحث طرح مفهوم الوسطية اللغوية كأسس لبناء وعي لغوي جديد.

1 فالخ بن شبيب العجمي، الحقوق اللغوية في إطار هيمنة اللغة الانجليزية، وضع اللغة العربية نموذجاً، التخطيط والسياسة اللغوية، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، 9 سبتمبر 2019، ص: 8: 37
2 جون سوان وآخرون، معجم اللغويات الاجتماعية، ت. فواز محمد راشد، عبد الرحمن حسني، مركز الملك عبد الله بن عبد الملك الدولي لخدمة اللغة العربية، الرياض 2019، ص 213

المبحث الأول: مفهوم الوسطية

يعد مفهوم الوسطية من المفاهيم القرآنية الأساسية، حيث تأسس في إطاره مفهوم الأمة الوسط التي تستمد منهجا من الوسطية والتوازن باعتبارهما منهج حياة، وبه تأكدت خصوصية تلك الأمة باعتبارها الأمة الخاتمة، ولذلك نستطيع القول بأن قوله تعالى {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}¹، يؤسس للمفهوم العام للوسطية، وقد جاء في تفسير الآية الكريمة آراء عديدة، فجاء في تفسيرها أن الوسطية هي العدل، وتفسير الوسط في الآية بالعدل، فقد روى الإمام أحمد والبخاري عن أبي سعيد الخدري أن النبي (ص) فسر الوسط هنا بالعدل... وقال ابن كثير الوسط ههنا : الخيار والأجود"² ، فمن معاني الوسطية، الخيرية ومن معانيها أيضا الاستقامة على خلاف الملل الأخرى، فيرى البقاعي أن وسطا تعني " شريفة خيارا، لأن الوسط العدل الذي نسبة الجوانب كلها إليه سواء، فهو خيار الشيء... وسالك الوسط من الطريق محفوظ من الغلط، ومتى زاغ عن الوسط حصل الجور الموقع في الضلال عن القصد؛ ففي هذا أنهم لما ادعوا الخصوصية كذبوا وردت حججهم ثم أثبتت الخصوصية لهذه الأمة"³، وإذا ما أمعنا النظر نجد أن الأمر لا يقتصر على البعد العقدي، إذ يتجاوز به إلى أبعاد حياتية وحضارية عديدة، فمصطلح الوسطية لا يصح إطلاقه إلا إذا توافرت فيه صفتان: _

1- الخيرية

2- العدل⁴

فلا ينفصل مفهوم الوسطية بحال عن الخيرية، ففي آية أخرى يوجه الله الكلام لأمة الإسلام خاصة، بقوله تعالى {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}⁵، والآيتان متكاملتان في بناء شخصية الأمة المسلمة، وهو ما يتضح في دلالة الأمة التي تحددت في هاتين الآيتين الكريمتين؛ خلافا لدلالات أخرى في آيات أخرى، حيث تأتي في سياق المقارنة، ولا تتضح صورة الذات إلا في مراها الآخر، والعكس صحيح، فسياق آية الخيرية يدور حول النصارى ويرصد انحرافات منهجهم الذي انتهجوه في دينهم، كما يلاحظ أيضا أن الوسطية والخيرية لم تعطيا هبة

1 - البقرة، 143

2 - نقلا عن يوسف القرضاوي، كلمات في الوسطية ومعالمها، دار الشروق ط3، القاهرة، 2011م ص16

3 أبو بكر البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق عبدالرزاق غالب المهدي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة 1995، ج2/ 207

4 - محمد أحمد الخطيب، الوسطية بين الإفراط والتفريط، بحث ضمن كتاب مؤتمر الوسطية الدولي الأول، لبنان 2008، ص56

5 - آل عمران/110

دون اشتراطات، فللوسطية اشتراطاتها التي لا تتحقق إلا بها، متمثلة في الشهادة الحقة العادلة، والخيرية المرتبطة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد أضاف القرضاوي إلى المعاني السابقة المتداولة معاني أخرى تتعلق بطبيعة الوسطية باعتبارها مركز القوة ونقطة التلاقي، فهي : تمثل مركز الوحدة ونقطة التلاقي... فعلى حين تتعدد الأطراف تعدداً قد لا يتناهى، يبقى الوسط واحداً؛ يمكن لكل الأطراف أن تلتقي عنده، فهو المنتصف، وهو المركز. وهذا واضح في الجانب المادي والجانب الفكري والمعنوي على سواء¹ ، كذلك تتبع محمد محمد مدني مظاهر الوسطية من جوانب عدة تتعلق بفطرة الله والإنفاق والعبادات من منظور ديني²، فيما ذهبت منى أبو الفضل إلى أن لفظ الوسطية "يحمل مضمونا إيجابيا في منظور الإسلام : أولا من حيث كون الجماعة التي يعبر عنها محور جذب واستقطاب، ومن ثم فهي مصدر للتوازن والانسجام بين الجماعات البشرية. وثانيا أمة وسط من حيث الاعتدال في المزاج واجتباب الإفراط والتفريط . وثالثا وسط من حيث موازين القيم الأنظمة التي تقوم عليها... أما الملحوظة الأخيرة التي نشير إليها في سياق دلالات الوسطية فهي خاصة بجغرافية الموقع³ ، ولعل هذه التجليات المختلفة تقع تحت ما يمكن أن نطلق عليه المفهوم العام للوسطية، وتحت لوائه تنضوي مجالات اشتغالها في العقيدة والشريعة والأخلاق الإسلامية، والفكر الإسلامي؛ لذا وجدنا من يتحدث عن الوسطية في الدعوة ومناهجها، وعن الوسطية في الإعلام والاقتصاد والمعاملات، والعلاقات الدولية...إلخ

لقد تأسس على قراءة الآية الكريمة مفهوم عام للوسطية، حاول العلماء في العصر الحديث أن يبلوروه في منهج له ملامحه وأهدافه ومجالاته، وذلك في إطار البحث عن خصوصية الأمة الإسلامية، وسؤال الخصوصية يتعلق بالآخر بسبب؛ لذا كان السؤال المكرر لدى كثير من المفكرين المسلمين كيف تعود للأمة خصوصيتها المميزة وأبرز ما فيها هو وسطيتها. كانت فكرة الثنائيات هي المسيطرة على فكر كثير من هؤلاء المفكرين، وأخذت العلاقة بين الثنائيات أبعادا مختلفة وفقا لرؤية كل مفكر، فهي تعادلية عند توفيق الحكيم، وثنائية عضوية لدى زكي نجيب محمود، وفقا لطرحه في كتابه تجديد الفكر العربي، وهي وسطية شاملة عند فهمي هويدي تنصب على زاوية النظر للكون، وجزئية تتمثل في تنزيل تلك المفاهيم والرؤى على أنشطة ومجالات بعينها⁴، وهي وسطية تجاورية عند عبد الحميد إبراهيم، وهي منبثقة من قلب التوحيد ومن التوحيد يبرز مفهوم التوازن بين المتقابلات والمتناقضات واتخاذ الموقف الوسطي.

1 - يوسف القرضاوي، السابق، ص 19

2 - محمد محمد مدني، وسطية الإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 2014

3 منى أبو الفضل، الأمة القطب، نحو تأصيل منهجي لمفهوم الأمة في الإسلام، مكتبة الشروق الدولية، ط 1 القاهرة 2005، ص 83

4 - فهمي هويدي، إعلام وثقافة الوسط، ضمن مجموعة أبحاث، الوسطية. منحج حياة عقد بالكويت، مايو 2005م

إن مفهوم الوسطية من المفاهيم المركبة التي يتسم بالحركة والفاعلية؛ حيث انتقل من الدين إلى الفكر والمذاهب الفلسفية، ويمكننا أن نحدد مرحلتين أساسيتين في تبلور هذا المفهوم على المستوى التنظيري تلتهما مرحلة ثالثة على المستوى التطبيقي :

1- ملامح الوسطية ومعالمه في الإسلام، وتمثلها كتابات محمد محمد مدني والقرضاوي وعمارة وسيد قطب

2- الوسطية في الفكر العربي، وتمثله كتابات زكي نجيب محمود ومالك بن نبي وتوفيق الحكيم وعبد الحميد إبراهيم، وطه علواني، ومنى أبو الفضل... إلخ

3- المرحلة التطبيقية وتمثلت في ظهور مؤسسات وجمعيات تتبنى فكر الوسطية وتدعو له إضافة لعقد مؤتمرات تناقش أبعاده على مستويات مختلفة دينية واقتصادية وسياسية، ومثالها، جمعية العزم والسعادة الاجتماعية بلبنان، والمركز العالمي للوسطية بالكويت.

كذا حدث تطور نوعي للوسطية بمعنى الخيرية والعدالة عند بعض مفكري الإسلام، من صفة لصيقة بالمسلمين كأمة في مقابل النصارى واليهود إلى صفة لمنهج الإسلام، بوصفه منهجاً وسطياً في كل ما يخص جوانب حياة الإنسان سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، والذي ينعكس بخصائصه على الأمة التي بناها هذا المنهج، وبقدر تمثلها لهذا المنهج تستحق وصف الأمة الوسط. وبطريقة أخرى لم تعد الوسطية هي ما جعلنا عليه - كمسلمين - بل ما يجب أن نكون عليه، وقد أدى ذلك إلى بروز الوسطية بوصفها مفهوماً كلياً شاملاً يختزن الإسلام كله بداخله، ويختصر شخصيته في كلمة واحدة، وبذلك انفتحت آفاقه الدلالية، وانفتح معه مفهوم آخر تال له ومرتبطة به ارتباط السبب بالمسبب، وهو الشهادة حتى لأمس مفهوم الخلافة في الأرض. والشهادة في حد ذاتها فعل ورؤية، ورأي، وتنوع واعتراف بوجود الآخر، والشهادة المقصودة هي الشهادة بالعدل في كل ما يطرأ "ولا يجوز أن يمدح الله الشهود حال حكمه عليهم بكونهم شهوداً إلا بكونهم عدولاً، فوجب أن يكون المراد بالوسط العدالة"¹، والشاهد غير الناقل على النحو الذي اتهم المستشرقون الحضارة العربية، "فقد غاب عن كل هؤلاء المفهوم الحقيقي لمذهب الوسطية، الذي لا يكتفي بدور الناقل أو الوسيط، لأن دوره الحقيقي هو الشاهد أو النموذج الذي يحتكم إليه الفرقاء"².

ولكن هذا لا يعني أن أسس منهجية ضابطة قد تم التأسيس لها عند معالجة أو مقارنة هذا المفهوم للتمييز بين وسطية الإسلام بكل تجلياته الإيجابية؛ لذا نجد من قام بتوظيف المفهوم لأغراض تتناقض مع دلالاته القرآنية، فهناك التوظيف الانتهازي على المستوى السياسي من قبل أطراف معروفة بأنها تقتدر إلى القيم، وهذه تقوم بعملية يمكن أن نسميها "تلبيس إبليس" وفقاً للتعبير التراثي، وقوامها تحوير وقلب دلالي للمفاهيم، إنها عملية أشبه بالنفاق تجد نموذجها في مثال

1 - (الرازي)مغر الدين محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب، (التفسير الكبير). دار الفكر ، ، ط1 بيروت 1981 م، 389/2.

2- عبد الحميد إبراهيم، الوسطية العربية، مذهب وتطبيق، الكتاب الأول دار المعارف، ط3، القاهرة، 1990، ص20

"العجل الذهبي" القرآني، الذي ظاهره براق وخادع على حين يحمل باطنه الخواء والفراغ بحيث إذا نفخ فيه الهواء أحدث صوتا مدويا، ولكن لا يمكن أن نعتد به¹، وكل هذا يتم في إطار سلطة اللغة وآليات استخدامها في تفرغ المفاهيم والمصطلحات من مضامينها إلى مضامين مضادة لها، وتحكم الأهواء والأيدولوجيات لذا يظل "البعد الذي يمكنه منح هذا المفهوم ثقله ومصداقيته ويدعم صلاحيته هو البعد التقويمي، وأن تكون إجراءات تقويمه مرتبطة بأبعاد الحياة المختلفة سلوكا وفلسفة وفكرا"²

إن لكل مفهوم إشكاليته العالقة به، ومن ثم كانت قراءة كثيرين لمفهوم الوسطية مدخلا للتمايز وبناء صورة مغلوطة عن الآخر تعمل على تقويض من المشترك الإنساني فيما بيننا، ذلك أن المقارنات بطبيعة الحال تقضي -غالبا- إلى المفاضلة، وهو ما قد يتنافى مع حرص القرآن على ضرب الأمثال لأخذ العظة والعبرة. فقد رصد القرآن الكريم مقومات بناء وانهايار الأمم، وهي سنن عامة لا تخص أمة دون أمة، رغم اختلاف الشرائع والكتب. فأى مقارنة يجب أن ينظر إليها بوصفها أداة فاعلية لا بوصفها ضرورة حتمية، فلم تعط الأفضلية سلفا، بل بناء على فاعلية تؤكدها وتبرهن لها، بوصفها فاعلية بشرية تقوم على فهم للدين وفهم للواقع، تدخل في علاقة تأثير وتأثر بسياقاتها التاريخية، والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، في تعاقب مستمر لأدوار ذلك التأثير والتأثر؛ حيث تسلم المقدمات إلى نتائج، وهذه الأخيرة تصبح بدورها مقدمات لما يليها، وبذلك فلا سبيل لقطع هذه التعاقبية إلا بتغيير مقومات الفاعلية البشرية؛ وهذا موطن اختبار الأمم وتفاضلها؛ الذي لا يجب أن تغفله أي معالجة لمفهوم الوسطية. صحيح أن مساحة الحركة المتاحة لنا هي مساحة التأويل؛ لا التنزيل، فقد تعهد الله بحفظ كتابه الكريم، لكننا قد نفهمه ونفسره متأثرين بأساق كتابية أخرى، فنسلك مسالك مقارنة لهم، بما يحول بيننا وبين تمثل شخصية هذا الدين ووسطيته، ومن ثم قيام الأمة الوسط، هذه المسافة بين وسطية الإسلام وبين تمثل الأمة لها هو ما يجب أن تستكشفه الدراسات المقارنة، "لقد وردت آية الوسطية سياق الحديث عن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، والرد على الشبهات التي أثارها يهود المدينة حول هذا الحدث، وسياق السورة كلها يدور حول بني إسرائيل لتبيين منهجهم في التعاطي مع أنبياء الله وفي التعاطي مع الواقع، وبيان خصائص شريعتهم. وعلى ذلك فإن فهم الآية 143 في سياق المقارنة أمر منطقي، ويعضد ذلك تفسير البعض للصرط المستقيم، الذي يختلف في محصلته النهائية عن صراط المغضوب عليهم ولا الضالين أي اليهود والنصارى فالوسطية مقام يجمع بين مقامين وفي أنظومة مختلفة، يسميها عبد الحميد إبراهيم مقام الكمال بجمعه بين مقامي الجلال عند اليهود ومقام الجمال

1 - منى أبو الفضل: الوسطية مشروع لا موقف، موقع الوسطية.

2 - منى أبو الفضل، السابق

عند المسيحية¹. إن الآية تتكلم عن "دين له شريعة ومنهج مختلف عما سبقه لِلكلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَاةٌ، وَيُؤَسِّسَانِ لِأُمَّةٍ لِأَبَدٍ وَأَنْ تَكُونَ مَخْتَلَفَةً إِذَا مَا تَمَثَّلَتْ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ وَهَذَا الْمَنْهَاجُ"². إن الوسطية بمفهومها الإسلامي، تقوم وفق مرجعية، فهي ليست مجرد نقطة وسطى بين موقفين متطرفين، وليس لها علاقة، " بما يسمى الوسطية والاعتدال في الخطاب الحديث، فالاعتدال والتطرف من المفاهيم النسبية التي لا يتضح المقصود منها إلا حين توضع في إطارها التصوري، فالاعتدال في هذا الخطاب هو أن يأخذ المرء موقفاً وسطاً بين موقفين متطرفين، دون مرجعية، والاعتدال يعني التوصل إلى حل وسط بين نقطتين أو طرفين، وإذا تغير الطرفان فإن نقطة الاعتدال تتغير هي الأخرى، الوسطية الإسلامية قد تكون نقطة بين طرفين يتسمان بالتطرف، ولكنها مع هذا رؤية متماسكة متكاملة لها مرجعية نهائية ثابتة"³، فهي تجمع بين الشينيين، بمعنى أنها تجري وراء الحق عند أية طائفة حتى لو كانت معادية، فتضمها وتصبح الأنموذج بين الفرقاء، والشاهد الذي يلتبس عنده الحقيقة، إنها تصدر من منطق القوي، الذي لا يغمض عينيه إزاء الحقيقة، ولا تدفعه العقد والأمراض النفسية، أو الانحرافات التي تخشى الوسطية الوقوع فيها، إن تفسير قوله تعالى " لا شرقية ولا غربية" يعني عند الفراء والزجاج أنها شرقية وغربية معاً،⁴

إن الوسطية ككل منهج فكري عرضة للانحراف، والاستغلال، وقد تطيح به الأهواء وسوء الفهم؛ لأنها تقوم على خيط دقيق، يسميه القرآن الكريم الصراط المستقيم، وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف فيما يقال، يحتاج إلى الهداية التي تمكن صاحبها من عملية التوازن، وهي عملية دقيقة تتطلب أن يجمع المرء بين الطرفين في الوقت الذي يفقد فيه ذاتيته، " وليس الانحراف مجرد الاتجاه إلى أحد الطرفين، فقد يكون الانحراف بالجمع بينهما على غير بصيرة مما يأخذ أسماء كثيرة مثل: التوفيقية والتلفيقية وازدواج الشخصية وغير ذلك من أسماء يمكن أن تتدرج تحت لفظ واحد، اختاره القرآن الكريم وسماه النفاق"⁵، ولعل ذلك سر الهجوم عليها في مرحلة من المراحل على النحو الذي ذكره عبد الحميد إبراهيم، وعزا ذلك لسوء فهم البعض للمصطلحات،" فترادفت عندهم الوسطية والتوفيقية والتلفيقية واعتبروا الجميع نفاقاً وازدواجية"⁶، وهكذا دخلت الأيديولوجية في تحديد موقف المفكرين من الوسطية، وكان لها دور أساسي في تحديد موقف كل مفكر منها. رغم أن الوسطية ذاتها منهج قائم بذاته، وإن كان إسلامي المنبع فإنه لا يرفض الآخر أو يقصيه، فليس

¹ - عبد الحميد إبراهيم، الوسطية العربية، مذهب وتطبيق، الكتاب الثاني، التطبيقية، دار المعارف، ط1، القاهرة، 1986، ص35

² - رانيا رجب شعبان الوسطية، مجلة المسلم المعاصر ع152 لبنان، 2014، ص69 وما بعدها

³ - عبد الوهاب المسيري، الهوية والحركة الإسلامية، حوارات، تحرير سوزان حرفي، دمشق، دار الفكر، 2009، ص98

⁴ - عبد الحميد إبراهيم، الوسطية العربية، مذهب وتطبيق، الكتاب الأول، دار المعارف، ط3، القاهرة، 1990، ص18

⁵ - عبد الحميد إبراهيم، السابق، ص19

⁶ - عبد الحميد إبراهيم، الوسطية العربية، مذهب وتطبيق، الكتاب الثالث نحو وسيطة معاصرة دارالمعارف، ط1، القاهرة، 1991، ص17

مضادها هو المذاهب الأخرى، ذلك أن "غير الوسطية هي ضد الوسطية، وإذا كانت الوسطية تراعي الجانبين، فإن غير الوسطية تراعي جانباً وتهمل الآخر، أما التفريقية فهي لا تراعي شيئاً على الإطلاق لأنها ليست موقفاً"¹

ورغم كثرة ما كُتب في الوسطية وما طرأ على المصطلح من توسع حتى صارت الوسطية خصيصة مميزة للأمة، إلا إن المشكلة الأساسية تتعلق بكيفية تحول الوسطية إلى منهج وأسلوب حياة، فلا يكفي تتبع معالم الوسطية ومجالاتها من خلال دراسات تكتب ومؤتمرات تعقد، "فالوسطية لا تقف عند مرحلة التفكير فحسب، فكل تفكير يؤدي إلى عمل وكل قضية تمتحن وجودها الخارجي وذلك هو التحدي الكبير الذي يواجه الوسطية العربية الإسلامية"²، إذ يظل المحك الأساسي هو التطبيق العملي والفاعلية التي تتبدى عند مجابهة المشكلات، لتظهر الوسطية في اختيارات الفرد وسلوكهم وفي بناء المجتمعات وتوجهاتها. وهو ما لا يتم إلا بالتوازن بين الفكر والعمل، لذلك يرى الباحث أن الفكر الوسطي لن يؤتي ثماره إلا إذا توافر له ما يلي:

- 1- المنهجية بمعنى أن يكون للوسطية منهج واضح أي طريقة في التفكير والتحليل وأداة عقلية للاستنباط، يستقي معينه من القرآن الكريم والسنة النبوية، فلا يكفي أن يظل حديث الوسطية أسير قاعات المؤتمرات أو بطون الكتب والدراسات، وهذا داء عضال من أدواء الأمة.
- 2- التعميم والتفعيل بحيث تكون الوسطية منهج الأمة من الساسة إلى رعيته، يتم تضمين ملامحها وأسسها الضابطة في المناهج والمقررات الدراسية ويعضدها الفعل. وهذا الشرط نفقده على عدة مستويات فإذا كان من مقومات الوسطية الأساسية: الحرية والعدل، فإن هذين المقومان أبعد ما يكون عن أمتنا العربية في عصرنا الراهن وفي عصور سابقة سلفت.
- 3- ربط الوسطية اللغوية بالوسطية في مفهومها الشامل، فالأمة الإسمية وسطية بكل معنى الوسط، حيث لا تنفصل الوسطية اللغوية عن الوسطية في مفهومها العام باعتبارها قوام المنهج الإسلامي، فهي تنضوي تحت أسسها القائمة على وحدة الأصل الإنساني ووحدة الدين وأن أساس المفاضلة هو التقوى، وما كان حديث الرسول الكريم عن هذا الأساس إلا إشارة دالة لجانب آخر يخص أسس المفاضلة غير القومية كالنوع أو الجنس أو اللون بما قد يرتبط بهما من اختلاف في اللسان، السلوك اللغوي المتبع والحقوق اللغوية لأفراد المجتمع.

1 - عبد الحميد إبراهيم، السابق، ص 15

2 - عبد الحميد إبراهيم، الوسطية، الكتاب الثالث نحو وسطية معاصرة، دار المعارف ط1 القاهرة، 1991، ص 40

المبحث الثاني موقف القرآن الكريم من اللغة

استكمالا لمفهوم الوسطية يحاول الباحث في هذا المبحث قراءة موقف القرآن الكريم من اللغة عموما، واللغة العربية خصوصا وذلك لبلورة موقف وسطي يراه يخدم اللغة والدين معا، فقد كان ارتباط القرآن الكريم باللغة العربية فاتحة خير لها على مستوى تطورها أساليب ودلالات وتراكيب، وعلى مستوى جمالياتها بما بثه في روحها من جماليات جديدة خلافا لما كان سائدا في آداب هذا العصر شعرا وسجع كهان وخطابة، وعلى مستواها الفكري بما ضمه إلى نسغها من قضايا مستجدة لم يكن للعرب بها عهد، والسؤال المطروح إذا كان الأم كذلك فهل للغة العربية قدسية مثل قدسية القرآن الكريم؟ وما آثار ذلك على خطاب من تبنى قدسية اللغة؟ فلننظر كيف تعامل القرآن مع اللغات عموما واللغة العربية خصوصا.

ويمكن تقسيم ما ورد بخصوص اللغة في القرآن الكريم إلى قسمين أساسيين:

1- الحديث عن اللغة عموما

2- وصف القرآن بالعربية

نَمَّ ثلاث آيات تقع في قلب القسم الأول سوف نتوقف أمامها تباعا، أما وصف القرآن بأنه عربي فله وقفة ثانية.

لم يرد ذكر اللغة صراحة في القرآن الكريم، وإن وردت الجذر الأصلي لها، (لغو) ففي أكثر من موضع، وكلها ذو دلالة مستكرهة مستهجنة ترتبط بالفحش من العمل والمستقبح من الكلام،¹ فيما استعاض عنها باللسان فهو أكثر الألفاظ دلالة على اللغة باعتباره الأداة الأساسية لإنتاج الكلام، واستعاض عنها بالبيان في قوله تعالى {الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}² وفقا لتفسير من فسر البيان بأنه الكلام، وفكثيرا من جاء في القرآن أنه نزل بلسان عربي مبين، كما وصف بأنه قرآن عربي في أكثر من موضع، والسؤال هنا هل يحمل هذا الوصف دلالة على مكانة اللغة العربية وأفضليتها على سائر اللغات؟

في البدء علينا أن ندرك " أن الاستخدام الإلهي للمادة اللغوية ولأي مادة في الكون يختلف نوعيا عن الاستخدام البشري مع وحدة خصائص المادة. فحين يستخدم الله اللغة العربية في التنزيل فإنه يستخدمها وفق مستوى إلهي يقوم على الإحكام المطلق فلا يكون في القرآن مترادفات توظف

1 - فصلت/ 26، الغاشية /11، الطور/23، مريم/62، الواقعة/25، النبأ/35، القصص/55، البقرة/225، المائدة/89

2 - الرحمن/4

ضمن جناس وطباق، إذ تتحول الكلمة ضمن الاستخدام الإلهي إلى مصطلح دلالي متناهي الدقة¹ ، وعليه فإن استخدام وصف القرآن بأنه بلسان عربي مبين، يتعلق بوصف من أوصاف القرآن، إذ أفاض القرآن الكريم في نكر هذه الأوصاف، فهو نكر، وتذكرة، وهدى، ورحمة، ولا ريب فيه ومصداق، وموعظة، ومحكم، وحكيم، مهيم، غير ذي عوج، شفاء، برهان...إلخ

هذه الصفات تقع في إطار اللغة الواصفة، حيث يمتلك النص قدرة ذاتية على الوصف والتأويل والقراءة. وربما يمكننا أن نضع مقولة القدماء عن تفسير القرآن بالقرآن في هذا الإطار. كما أن استخدام اللسان للحديث عن اللغة له دلالة في أن اللغة إنسانية بالدرجة الأولى، خلافا للغات أمم أخرى -كالطيور مثلا - من مخلوقات الله مما لا نفقهه نحن، أي أن استخدام اللسان ينسجم مع الرؤية الإسلامية في هذا الموضوع.

أما ما قالت به آراء بعض المفسرين الذين يتخذون من نزول القرآن حجة على فضل العربية وتميزها عن غيرها، يستثني من ذلك بعض المفسرين الذين لم يفسروا الآيات التي يستشهد بها على فضل العربية بكيفية توحى بتفضيلها. ومن ذلك قول الطبري في تفسيره لقوله تعالى: "وما أرسلنا رسول إلا بلسان قومه..."، فليس في هذا التفسير - في رأي المزيبي - إلا توضيح لسنة الله في إرسال كل رسول بلسان من أرسل إليهم: وكذلك تفسير أبي حيان² وسوف نرى أن هذه القراءة أنتجت خطابا تقديسيا يصف اللغة العربية بأنها أفضل اللغات وأنه لغة أهل الجنة إلى غير ذلك من خطابات مكررة لدى أهل الألسنة الأخرى. إن وصف القرآن بالعربية تقرير لأمر واقع، باعتباره سنة من سنن الله، أن يرسل كل نبي بلسان قومه. كما جاء أحيانا في رد شبهات من قال بأن الرسول الكريم تلقى الوحي من أعجمي، فكان منطقيا أن يحتاج القرآن أصحاب هذه الفرية، بالحجة والبرهان. كما أن آية أخرى تنقض القول بالأفضلية، ونجد ذلك في قوله تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ }³ حيث " دلالة خلق اللغة على وجود الله هي في ميزان القدرة تعدل دلالة خلق السموات والأرض على هذا الوجود، وهذه آية وتلك آية، ولا يدرك ذلك إلا أولو العلم وأرباب العقول"⁴ ، فمن آيات الله البيئات في الأرض اختلاف الألسنة والألوان. كما إن قضية اللغة لم تكن مطروحة إبان نزول القرآن أو من بعده بالتجليات التي نراها في عصرنا الحالي.

ويمكننا من قصة آدم عليه السلام أن نفهم أهمية اللغة ناهيك على الآية الافتتاحية للقرآن الكريم، ففي قصة آدم يتحدد جانبان أساسيان من موقف القرآن الكريم من اللغة، الجانب الأول هو

1 - محمد أبو القاسم حاج محمد، منهجية القرآن المعرفية، أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، دار الهادي، ط1 بيروت 2003 م، ص97

2 - حمزة المزيبي، التحيز اللغوي، م س، ص36

3- الروم/22

4 عبد الصبور شاهين، عربية القرآن، مكتبة الشباب، ط1 القاهرة، 1997، ص14

أن تلقي الخطاب اللساني فعل إيماني مطلوب من كل مسلم، والثاني هو أن آدم عليه السلام تميز عن سائر المخلوقات بتعلم الأسماء"¹ ، والآية الإلهية ليس بالضرورة أن تعرف ماهيتها معرفة كاملة، حيث يمكنك أن تدرك آثارها، فمن ثم يصعب أن نرتد للسؤال الذي لا نهاية له فيما يتعلق بتوقيف أو توفيق اللغة، إذ إن الظاهرة حادثة ومظاهرة قائمة أوضح ما تكون، إن هذا جانب من القصة يحدد "العلاقة الأساس التي بدأت منذ أن خلق أبو البشرية، أي العلاقة بين الإنسان أولاً واللغة ثانياً والمخلوقات ثالثاً"² ، وربما نميل نحن مع التفسير القائل أن مفردة الأسماء هنا لا تدل على المفردات التي تقابل في اللغة الأفعال والحروف وغيرها، بل من المفروض أن تفهم باعتبارها ألفاظ اللغة، بغض النظر عن تصنيف النحاة واللغويين وبعيدا من اعتمادها إشارة إلى الأشياء المحسوسة فحسب. علم آدم الأسماء كلها، أي أعطاه موهبة إطلاق الأسماء، واستعمال اللغة للدلالة على ما يستطيع رؤيته ووعيه وإدراكه"³ ، وهذا التفسير يتفق مع ما ذهب إليه الطاهر بن عاشور في تفسيره حيث يقول "الظاهر أن الأسماء التي علمها آدم هي ألفاظ تدل على نوات الأشياء التي يحتاج نوع الإنسان إلى التعبير عنها لحاجته إلى ندائها، أو استحضارها ، أو إفادة حصول بعضها مع بعض ، وهي - أي الإفادة - ما نسميه اليوم بالأخبار أو التوصيف فيظهر أن المراد بالأسماء ابتداء أسماء الذوات من الموجودات مثل أعلام الشخصيات، وأسماء الأجناس من الحيوان والنبات والحجر والكواكب مما يقع عليه نظر الإنسان ابتداء مثل اسم جنة، وملك، وآدم، وحواء، وإبليس، وشجرة وثمره . ونجد ذلك بحسب اللغة البشرية الأولى ولذلك نرجح ألا يكون فيما علمه آدم ابتداء شيء من أسماء المعاني والأحداث ثم طرأت بعد ذلك فكان إذا أراد أن يخبر عن حصول حدث أو أمر معنوي لذات قرن بين اسم الذات واسم الحدث نحو ماء بارد أي ماء بارد ثم طرأ وضع الأفعال والأوصاف بعد ذلك فقال الماء بارد أو برد الماء . وهذا يرجح أن أصل الاشتقاق هو المصادر لا الأفعال لأن المصادر صنف دقيق من نوع الأسماء ، وقد دلنا على هذا قوله تعالى " ثم عرضهم"⁴، وإن كنا لا بد أن نضع القصة بأكملها في إطار المقارنة بين علم آدم وعلم الملائكة، حيث تشير الآيات " إلى كنه المعرفة التي أوتيتها آدم دون الملائكة، وهي معرفة الأسماء، لأنه تعالى عرض عليهم الأشياء، ولو كان العلم بها في أنفسها يغني عن العلم بأسمائها،

1 بسام بركة، الترجمة إلى العربية دورها في تعزيز الثقافة وبناء الهوية، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي، إشكاليات التعليم والترجمة والمصطلح، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1 بيروت، 2013م، ص22

2 - بسام بركة السابق، ص23

3 - بسام بركة السابق، ص23

4 - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس 1984م ج1/409

لما استقام لهم أن يقولوا الذي قالوه، فدل قولهم على أن الأسماء مناط وجود للأشياء لأنها السبب إلى معرفتها وكأنها كانت قبل الأسماء معدومة، أو في حكم المعدومة، تأتي لأدم ما لم يتأت للملائكة، لأنه علمك الأسماء" ¹ أو بالأحرى اللغة، فعليه يمكننا تأكيد أن القرآن الكريم منذ أول مشهد رصده لأدم يؤكد على أهمية العلم خاصة اللغة بوصفها سبيل المعرفة والوعي بالأشياء، فالقضية قضية العلم والمعرفة لا قضية بأي اللغات تكلم آدم على النحو الذي تحولت إليه مناقشة بعض اللغويين وغيرهم، ممن شغلوا بقضايا أحدثت "أزمة في الضمير اللغوي الذي توارى خلف الوضع والاصلاح وما يعقل وما لا يعقل، وما يصح وما لا يصح، كما توارى من قبل في المسميات والذوات. هي أزمة القطيعة بين اللغة والوجود...واللغة القرآنية ليس فيها هذه القطيعة، لأن الأسماء علة وجود الأشياء في خطاب كن " ²

ونستطيع ربط هذه القصة بالآية الكريمة التي ذكرناها في أول الحديث؛ لنستنتج أن اللغة موهبة يضعها الخالق في الإنسان بمعنى آخر هي القدرة التي تولد مع الإنسان وتتيح له أن يستعمل نظام رموز (أيا كان هذا النظام) للتعبير عن العالم كما يراه وللقيام بعملية التواصل أيضا بينه وبين الآخرين، إن لحظة إثبات الخلافة للإنسان على الأرض مرتبطة ارتباطا أساسيا باللغة وتعلمها، إذ إن تسمية الأشياء يعني بمعنى من المعاني امتلاكها" ³

وقد تنوعت أقوال المفسرين حول قصة آدم في نقاط عدة تتعلق بفاعل علم من ناحية وعود الضمير في أسمائهم، وطبيعة تلك الأسماء، ولعل أبسط ما يمكن استنتاجه من هذا الموقف الذي يتضمن المقارنة بين علم آدم وعلم الملائكة، لكنه يعبر من طرف آخر عن مركزية اللغة في حياة الإنسان، هو أن النص الكريم مفتوح على تأويلات عدة يصعب معها الجزم فيها بقول، وفتح الدلالة يتعلق بصعوبة التوصل لإطار زمني أو مكاني الذي تتحرك فيه العلامات، ناهيك عن طرق التواصل بين الأطراف داخل هذا السياق، وقد أخذ ابن جني في الخصائص المعنى النحوي للأسماء، باعتبارها صاحبة القوة والأولية في النفس والرتبة" ⁴ ، وهذا الأمر ليس بشئ لأن ما بعدها من إشارات دالة هو ما يؤكد ذلك باعتبار أن تلك الأسماء ألفاظ لموجودات علمها الله لأدم والعرض

1 ، لطفي عبد البديع، مينا فيزيقا اللغة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1997، ص15

2 - لطفي عبد البديع، السابق، ص38

3 - بسام بركة السابق، ص24

4 - (ابن جني) أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، الهيئة العامة لتصور الثقافة، ط القاهرة، 2006، ج1/42

كان للمسميات لا الأسماء، وفي هذا الموقف الأول لآدم موقف التعليم واللغة، يستوقفنا الاختلاف بين الفعلين اقرأ وأنبئ، وإن اشترك كلاهما في عملية المشافهة، على وضوح في صيغة الفعل الأول وغموض في الفعل الثاني، وهو غموض يفرضه السياق المكاني والزمني للموقف.

وفي إطار العلاقة بين الدال والمدلول يمكن القول إن الجمع بين الأسماء بوصفها دوال، من ناحية، وعود الضمير في كلها تارة و (هم) في قوله تعالى(عرضهم) تارة أخرى يتضمن ربطا تاما بين الدال والمدلول، وإن كنا نقول بأسبعية الدال، أو قوته وقدرته على إبراز المدلول، إذ لا وجود لمدلول بدون دال، وعليه يتأسس القول بالتسمية، في البسطة من ناحية، والبدء بالقراءة في اللقاء الأول بين جبريل عليه السلام ورسولنا الكريم في قوله { أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }¹. إن الاسم في القرآن الكريم هو ذاته الدال المفرد المعبر عن مدلول حسي أو معنوي، وإن لم يستخدم في القرآن إلا للدلالة على الحسي، ففي سورة النجم يقول تعالى { إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۗ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى }². وبالمقارنة بين عود الضمير في الفعلين سميتموها و عرضهم نلاحظ أن اللفظ الدال لا يعني شيئا في ذاته، بل يرتبط دائما بالمدلول ارتباطا يتحقق من خلاله المعنى، ولذا جاءت عملية تعليم آدم عليه السلام متضمنة الجزئين معا، فيما تم تفريغ الأصنام والمعبودات التي يعبدها أهل الشرك من دون الله من الدلالة، إنها مجرد ألفاظ، حتى وإن كانت ترمز وتشير إلى موجودات حسية، إلا إن جمود تلك الموجودات يفرغها من المعنى، ويجعلها مجرد أسماء تشير ولا تحمل معنى .

ومما يلاحظ أن القرآن في حديثه عن ذاته وتحديه للمشركين لم يرد المعنى بحال، وكان التركيز على اللفظ بمستوياته المختلفة وتشكلاته ما بين حرف وآية وسورة ، فالقرآن وضع تشكلاته من داخله وبنائها بصورة جعلت من عملية القراءة أمرا أساسيا، والقراءة فعل واع جامع ومن ثم لم يكون عجيبا أن يسمى قرآنا، وعليه كان أسلوبه اللغوي الفريد مظهرا من مظاهر إعجازه، كما إن القرآن يتطلب قاموسا ألسنيا معرفيا يستند في تحديد دلالات ألفاظ القرآن المنهجية والمعرفية إلى نظرية العائد المعرفي أو المرجع أو الوسيط، فهناك ثلاثة أمور في عملية توصيل دلالات المفردة فهناك الكلمة وهناك الأمر الذي تشير إليه وهناك التصور العقلي المشكل عن هذا الأمر...

1 - العلق/1

2-النجم/23

فخصائص اللغة دائماً ما تأتي مرتبطة بخصائص الأمة التي تتكلمها من زاوية الوسيط الذهني للتصور، فكل أمة تتكلم كما تفكر ونحن نعلم بأن لغة القرآن هي الوسيط الذهني للتصور¹ ثمة عبارة شاعت بين القدماء تكشف عن رؤيتهم لدور اللغة، لا سبيل إلى معرفة حقائق الأشياء إلا بتوسط اللفظ، لا في التعبير عن الأشياء بل وخلقها أيضاً، فهي أقرب ما تكون إلى الذات والموضوع، فليست لغة القرآن مجرد ألفاظ وعبارات على النحو الذي نراه فيما يكتبه البشر، بل هو علامة تحول فارقة على كل المستويات، حتى " يكاد يكون المظهر اللغوي للقرآن يعكس مظهره العقائدي، ويعبر على العموم عما أتى به من جديد وما إليه من قضايا ومسائل. إن لغة القرآن، لاسيما مصطلحاته الفنية، ومنها الاستعارة اللغوية تستحق أن تنعت بأنها لغة معجمية اجتماعية. لأن المعجمية الاجتماعية تستحق بأن تنعت بأنها لغة معجمية اجتماعية"²

إن اللغة في مركز أول حوار بين الله وآدم والملائكة، أيا كانت طبيعة تلك اللغة المستخدمة، كما إنها في مركز الاتصال الأول بين السماء والأرض في بدء الرسالة الخاتمة، إذ كان الأمر الأول "اقرأ"، وما بين أمر الله لآدم بأن يبنى الملائكة بأسماء المسميات، والأمر الإلهي لمحمد صلى الله عليه وسلم، ما يؤكد خطورة اللغة، باعتبارها مدار الوعي والمحرك الأساسي للفهم وإعمال العقل، والتدبر، وثمة شبه آخر بين الموقفين، يتعلق بالمأمورين، فالأمر وجه إلى آدم ولم يكن له معرفة بتلك المسميات، وهو ما ينطبق على الأمر الصادر إلى الرسول الكريم، إذ تطلب منه القراءة وهو الأمي، إن الدروس المستنتجة من الموقفين لا حصر لها، وأبرز ما يلفت انتباهنا هو أن ميزة آدم كانت لعلمه، وقدرته على تدوير هذا العلم، وتطويره، وهنا نقرأ العلاقة بين اللغة والحرية، إذ مع المعرفة جاء الخطأ- وهو ما لم يتوفر للملائكة- ثم التوبة، فجاءت معصية آدم تالية لمعرفته، وفي الموقف النبوي، توسيع لمعنى القراءة بل استخدام لها بصورة تجعلها مقابلة للفهم والوعي والإدراك وإعادة بناء علاقة جديدة بين الله والإنسان، وبالأحرى تأسيس وعي بشري جديد.

وليس ثمة تناقض بين اقرأ بمعناها الواسع وأمية الرسول الكريم، لكن تضيق الدلالة جعل التناقض قائماً، فما اعتبره القدماء إعجاز، وجد فيه المناوئون والمكذبون منفذاً للتقول والتشكيك، ولا يفيض هذا الاشتباك الناتج عن قصور القراءة إلا أن نحرر "القراءة من أسوارها الأبجدية وحدودها اللغوية- على سعتها- ليطلقها في عالم المعاني شديدة الثراء والخصوبة ... فمشتقات اقرأ ترد بمعان؛ الحمل، الجمع، من المجموع، الفقه. المدة الزمنية. وكل واحدة من هذه المعاني تمنح اقرأ بعد جديداً"³، ويتأكد ذلك من التنوع الخلاق في استخدام القرآن الكريم لمختلف الجذور اللغوية المتعلقة باللغة من مثل اللسان والاسم واللغة والقول... إلخ

1 - محمد أبو القاسم حاج محمد، منهجية القرآن، م س، ص 98

2 - محمد رشاد الحمزاوي، العربية والحداثة، أو الفصاحة فصاحات دار الغرب الإسلامي، ط2 تونس، 1986، ص140

3 - أحمد خيري العمري البوصلة القرآنية، إبحار مختلف بحثاً عن خريطة للنهضة، دار الفكر، ط3 دمشق 2010، ص25

إن اللغة القرآنية ذات طبيعة تمثيلية لا بالمعنى المعتاد لتمثيل لغة ما لحدث أو واقع ما، إنما نقصد تمثيلاً أكثر سعة يتأتى من اتساع النص وشموليته، وانفتاحه لفضاءات من الغيب والتاريخ والواقع، ثم صبها في لغة واحدة ليؤكد هذا الطابع، فثمة مناطق لا يستطيع العقل البشري الوصول إلى كنهها أو طبيعتها بل إلى تخيل فضائها الزمكاني لطبيعة المتحاورين فيها، فاللغة تتسع باتساع الكون، كما إن لغاته ذات طبيعة خاصة من المستحيل أن تكون داخل منظومة إشارية واحدة كاللغة العربية، ومن ثم كان الطابع التمثيلي حاضراً بل ومضاعفاً في النص القرآني. ولذلك أيضاً وجدنا أن اللغة أضيق من النص الذي تجاوزها كثيراً إلى مستوى أعلى من الترميز، على نحو ما نجده في الحروف المقطعة، أو كسر السياق أو الانزياح النحوي والإعرابي كما نجده أيضاً في استخدام ألفاظ معجمية لا لوجودها من قبل بل استحدثت النص كثيراً منها.

لذا علينا أن ندرك أن ثمة فرقاً بين حفظ القرآن الكريم وحفظ اللغة العربية، فلا يظن أحد أن حفظ اللغة هو صونها من التغير والتطور، فهذا يتنافى مع طبيعة اللغة عموماً وواقع اللغة العربية خصوصاً، " ولا يعني هذا إثارة أية شبهة حول العلاقة الثابتة الفريدة بين القرآن والعربية، بل هو متعلق بالفرق بين المراد بحفظ القرآن والمراد بحفظ العربية؛ فالقرآن إلهي وهو محفوظ دون تغيير ولا تبديل، أما العربية فإن الحفظ لا ينسحب عليها بما هو صونها من التغيير والتبديل. القرآن هو المقدس المحفوظ، أما العربية خلا المقدس فهي ظاهرة إنسانية خاضعة لمتغيرات الشروط ومقتضيات الأحوال عبر الزمان" ¹، وإلى هذا الرأي يذهب حمزة المزيني، إذ يرى أن " هذا القول بربط حفظ العربية بحفظ القرآن الكريم في حقيقة الأمر لا يفسر تفسيراً مقنعاً سر بقاء اللغة العربية وعدم تغييرها تغييراً كبيراً في خلال هذه القرون الطويلة. بل إن هذا القول يتعارض مع ما ترويه المصادر العربية نفسها عن التغير الذي أصاب اللغة العربية حين بدأ اختلاط العرب بغيرهم بعد الفتوحات الإسلامية، وانتشار العرب خارج الجزيرة العربية، وكذلك فإنه يتعارض مع ما تقوله المصادر العربية أيضاً إذ ترى هذه المصادر أن العرب قبل الإسلام وفي القرون الثلاثة الأولى في الأقل كانوا يتكلمون الفصحى لغة يومية بشكل لا يختلف عن لغة القرآن الكريم، فإذا أخذنا هذا الرأي على علاقته فإنه يصبح من غير المعقول أن نقول إن اللغة العربية لم تتغير" ²

ولكن علينا أن ندرك أن الأيدي البيضاء للقرآن الكريم على اللغة العربية رهن بتمسك الإنسان العربي المسلم بهما معاً، ولعل من أهم ملامح هذه العلاقة الوثيقة بينهما هو أن نزول القرآن بالعربية كان إعلاناً عن صلاحية اللغة العربية علمياً وإنسانياً لحمل وترشيد مفاهيم الحضارة، والتعبير عنها مهما يكن مستواها، لأن اللغة التي تتسع للقرآن وآياته بهذا الاقتدار البالغ، لا بد أن

1 - نهاد الموسى، اللغة العربية في العصر الحديث قيم الثبوت وقوى التحول، ط1، عمان 2006، دار الشروق، ص44

2 - حمزة المزيني، مراجعات لغوية، ج2، م س، ص172

تكون أقدر على التعبير عن أي مستوى من مستويات تقدم الإنسان عبر كل العصور¹. ما هييك عن دور القرآن في تطور كل ما هو مسيس الصلة باللغة وفنونها وبلاغتها، كما يعزى إليه أنه" بانقله مشافهة متواترة حفظ للغة العربية أصوات حروفها، وضبط لها مخارجها، وأحكام نطقها"² وموقف الحديث النبوي من اللغة هو ذات موقف القرآن، فلم يول عناية بفضل العربية على نحو ما نراه من أحاديث يتم ترديدها، فجلها موضع على نحو ما تتبعه حمزة المزيبي في كتابه التحيز اللغوي، ويبدو أن قضية اللغة في عصر النبوة لم تكن مثارة ولم يكن هناك ما يدعو لإثارها، اللهم إلا ما رواه الترمذي في جامعه في (باب تعليم السريانية) بسنده عن زيد بن ثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يتعلم كتابة اليهود³، وهو حديث لا يتعلق باللغة العربية أصلا، وإن كان يشبك بتعلم لغات أخرى بهدف معرفة الآخر وفهمه. ويبدو أن هذه الفترة كانت فترة تسامح لغوي، فلم نجد ما يشي بتعصب في التعامل مع اللغة العربية أو غيرها، حيث وردت بعد ذلك أقوال عديدة على يد المفسرين والعلماء عن أهمية العربية بعد ظهور العلوم المختلفة ودور اللغة فيها مثل التفسير والفقهاء. وغيرهما من العلوم، كما يلاحظ أن مقولة كثير من الأئمة والتابعين في مدح العربية ترتبط بظروف اجتماعية وسياسية طرأت على الدولة الإسلامية مع ظهور الموالى والمذاهب والأحزاب السياسية. وبدور اللغة في العلوم المختلفة التي توالى ظهورها.

نهي هنا بموقف اللسانيات الحديثة من المفاضلة بين اللغات، فنجد أن "اللسانيات تقول؛ أو تقريبا معظم الاتجاهات اللسانية تجمع على أن كل لغة أو كل لسان كاف في العبارة عن أغراض أهله، وأنه بذلك لا تفاضل بين لغة ولغة، وهم يقولون إن هناك ما يمكن أن يسمى بالكليات اللسانية (universals) التي تشترك فيها جميع اللغات، فما من لغة إلا وفيها مقولة الإسناد، وما من لغة إلا وفيها مقولة الإضافة، ومقولة التبعية، ومقولة النعتية، وهذا هو الذي يبسر النقل من لغة إلى لغة، لأن المقولة موجودة، وظاهر التعبير عنها والمعجم المستخدم هو الذي يختلف من لسان إلى لسان، أما المقولات الأساسية فهي مقولات جامعة تشترك فيها جميع اللغات، وبذلك تكون كل لغة مكتفية بذاتها لتحقيق أغراض التواصل بين المتكلمين بها"⁴، بيد أن هذه القاعدة الرئيسة لا تحول دون أن تختلف اللغات في بناها الداخلية، وأنساقها التي تجعلها أكثر نجاعة لا في وظيفتها التواصلية فحسب، بل في بناء ثقافتها وآدابها وبلاغتها، وهذا ما يحدو بنا أن نشير إلى قوة العربية في هذا الجانب مقارنة بغيرها من اللغات ومن ذلك ما يلي:-

1 - عبد الصبور شاهين، عربية القرآن، ص 78

2 مازن المبارك، نحو وعي لغوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1979، ص 138

3 في الحديث الحسن الصحيح عن زيد بن ثابت أنه قال " أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلّم له كتاب يهود قال إني والله ما آمن يهود على كتابي ، قال : فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته له ، قال : فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبّ إليهم ، وإذا كتبوا إليه قرأته له كتابهم " أخرجه أبو داود (3645)، والترمذي (2715) واللفظ له، وأحمد (186/5)، باختلاف يسير عنده .

4 سعد مصلوح، بسيم عبد العظيم، العربية بين اللغات: رؤية مغايرة، سياقات اللغة والدراسات اللسانية، الإصدار الأول، ع3 القاهرة 2016، ص 9:15

"أولها: أن اللغة العربية كما ذكرنا استوعبت تقريبا كل التراكيب الجمالية في جميع اللغات، بشهادة علماء الكليات اللسانية أنفسهم.

ثانيا: أن انتماء العربية إلى لغات النمط الحر أتاح لها من الموائز ما لم يتوافر للغة عالمية كالإنجليزية مثلا.

ثالثا: عجز البنى الصرفية والبنى النحوية في تلك اللغات عن نقل المقاصد، زاد من اعتمادها على المفردات المعجمية، التي يحاولون بها سد النقص في عجز البنية عن توصيل ما تريد.

رابعا: اتسعت اللغة العربية لاستيعاب المقصد البلاغي داخل البنية النحوية، وهذا أيضا ما لم يكن متاحا للغات النمط الثابت، فالاشتقاق صرفا، وحرية النمط نحوا؛ أعطى للعربية ميزة تتميز بها على سائر اللغات في هذا الباب.¹

نهي هذا المبحث بقولنا إن نقاط قوة العربية كثيرة، منها ما يتصل بطبيعتها ونسقتها التركيبي، نحوا وصرفا، ومنها ما يخص جغرافيتها وتعالقها الوطيد بالقرآن الكريم والإسلام شريعة وعقيدة، لكن نقاط ضعفها تحضر بقوة أيضا من خلال الإزاحة المستمرة للغات واللهجات ولغات التواصل الرقمية وغير الرقمية، وضعف المحتوى العربي على الشبكة العالمية، إلى غير ذلك مما يتصل بأهل اللغة وجماعتها، فمعتقدات المجتمع اللغوية، تعدُّ مؤثرا مباشرا في مجريات السياسة اللغوية، سواء كان التأثير إيجابيا أم سلبيا، حيث تسهم المعتقدات اللغوية المتسقة مع السياسة اللغوية في تيسير تحويلها إلى تخطيط لغوي فاعل؛ في حين أن المعتقدات اللغوية التي لا تتسق مع السياسة اللغوية تمثل صعوبة وعقبة في مسار التخطيط اللغوي، وذلك يحتاج إلى إيجاد عدة حلول فاعلة للتعامل معها. وكم عز أقوام بعز لغات والمعنى المقابل قائم بالطبع!

1 سعد مصلوح، بسيم عبد العظيم، العربية بين اللغات: رؤية مغايرة، سياقات اللغة والدراسات البيئية، الإصدار الأول، ع3 القاهرة 2016، ص9:15

المبحث الثالث الوسطية اللغوية

تبيين من الفصل السابق أن القرآن تعامل مع اللغة بوصفها آية من آيات الله تشبهه في ذلك خلق السماوات والأرض، كما عرفنا أن وصف القرآن بالعربي هو تقرير لحالة وردّ لشبهة، يجاوره في الوصف أوصاف عديدة وإن كانت ميزة وصفه بالعربي تتعلق بأداة إنتاج النص ذاته، والتي بها تشكلت الأوصاف الأخرى التي تنصب على تأثير النص وفاعليته في حياة الإنسان، ويقدم الباحث مفهوم الوسطية اللغوية جزءاً من مفهوم الوسطية العام الذي تبلور في إطار قراءة الآية الكريمة في سور البقرة، فإن كانت الدراسات العديدة للوسطية قد تركزت على جوانب فكرية واقتصادية وسياسية عديدة لتبرز ملامح المنهج الوسطي الإسلامي؛ فإن الجانب الفكري واللغوي لم ينل حظاً من هذا الاهتمام اللهم إلا قليل مما سنتوقف أمامه.

لكل لغة من اللغات جانب داخلي وآخر خارجي، الأول يتعلق بالبنية والصوتيات والنحو والصرف والتراكيب، والثاني يتعلق بأوضاع اللغات ومشكلات تداولها وانتشارها أو انحسارها كالتلاقح اللغوي والانقراض والترجمة والتعليم واللغة الأم واللهجات... إلخ وينسى الكثيرون وأحياناً متخصصون في اللغة ولسانيون هذا الأمر، على خطورته. فنحن على سبيل المثال غارقون في الحديث عن اللغة في البنية الداخلية للغة خاصة النحو، الذي ابتلع معظم الخطابات التي تدور حول اللغة، والأمر يحتاج لكسر هذه الدائرة التي صنعت من حولها غباراً كثيفاً طال اللغة وتصور الناس عنها، من مثل أن النحو العربي صعب وربما كانت فكرة تيسير النحو سبباً في فكرة الصعوبة ذاتها، أو فكرة إحياء النحو، إنها تلقي في روع المتلقي تلقائياً أن ثمة ميّناً ينبغي بعثه، وبناء عليه يتم تعميم القول على اللغة أليس كبيرها ميّناً؟ وبناء عليه - أيضاً - توصم اللغة العربية بما وصمه بها الخبيثون من المستشرقين، ثم نتلقف نحن ما يقولونه ونبرهن عليه. وفي كل الأحوال يأخذ تعاملنا مع اللغة طابعاً منحرفاً مع أو ضد، لذا كان طرح فكرة الوسطية اللغوية أمراً من الأهمية بمكان لتغيير موقفنا من اللغة وبناء هذا الموقف على أسس ومرتكزات سليمة، خاصة " أن الفعل الكلامي دائماً عمل شخص واحد فقط لا يقيد حريته مطلقاً أي قانون وضع مسبقاً"¹، ومن هنا تتماس اللغة بالوسطية في مرتكز أساسي مرتكزاتها وهو الحرية، وكما ذكرنا في قصة تعلم آدم، أنها تبلور العلاقة بين اللغة والحرية، إذ مع المعرفة جاء الخطأ، وهو ما لم يتوفر للملائكة الكرام. كما تتماس اللغة مع المرتكز الثاني الأساسي للوسطية العامة وهو العدل، فصفة العدالة عموماً ذات مظهر لغوي، يخالط معناها الفعلي، إذ شرط شهادة الأمة أن تكون عادلة قولاً وفعلاً.

1 سيلفان أورو وآخران، فلسفة اللغة، ترجمة، بسام بركة، المنظمة العربية للترجمة ط1 بيروت 2012، ص 507

وفي الطرحين اللذين سوف نتناولهما بالتعليق لكل من نبيل علي وعبد الحميد إبراهيم، نجد أن التركيز يقف عند جانب واحد من جوانب اللغة وهو بنيته الداخلية، ويقوم على الاستنتاج من خلال المقارنة بين العربية واللغات الأخرى، ومن خلال ما ظهر إبان عمليات الحوسبة والمعالجة الآلية لها، لنراها تقف موقفا وسطا في مجمل خصائصه البنيوية والصوتية، لكن العالمين الراحلين لم يتطرقا لجانب آخر من الوسطية، يتعلق بخارج اللغة باللغة كموضوع وكمعرفة في حد ذاتها.

من وجهة نظر طوبوغرافيا اللغات: تتسم العربية بتوازن في معظم خصائصها اللغوية يضعها في منطقة الوسط بين أطراف كثيرة من المحاور التي تحدد مجالات التنوع اللغوي، وهو ما يؤكد عالميتها، ومن أهمها: التزامها بالقاعدة الذهبية فيما يخص التوسط والتوازن اللغوي، فاللغة العربية تجمع بين كثير من خصائص اللغات الأخرى... ومن منظور معالجة اللغات الإنسانية آليا بواسطة الكمبيوتر، فقد أثبتت جدارتها كلغة عالمية، فبفضل توسطها اللغوي يسهل تطويع النماذج المصممة للغة العربية لتلبية مطالب لغات الأخرى وعلى رأسها الإنجليزية، بقول آخر فإن العربية لغويا وحاسوبيا، يمكن النظر إليها - بلغة الرياضيات الحديثة - على أنها فئة عليا superset تتدرج في إطارها كثير من اللغات الأخرى، كحالة خاصة من هذه الفئة العليا¹، وقد تجلى ذلك في الاهتمام المتزايد باللغة العربي خارجيا، "فأصبح 1 على 5 من سكان العالم يريد تعلم العربية. وتعزز هذا مؤخرا بعدد الأمريكيين الذين يرغبون تعلمها، ويمولون الأبحاث حول اللغة العربية"²

فاللغة العربية كما يقول أحد الباحثين "مؤهلة ليس فقط لتلبية مطالب مجتمع المعرفة، بل أيضا لتساهم بدور ريادي في مجال المعرفة اللغوية على النطاق الإنساني، وذلك بما تتسم به منظومتها من توازن دقيق على المستوى الفيلولوجي، وتوسطية لغوية فريدة بين لغات العالم المختلفة على مستوى الوحدات اللغوية المختلفة: حرفا صوتا ولفظا وتركيبيا"³، ولديها من المقومات والقوة ما لا يمتلكه غيرها، فهي ذات رأس مال كبير جغرافيا وتاريخيا واقتصاديا، فالإطار البنيوي والمقارنات تكشف هذا البعد الوسطي للغة العربية ولكن هل هذا يكفي للقول بوجود ما يعرف بالوسطية اللغوية، في الصفحات التالية نحاول قراءة طرح كل من عبد الحميد إبراهيم ونبيل علي وأن نستخلص منه ما يؤصل لهذا المفهوم، الذي لا يعني في رأي الكاتب وسطية في خصائص البنية اللغوي نحوا وصرفا ودلالة، وإنما الوسطية اللغوية لها طرفاها الرئيسيان: اللغة وأهلها على النحو الذي سنبينه في قادم الصفحات.

1- نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، عالم المعرفة، الكويت ع265، يناير 2001، ص258

2- عبد القادر الفاسي الفهري، حوار اللغة، منشورات زاوية: ط1 الرابط 2007، ص90

3- نبيل علي، الفجوة الرقمية رؤية عربية لمجمع المعرفة (بالمشاركة)، عالم المعرفة عدد 318، الكويت، 2005م، ص312

1- الوسطية اللغوية في فكر عبد الحميد إبراهيم¹

طرح عبد الحميد إبراهيم الوسطية في اللغة العربية في إطار مشروع فكري كبير قوامه ستة أجزاء، تحت مسمى (الوسطية العربية مذهب وتطبيق)، حاول رصد تجلياته ومعالجه في كل مكونات الأمة المسلمة الحضارية من دين إلى فكر إلى لغة إلى أخلاق إلى فنون وآداب قديمة ومعاصرة، منطلقاً من رؤية عربية للوسطية مفادها أن "الوسطية العربية واقع جغرافي تاريخي قبل أن تكون مهارة كلامية، إنها حياة يعيشها العربي وتجاوبه صباح مساء، ليل نهار، وجاءت العقائد لتنظيم هذه الحياة ووضع القيم لضبطها، ومن ثم فهي وسطية لا تجمد الإنسان ومواقفه الواقعية، في نقطة هي مركز الدائرة، أو هي الحد الأوسط في قضية منطوية. الوسطية العربية لا تفترض شيئاً ثم تضعه مقابل شئيين ولكنها تجمع وتجاوز بين الشئيين كما يقتضي الحتم الجغرافي، ثم تحاول أن توازن وتعادل بين الشئيين"² وهو ما أطلق عليه الوسطية التجاورية. وقوامها:

- الوضوح والتمايز من خلال نظرة مركبة ووضوح بين الأشياء
- الحركة وتعني الحرية والمسؤولية
- العناية الإلهية وهي عنصر قوة وتنظيم
- سلمية الصراع³

وإن عاد إبراهيم في كتابه الثالث، فحدد ملامح الوسطية العربية في التجاورية، والحركة والصراف المستقيم، ولم يكن وصف الصراف بالاستقامة خالياً من الدلالة، "فالاستقامة تعني لغويا الموازنة بين طرفين أو بين كفتي ميزان... فالوصف لغويا يقترب من معنى الموازنة بين طرفين وهو في السياق القرآني يرد في الآيات التي تؤكد فكرة الوسطية، إن الصراف المستقيم إذن يعني الوسطية التي توازن بين الطرفين ولا تلغيهما، إن اللغة والسياق القرآني يؤكدان هذا المعنى"⁴، ومن هنا يمكننا أن ندرك أبعاد الوسطية اللغوية العربية، فهي بدءاً من دلالات الألفاظ تؤكد على هذه الوسطية، لقد لجأ إبراهيم إلى التطبيق من خلال استقراء عدة ظواهر لغوية في بنية اللغة وفي دلالات الألفاظ، رأى أنها تؤكد على فكرة الوسطية، ومنها مايلي:

1. الأضداد، مثل الجون(الأبيض+الأسود) والصريم(الليل+ النهار) وغيرها مما لا يمكن أن تفسر بتعدد اللهجات، ولا تعد أيضاً فقراً في الألفاظ أو اضطراباً في المعنى، ولكنها تضرب

1 - عبد الحميد إبراهيم مفكر مصري صاحب مذهب الوسطية العربية، ولد عام 1935 له عشرات المؤلفات والدراسات، منها الأدب المقارن والوسطية العربية القصة القصيرة في مصر - تأملات في رياض البلاغة النبوية. وتوفي 2012
2 - عبد الحميد إبراهيم: الوسطية ، الكتاب الأول، م س، ص 197
3 - عبد الحميد إبراهيم ، الوسطية ، الكتاب الأول، ص 313 وما بعدها
4 - عبد الحميد إبراهيم ، الوسطية ، الكتاب الثالث، ص 157

بجذور عميقة في التركيبة العربية التي تسمح بتجاوز الأضداد¹ ، فهذه الظاهرة نتاج نظرة مركبة لا تقوم على التنافر، ويؤكد ذلك كون الظاهرة من خصوصيات اللغة العربية، إذ يقرر - رمضان عبد التواب- أنه لاوجود لهذه الظاهرة في اللغات الأخرى²، كما إن تفسير عبد الحميد إبراهيم يرد على من اتهم العربية -بناء على ظاهرة الأضداد- بنقص الحكمة وقلة البلاغة وكثرة الالتباس.

2. التوازن بين المعنوي والحسي والمجازي والحقيقي، ولذا أولى العرب عناية خاصة بالتشبيه³
3. التوازن بين اللفظ والمعنى، لا بمعناها البلاغي بل بمعناها اللغوي، فنحن إزاء لغة تكاد تصبح تصويرية، بمعنى أن ألفاظها وحروفها وبنيتها الشكلية تكاد تجسد المعنى⁴، فيما يطلق عليه أهل اللغة الحكاية، أي حكاية الصوت للمعنى، وهو متواتر في القرآن الكريم على النحو الذي وضحه تمام حسان في كتابه البيان، حيث ترقى القيمة الصوتية إلى حكاية معنى عرفي رصده المعجم للفظ أو معنى طبيعي مما تستجبه النفس ولا تستطيع وصفه...، حيث يضيف استعمال حكاية الصوت للألفاظ أبعادا إضافية ما كان لها أن تتحقق لولا ما تحماه الصوت من طاقة إيحائية⁵، ويفسر إبراهيم هذه الظاهرة الصوتية المعنوية تفسير وسطيا، حيث، يتجاوز في ذهن العربي دائما اللفظ ومعناه، فكلاهما قريب من الآخر، لا بسبب ضعف إدراك أو قصور في الفلسفة والتفكير، بل بسبب النظرة المركبة التي تجمع الشيء وضده⁶

وينتقل إبراهيم لمستوى آخر من مستويات وسطية العربية يتمثل في رأيه في دلالة الألفاظ، حيث يرى أن الإسلام أضاف فكرة الضبط للحنيفية، فانتقلت من الهلامية إلى التشكل، بمعنى أن الإسلام ضبط الألفاظ ودلالاتها، وانتقل بها للتحديد يناظر ذلك ما أحدثه على مستوى العقيدة من ضبطه الأهواء، وتبيان الحق من الباطل وإقام الدين القيم أو المستقيم⁷، فمقابل الضبط السلوكي والعقائدي ضبط آخر لغوي أسهم بدوره في إطار لغة تفصل التاريخ عن الجغرافيا.

وثمة أساس ثالث للوسطية اللغوية هو الوحدة، حيث تصدر اللغة عن قوالب أساسية وتنتزع حولها الألفاظ، من خلال المجرد والمزيد والاشتقاق الأكبر والاشتقاق الأصغر، كما ينتبع إبراهيم كثيرا من الظواهر الموسيقية والصوتية مثل: الإعراب، والتنوين، والاتباع، وتقريب الصوت، والنبر،

1 - عبد الحميد إبراهيم: الوسطية ، الكتاب الثاني، م س، ص 252

2 - رمضان عبد التواب ، فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي، ط3 القاهرة، 1993، ص 338

3- عبد الحميد إبراهيم: الوسطية ، الكتاب الثاني، م س، ص 259

4 - عبد الحميد إبراهيم، السابق، ص 262.

5 - تمام حسان، البيان في روائع القرآن، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 2002، ص 208 وما بعدها

6 - عبد الحميد إبراهيم، السابق، ص 266

7 - عبد الحميد إبراهيم، السابق، ص 269

والقلب، والإدغام، وكثير من الظواهر التي تبدو حشوا في اللغة العربية يمكن أن تجد تفسيرها في فكرة الحس الجمالي¹، وخلاصة ما يصل إليه الكاتب هو أن اللغة تتضمن في تضاعيفها المذهب الوسطي وتاريخه وتطبيقاته

وبعد هذا العرض السريع لما طرحه عبد الحميد عن الوسطية اللغوية يمكننا أن نرصد الآتي:-

1- جاءت الوسطية تطبيقاً أكثر من كونها تنظيراً، وهو ما يتناسب مع مقاصد الكتاب، واجتهد الكاتب في إبراز وسطية اللغة من خلال نماذج لفظية و دلالية و صوتية متنوعة، لكنها كانت وسطية داخلية تتعلق بالبنية الداخلية للغة العربية لفظاً وإيقاعاً ودلالة، ولم تخرج إلى الطرف الثاني من معادلة اللغة أي اللغة بوصفها خطاباً وبالمتكلمين بها.

2- حيدّ الكاتب الآراء الأخرى فيما يخص فكرة الأضداد، مثل عموم المعنى الأصلي والتداعي والتفائل والتشاؤم والتطور اللغوي وكلها عوامل أثبت لها اللغويون دورها في حدوث التضاد²، وانتصر لرأيه دون سند، في حين أن آراء القدماء لها سياقاتها التاريخية المعتمدة. كما إن بعض الظواهر الصرفية والصوتية مما يراها تمثل منهج الوسطية للغة، مثل الإدغام والخط والمد وغيرها من الظواهر؛ ربما تمثل إشكالية في مجال المعالجة الآلية³

3- المذهب الوسطي عند إبراهيم عربي قلباً وقالباً وبحاجة لمعايشة كاملة لا تتوافر لغير أبنائها، ونحن نشم هنا تحيزاً يتناقض مع المبدأ الأساس في الوسطية وهو العدل، ففي اللغة يتمظهر التحيز كما سبقت الإشارة.

4- وسطية عبد الحميد إبراهيم تاريخية مغلقة، مارست الانحياز دون أن تعالج المشكلات التي تعاني منها الله، حقا إنها من صنع المتكلمين بها ومن تقصيرهم، بيد أن اللغات مرآيا لمشكلات هؤلاء المتكلمين وانحرافاتهم تظهر فيها ومن خلالها، فلم يذكر مثلاً أن اللغة العربية تعاني من أزمة مصطلح، وأزمة تعريب، وأزمة نحو، وأزمة معجم وأزمة تعليم... إلخ، إن إبراهيم عزل اللغة في ثوب قشيب فيما نسي ما قد يعانیه هذا الثوب من اهتراء بفعل لابسية وسوء استخدامهم.

5- معالم الوسطية اللغوية مكتنزة داخل اللغة ذاتها، جعل منها الكاتب صورة للطبيعة العربية الوسطية، فهل يدخل ذلك في إطار النسبية اللغوية التي طرحها وورف وسابير، والتي بنى عليها باحثون ومستشرقون صفات سلبية للعقلية العربية، إن هذه النظرية لم تعد ذات بال

1- عبد الحميد إبراهيم، السابق، ص 278 وما بعدها

2- رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربي، م س، ص 342، 357

3- لمعرفة مشكلات المعالجة الآلية للغة العربية انظر كتاب المعالجة الآلية للغة العربية النظرية والتطبيق، لسلي السيد حادة، الهيئة العامة لتصور

الثقافة 2015

في قراءة العلاقة بين الفكر واللغة، وعليه فإن تجربة إبراهيم تقع في إطار خطاب المناقحة الذي يحاول أن يصد هجمات الاستشراق وتابعيهم، بيد أن التصدي لهذه الهجمات الغاشمة في مجال اللغة لا تقدمه اللغة ذاتها، إنما يقدمه مستعملوها بالأساس.

2- الوسطية اللغوية في رأي نبيل علي

تميزت كتابات نبيل علي بالموسوعية والوعي بخطورة مسألة اللغة، وقد تحول هذا الوعي إلى فاعلية من خلال من منجزه في مجال حوسبة اللغة العربية منذ الثمانينيات حتى وفاته، ولم يعالج علي موضوع الوسطية من منظور فكري، ولكنه لاحظ أن من خصائص العربية الصرفية واللفظية والاشتقاقية ما يجعلها لغة وسطى بين اللغات، وقد استنتج ذلك من تعامله مع حوسبة اللغة، إذ رأى أن عصر المعلومات وفر فرصة ذهبية للغة العربية لرحاق بركب اللغات التي سبقتها في مجال حوسبة اللغة لكي تواكب نفس الأطر والمواصفات، ولم يقصد إلى للتدليل على الوسطية اللغوية للعربية قصدا وإنما جاء الأمر استنتاجا من خلال مقارنات محسوبة ودقيقة في إطار عملية معالجة اللغات آليا، ومن خلال ذلك رصد أهم ملامح الوسطية اللغوية، كما رصدها نبيل علي مع بعض التصرف والإضافة:-

1. الجمع بين الجملة الإسمية والفعلية
2. الجمع بين الفونيمات المنفردة والمقاطع الصوتية المزدوجة
3. الأسماء الموصولة تصل المعرفة ولا تصل النكرة على خلاف الانجليزية
4. تطابق العربية بين الفعل والفاعل وهي في هذا وسطى بين الإنجليزية ولغات أخرى
5. صيغ الأفعال المزية وسط في عددها (15 صيغة مزيده) فيما قد تصل إلى ثلاثين في بعض اللغات.

وقد رصد اللغويون العرب -إضافة إلى ما طرحه نبيل علي- كثيرا من الخصائص اللغوية المميزة التي تجعل اللغة العربية لغة وسطى لأمة وسط، وهذا الأمر يدعو للاهتمام بالدراسات المقارنة والتقابلية لفهم لغتنا ومعرفة مصادر قوتها، في ظل حرب لغوية ضروس، وإمبريالية لغوية أسهمت التطور التكنولوجي الرهيب في تغذية لصالح أحادية لغوية تمحو اللغات وتقتلع الهويات من جذورها. وليس في هذا الأمر تحيزٌ للعربية، بقدر ما هو تقرير واقع علمي يشهد

¹ - نبيل علي، العرب وعصر المعلومات، ط 2 مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1999، ص 350

به اللسانيون ويعرفون فوائده ومخاطره، ومما يضاف إلى الخصائص السابقة خصائص أخرى نذكر منها:

1. الجمع بين التذكير والتأنيث وعدم وجود المحايد كما هو معروف في اللغة الألمانية.
2. الجمع بين الاشتقاق والالصاق في تكوين الكلمات. وهو ما أعطى اللغة العربية كثيرا من المرونة، " لأنه يقوم بدور كبير في تنويع المعنى الأصلي، ويزود الاشتقاق في العربية بذخيرة من المعاني لا يسهل أداؤها في اللغات الأخرى"¹
3. الجمع بين اللواحق الأمامية والخلفية.
4. التوسط الإعرابي، إذ تجمع العربية بين المعرب والمبني، كما إن حالات الإعراب فيها ثلاثة أساسية، الرفع والنصب والجر، فيما قد تزيد عن ذلك أو تنقص في لغات أخرى، فعلى سبيل المثال لا تعرف العبرية إلا البناء، كذا اللغات الأوربية مثل الفرنسية والانجليزية.
5. الجمع بين الفونيمي والمقطعي على خلاف كثير من اللغات.
6. مرونة اللغة العربية في التقديم والتأخير، ومرونة في الاشتقاق والنحت.
7. الطبيعة الصرفية لها، إذ تنتمي اللغة العربية لما يعرف باللغات الصرفية مثل الآرامية والعبرية، خلافا للغات الغروية مثل اللغات الأوربية والهندية والفارسية، والفارق بين اللغتين يتعلق بطريقة إنتاج المعنى الموسع من المعنى البسيط، إذ تلجأ اللغات الغروية إلى إضافة اللواحق والواصق والواحق ذات المعاني لجذر الكلمة لإنتاج معنى جديد، أما اللغات الصرفية ومنها العربية، فتستعين في بناء المعنى عن طريق النحت بدءا من الجذر الأصلي للكلمة مع أحرف الزيادة التي يقابله زيادة في المعنى، وليست أحرف الزيادة بذات دلالة في ذاتها، إنما وظيفتها صرفية فقط، ومن ثم تكتسب بهذه الصيغة الصرفية عدة مزايا لعل من أهمها: سهولة الاشتقاق والقدرة على النحت والتوسع اللغوي، كما إنه يمثل سهولة في تعلم اللغة على خلاف اللغات الغروية التي تحتاج لمعرفة كل جزء من أجزاء الكلمة، فاللغات الصرفية أغزر ألفاظا وأكثر قدرة على التطور، وأدق في أداء المعنى.
8. اللغة العربية لغة غير عرقية، وغير محددة جغرافيا، ف" هي لغة مشتركة طورها المسلمون، لذلك نجد كبار علماء اللغة من أصل فارسي أو هندي أو تركي أو غير ذلك من الأجناس... اللغة العربية ليست لغة عرقية وليست لغة محصورة في جغرافيا"

1 محمد فهد زيدان، في فلسفة اللغة، دار النهضة العربية، بيروت 1985، ص 172

¹، لذا فإن وسطيتها جزء من وسطية الإسلام، كانت ومازالت ملازمة له في خطوات انتشاره

هذه الخصائص المختلفة معروفة لعلماء اللسانيات ومقارنة اللغات، ولكن المحك الرئيسي الذي أبرزها هو المعالجة الآلية للغات، ومن ثم بنيت الوسطية على أساس علمي خال من التحيز والمبالغة، خاصة أن هذه الخصائص ربما تكون معوقة أحيانا، وإن كشفت فيما يخص نبيل على وهو غير المتخصص في اللغة العربية؛ كشفت عن وعي فاعل ساهم في تطوير كثير من برامج المعالجة بالنسبة للغة العربية. ولا شك أن الدراسات اللسانية المقارنة مفيدة للتوسط في هذا الاتجاه ونرى مثالا له في آراء كثير من اللسانيين العرب، ولنضرب مثالا لذلك ما ذهب إليه سعد مصلوح في معرض حديثه عن العربية والروسية والانجليزية عن وجوه التقابل بين اللغات الثلاث، من حيث استقلال مقولة الرتبة النحوية بالعبارة عن الاختصاص والاهتمام، وباستثمار إمكاناتها الجمالية لتحقيق مبتغى الكلام من المتعة والتأثير، فاللغتان العربية والروسية "أقرب إلى لغات النسق الحر، والثالثة أقرب إلى طبيعة ذات النسق الثابت، وترتبط المراوحة بين درجات الحرية والثبات بوجود لوحق إعرابية دالة تسمح بنماذج بين الإزاحة في التركيب يخالف بها موضع الملفوظ موقع الرتبة... نرى في العربية لغة تحتل موقعا وسطا بين الروسية والإنجليزية بهذا الاعتبار. وقد أنتج هذا الوضع الوسطي للعربية في هذا المقام عن أختيها نتائج جديرة بالتأمل، فصل فيها مصلوح القول ليصل بالدليل أن العربية وفقا للخواص الحاكمة في نظم الكلام "تحتل موقعا وسطا بهذا الاعتبار. إنها لا تهدر لواحق الإعراب على نحو ما نرى في الإنجليزية، ولا تذهب بها مذهبا شديدا التعقد في ذاته، وفي خضوعه للشروط الصرفية والصوتية والمعجمية على ما هي الحال في الروسية"²

وفي هذا الإطار يمكننا أن نشير إلى ظهور ما يعرف بأيكولوجيا اللغة أو علم اللغة البيئي Ecology of Language هو علم على انشغاله ببيئات اللغات وقضايا تنوعها وحقوق الجماعات اللغوية/ فإن تبرز مفهوم الوسطية اللغوية من خلال اعتماد المقاربات الأيكولوجية على التوازي بين اللغات في المجتمع ونماذج التنوع البيئي ومثل البيئيين الذين يعتمدون على التنوع كقيمة أساسية ينبغي أن تحدد السياسات البيئية؛ فإن الإيكولوجية اللغوية تعتمد على التنوع قيمة أساسية يجب استبقائها لأنها حاسمة في صحة المجتمع البشري، وفي تقييم السياسات اللغوية بالنظر إلى تأثيرها على التنوع اللغوي. فالخصائص المفاتيحي: احترام التنوع اللغوي، والتركيز على اللغات

1 - عبد القادر الفاسي الفهري، حوار اللغة، م س، ص 163

2 سعد مصلوح، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، آفاق جديدة، لجنة التأليف والتعريب والنشر، جامعة الكويت، الكويت 2003، ص 139

المهددة، والحيوية vitality، والاستبقاء، والإحياء revival، والقناعة اللغوية بقيمة الجماعة اللغوية في هويتها وانتمائها"¹

وبعد... نلاحظ أن المحاولتين السابقتين قامتا على رصد ملامح وسيطة لغوية، لم يقصد لها نبيل علي قصدا، إنما تعلقت ببنية اللغة الصرفية والصوتية والنحوية بحكم التخصص، كما ركز عبد الحميد إبراهيم على تحليل تاريخي وجمالي لعدة ظواهر تؤكد وسطية العربية بين اللغات، ويرى الباحث أن وسطيتها وهي جزء من وسطية شاملة تمثل كينونة الأمة وجوهرها؛ ترتبط بامتدادها التاريخي الموهل في القدم، وارتباطها بالقرآن الكريم، هذان هما العاملان الأساسيان في تمظهر تلك الوسطية اللغوية، يضاف إلى ذلك عنصر هام أهمله من تحدث عن وسطية اللغة، إذ ترتبط تلك الوسطية بوسطية الإنسان الذي يتحدث بها، وعليه فإنه من الضروري أن نتمثل تلك الوسطية في تعاملنا مع اللغة على مستويات أخرى غير ما تم طرحه، أقصد وسطية معالج إشكالياتها المزمنة من ازدواج وتعريب وثنائية لغوية وأقليات لغوية، إلى غير ذلك من القضايا، إذ إن التعصب والتشدد في معالجة كثير من تلك القضايا يأتي بنتائج عكسية، وما حدث في السودان وتقسيمها له مظهر لغوي، والمعارك الضروس للأقليات في بعض الأقطار العربية نتاج للبعد عن الوسطية اللغوية من قبل من ينتمون للغة العربية، إن التوسع في مفهوم الوسطية اللغوية ليشمل مدارس اللغة من الداخل ومعرفة مقوماتها البنيوية والصوتية والصرفية من ناحية ويشمل وبصورة أعمق وسطية التعامل مع اللغة لا باعتبارها أمرا له قيمته بالمعيار المعنوي وحده، لكن أيضا بالمعيار المادي"² من ناحية أخرى؛ هذا التوسع من شأنه أن يعرف للغة أهميتها لا في وظائفها الأدائية والوعائية فقط، بل في وظائفها التواصلية والهوياتية بمعنى اكتنازها لكل ما يؤكد على الهوية العربية. إننا نمارس كثيرا من العنف ضد لغتنا الأم بقصد وبدون قصد، هذا العنف يتمظهر في أشكال عدة، على مستوى الاستعمال بكل تجلياتها اليومية والعلمية والثقافية، وعلى مستوى معالجة قضاياها الملحة. في حين أن وسطيتنا العامة تفترض نوعا من الوسطية اللغوية على المستويين، وهنا تستوقفنا آيات قرآنية كريمة تمس عملية الكلام/ الفعل، مثل لحن القول، ولي اللسان، والنهي عن القول الذي لا يتبعه فعل يصدقه ووصف المنافق، والكلام الذي لا فائدة منه، والتناجي، ولي الألسنة واللامساس اللغوي أو التابوهات والمسكوت عنه... إلخ، إنها إضافة لكونها أخلاقيات فعلية ذمها القرآن، تؤشر لأخلاقيات لغوية مرفوضة، وهو ما نجده في أحاديث الرسول الكريم مما لا يتسع المجال لاستقصائه. فمثل هذا الإشارات لا تمثل مجرد لغة وإنما هي نوع من الخطاب الإنجازي

1 عبد القادر الفاسي الفهري، السياسة اللغوية والتخطيط، مسار ونماذج، م س، ص 28
2 فلوريان كولاس، اللغة والاقتصاد، ت أحمد عوض، عالم المعرفة ع263، الكويت 2000، ص 33

أي أن أحداث التلغظ هو إنجاز لفعل ما¹، أي يكون الفعل هو عين القول أي يتطابقان. فعندما نقول أنها تمثل أخلاقيات لغوية فهي لا تتفصل على كونها فعل واقع وحدث.

وفي الفكر الغربي خصص لوك الجزء الثالث من كتابه (مقالة في الإدراك عند البشر) للكلمات بسبب أن البشر غالبا ما يفرضون في استخدام الكلمات، ويقدم نصائح خلقية للتعامل بالكلمات²، كما إننا نمارس نوعا من التعصب اللغوي في كثير من الأحيان حين نبالغ في تقديس اللغة على حساب الفعل، أو حين نقول بالنقاء اللغوي، ونمارس على النقيض تاما من هذا التعصب المفرغ من المعنى نوعا من الهدر اللغوي لإمكانات لغتنا التي تراكمت في بنيتها عبر مراحل تطورها المختلفة، وتعطل مقومات تطورها وتطورنا. أليس في كل ذلك سلوكيات لغوية بحثة يمكن أن تُطلق عليها أخلاقيات اللغة، ومن ثم يكون للوسطية اللغوية التي استقرأنا بعض مقوماتها وجود فعليا داخل اللغة وخارجها.

إن التعامل مع اللغة والوسطية اللغوية لا يتم من خلال المستويات الداخلية لها صرفا ونحوا وبنية وتركيبا، وإنما يلزم أن يكون على مستوى الخطاب، فهو الذي يحدد كثيرا من المواقف حيال اللغة، وليس علينا أن نفكر بأن اللغات تتميز إحداها عن الأخرى حسب بعض خصائصها النوعية فقط، وذلك دون الغوص في العنصرية اللسانية. ولكن هذه الخصائص تتعلق بأدوات اللغات والقواعد التي تحدد الفضاء الخطابي فيها، ولا تتعلق بشيء يمكن أن يكون من طبيعتها الثابتة، والخطأ الفادح هو الخطأ الذي ترتكبه المثالية اللغوية. فليس في الواقع شيء يمكن أن يكون طيانا دائما مثل روح الشعوب أو عبقرية اللغات، ليس هناك سوى حوادث التاريخ ترتبط بالشعوب والتقاليد اللغوية التي هي متغيرة ومتعارضة للغاية³، كما إن تنوع اللغات والنسبية اللسانية، هما اللذان يدفعان اليوم إلى طرح مبادئ أخلاقية في ما يتعلق باللغة⁴، ومن شأن تلك النظرة أن تخفف أن غلواء المثاليين؛ لأن اللغة دائما ما تكون قوية بالفعل في إطار مجموعة من الوقائع التاريخية التي تؤكد على قوتها، والعكس صحيح. وبناء عليه نجد أن مفاهيم ومبادئ حاکمة للسياسات اللغوية أو الحقوق اللغوية والتسامح اللغوي أمر جدير بالعناية، وأعاود القول إن تعامل القرآن الكريم مع:

- مفهوم اللغة بوصفها آية من آيات قدرة الله.

- تعدد القراءات واللهجات

- العلم الأعجمي

1 عن اللغة الإنجليزية يمكن العودة لنظرية أوسنن، نظرية أفعال الكلا العامة (كيف نجز الأشياء بالكلام) ت عبد الله قينيني، أفريقيا الشرق، المغرب 1991م

2 سيلفان أورو وآخران، فلسفة اللغة، ترجمة، بسام بركة، المنظمة العربية للترجمة ط1 بيروت 2012، ص506

3 سيلفان أورو وآخران، فلسفة اللغة، السابق، ص528

4 سيلفان أورو وآخران، فلسفة اللغة، السابق، ص528

يمثل أساساً متيناً لمفهوم التسامح اللغوي يمكن البناء عليه، عن طريق الوساطة اللغوية ومن خلاله يمكننا طرح الآتي:-

- تعليم اللغات الأجنبية يكون لأهداف محددة مع التمكين للغة العربية اقتصاداً وتعليمياً، دون تمييز أو تعصب لغوي.
- التقارب بين الفصحى والعامية بوصفهما متكاملين، من خلال محور الأمية فهي خير وسيلة للتقارب بينهما دون إهدار للقيم الجمالية لأي منهما.
- التصويب اللغوي لا يقتصر على بنية اللغة الداخلية صرفاً ونحو وتركيباً، إنما يتجاوز ذلك إلى تصويب التصورات الشعبية السائدة عن اللغة، والتي يتشكل من خلالها وعي زائف باللغة، تلك التصورات تتمثل في: مظاهر السلوك Behavior اللغوي القابل للملاحظة التجريبية، الاعتقادات Beliefs، أي الأحكام والأفكار النمطية عن اللغة التي يحملها المتكلم ويتعهد بها، المواقف Attitudes، أي التقييمات الإيجابية أو السلبية التي يحملها المتكلمون وغالباً ما تكون ضمنية، الآراء Opinions، أي الأحكام والتقييمات المصرح بها ومناحي التفكير الجماعي الشائعة حول الظواهر اللغوية، النظريات الذاتية Subjective theories أي المتصورات الضمنية المنظمة التي يحملها المتكلمون حول اللغة فتوجه سلوكهم اللغوي واختياراتهم وتحيّزاتهم¹ فليس شأن اللغة من الشؤون الخاصة بمجموعة من المتخصصين والدارسين، بل إن مختلف الفئات الناطقة خاصة ممن لا يعنون بقضاياها هم من يمثلون النقطة الحرجة في مشكلاتها.
- اتباع سياسات موحدة في التعريب، فليس من المعقول أن يدخل اللفظ الأجنبي الواحد إلى حضارتنا فيتحول إلى عشرة ألفاظ كاملة تثقل كاهل اللغة ولنضرب مثلاً من النقد حيث ترجمة مصطلحات مثل البنيوية والشعرية والأدبية لتجد عشرات الألفاظ التي تحدث من البلبلة ما لاتنتهي، يتمخض عنها تفكك في المنهج وغموض في التداول وقصور في الفهم.
- عندما تتحول الوساطة إلى منهج حياتي له الشبوع والانتشار على مستويات عدة يمكننا أن نتفهم إشكاليات اللغة وخطورة الوعي الزائف بها وما ينتج من خطابات مختلفة ومنحرفة عن جادة الصواب اللغوي، ومشبعة بالتحيز الضار والتعصب المقيت، ولنقف لنستطلع بعض مظاهر التحيز اللغوي ومخاطره على الوساطة اللغوية بجناحيها: اللغة من حيث فاعليتها والمتحدثون بها من حيث وعيهم بفقها الأولويات في قضاياها الملحة.

¹ منصور بن مبارك ميغري، عقيل بن حامد الزماي الشمري، التصورات الشعبية عن اللغة في الأدبيات اللسانية المعاصرة: مقاربة إستراتيجية م س، ص 31: 68

الوسطية اللغوية والتحيز

لقد سبق أن ذكرنا أن التحيز عالق باللغة لأنه تمثل هوية الإنسان، لذا كانت ممارسة التحيز اللغوي أمراً سائداً عند مختلف الألسنة، فلغة الجنة تارة عبرية وتارة السريانية أو الكلدانية أو العربية، وقد أوجز المزيني مظاهر التحيز اللغوي عند العرب في الآتي:

1. أن اللغة العربية أول اللغات نشأة.
2. اللغة العربية أفضل اللغات وأكملها وهي لغة أهل الجنة
3. فصاحة قریش
4. نشأة النحو حمزة المزيني، التحيز اللغوي¹

وقد توقف المزيني كل مظهر من تلك المظاهر تفصيلاً في كتابه، ووضح مصادره وفند حججه وبراهينه، وإن كان التحيز في حد ذاته ليس عيباً، ولا نقیصة بل على العكس يمكن أن يجرّد التحيز من معانيه السلبية ومن ثم توضع إشكالية التحيز على مستوى مختلف تماماً²، لكنه يكون عيباً حين يتمخض عن وعي زائف وينتج خطابات شوفينية متعصبة على أساس علمي أو غير علمي مما هو متداول دون تمحيص، وقد يأخذ التحيز أشكالاً عدة تاريخية ولسانية ومنطقية وعلمية، ويقابل ذلك ما يحاوله أهل الفريق الثاني ممن يحاولون أن يغمطوا لغة ما حقها فيجرّدوها من هذه التحيزات تماماً، وقد تعددت أشكالاً التحيز اللغوي على النحو الذي رصده حمزة المزيني، حيث يرى أن التحيز اللغوي يشمل أنواعاً كثيرة، "فمنه النظر إلى لغة معينة على أنها أقدم اللغات وجوداً، وأنها أكثر اللغات منطقية في نظمها، وأنها أجمل وأكفأ في التعبير مما عداها. كما يشمل القول بأن مستوى من مستويات اللغة المعينة يتميز عما عاده من المستويات في تلك اللغة المعينة بالصفات التي ذكرنا. وربما يشمل أن نطق صوت معين أو خصیصة معينة في لغة ما أجمل مما يقابله في المستويات الأخرى لتلك اللغة أو اللغات الأخرى. ويشمل أيضاً أن كلام فئة معينة من متكلمي لغة ما يتميز على كلام الفئات الأخرى"³، وعليه يقدم المزيني بعض الحلول لهذه الإشكالية وأبرزها ضرورة معرفة الكليات اللسانية التي تجمع اللغات وتجعلها متقاربة إلى حد التشابه في كثير من الأحيان، بل وتتشابه مواقف أهل كل لغة من لغتهم، والنظر إليها بأنها أفضل اللغات والاهتمام بنحوها لحمايتها من التشوهات اللغوية، فمعرفة هذه الكليات تعد أفضل وسيلة للقضاء على ما تعاني منه اللغات المختلفة من تحيز غير مسوغ؛ إذ يدعي دائماً أن اللغات التي يتكلمها الآخرون

1 - حمزة المزيني، التحيز اللغوي، م س، ص 28

2 - عبد الوهاب المسيري، فقه التحيز، م س، ص 20

3 - حمزة المزيني، السابق، ص 10

لا تعدو أن تكون أشكالاً متخلفة من اللغات. وهو الموقف الذي كثيراً ما ينتج عنه تبرير ما نقوم به من احتقار لمنكلمتها أو اعتداء عليهم:¹، هذا الذي يطرحه المزيبي لا يتم تطويره إلا من خلال وعي لغوي ناجز يستطيع أن يكون مدركات مستحدثة للطلاب عن لغتهم، لا بوصفها أجمل وأقدم اللغات، ولكن بوصفها خير وسيلة لبناء هوية الفرد والمجتمع وتأكيد الذات وخصوصيتها، ومن ثم لا ينشغل بقضايا جانبية تعوق هذه العملية. ولا مناص من الربط بين اللغة والدين، فقد يكون فهم الإسلام ناقصاً بدون معرفة العربية، ولأي فهم للأفكار المؤثرة بطريقة حياة المسلمين وعقائدهم التي يعتبرونها أكثر الأشياء قدسية، ومبادئ دينهم وأخلاقهم التي ينشؤون عليها، علينا أن نعود للعربية فهي الأداة الأصلية لكل العلوم الدينية في الإسلام. وبناء على ذلك ساد الاعتقاد بقدسية اللغة العربية بشكلها الفصح، وقد أثر هذا الاعتقاد تأثيراً واضحاً في اتجاهات العرب نحو لغتهم.

إن إشكالية الخطاب اللغوي أنه لا ينفصل عن التحيز انفصالياً تاماً، فالثقافة اللغوية منحازة لا محالة، مثيرة للجدل ومثقلة بالمصالح. بل إن الممارسات والمواقف اللغوية الأكثر استقراراً وانتشاراً يمكن أن تمثل تصوّرات نخب مخصوصة قد حصلت على تواطئ المجموعات الاجتماعية الأخرى، كما في حالة اختيار المستوى المعياري من اللغة، أو السياسات اللغوية في الدول/المجتمعات متعددة اللغات، أو تفاضل المستويات في حالة الازدواجية اللغوية²

نخلص من العرض السابق أن ثمة وسطية لغوية تمثل جزءاً من الوسطية العامة أو الشاملة، يمكن أن نستقرئها في بعض خصائص اللغة العربية المميزة لها صوتياً وصرفياً ودلالياً، كما يمكننا أن نؤكددها في تعاملنا مع اللغة وقضاياها مثلما تعامل القرآن الكريم مع قضية اللغة دون تمييز يذكر بين اللغات التي هي من آيات قدرة الله سبحانه. وعليه فإن تأسيس خطاب لغوي وسطي يجمع بين العقل والقلب، والقول والفعل يمثل ضرورة ملحة للخروج من ربة خطابات مازالت تكرر نفسها في دائرة شبه مغلقة، ومعها تتكرر قضايا اللغة وتتفاقم مشكلاتها. وفي ظل الوسطية اللغوية تتغير النظرة إلى كثير من قضايا اللغة العربية حيث يصبح الحفاظ على التنوع اللغوي والثقافي داخل البلد الواحد ضرورة، وحق لغوي شرعي، شرط ألا نجعل التنوع وسيلة للتفرق والنزاع، بل أداة للتناغم والاستفادة، ولا تتحول العلاقة بين اللغة الأم وتوابعها وتنوعاتها المحكية تكامل لا صراع، فما هذه وتلك إلا لهجات من نفس اللسان في الكلام على تنوع تقاضيها الجهات والفئات والسياقات. وليست هذه اللهجات انحرفاً أو انحلالاً للفصحى، بل هي مصاحبة لها، ومدارستها ضرورة ملحة، ذلك أن استقصاء صور التنوع اللهجي والمقارنة بينها ضرورة لا مناص من اعتبارها إذا أريد لتاريخ اللغة

1 - حمزة المزيبي، مراجعات لغوية، م س، ص 171

2 - انظر التصورات الشعبية عن اللغة في الأدبيات اللسانية المعاصرة: مقاربة إبستمولوجية لكل من منصور بن مبارك ميغري، عقيل بن حامد الزماي الشمري م س، ص 31: 68

المعينة أن يعاد بناء مراحلها، وأن يكتب على وجهه الصحيح¹ وهو السائد بين جموع اللسانيين، كذا تنتقل دراسة اللغة وتطورها وفقاً وفق مناهج علمية دون أسطرة أو تبخيس، إضافة إلى تهيئة اللغة لأن تُحوسب ويُستفاد من قدرات الحاسوب في معالجتها، وصولاً إلى تطويرها وتسهيلها للناطقين بها أو بغيرها في ظل سياية وتخطيط علمي رشيد، لجعلها لغة للتعلم والتعليم معاً، لغة تحقق جميع متطلبات أهلها وتطلعاتهم.

¹سعد مصلوح، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، آفاق جديد، م س، ص 159

الفصل الثاني: اللغة العربية بين خطابين

ويتضمن المباحث التالية:

- الخطاب اللغوي العربي (محطات تاريخية)
- خطاب التقديس
- خطاب التبعية والاستلاب

تمهيد

تُعد اللغة في عصرنا الحالي المركز الذي تتمحور من حوله الخريطة المعرفية بكل جوانبها، فما من مجال من مجالات العلم أو الفن إلا ويرتبط بوشيجة ما بهذا الظاهرة التي تمثل أعظم الظواهر البشرية، فهي بحق قضية القضايا، فكل حديث عنها يأخذنا إلى قضايا دينية واجتماعية وسياسية واقتصادية... إلخ، لذا كان الخوض في إشكالية اللغة مغامرة محفوفة بالمخاطر، والسبب ليس في تنوع مجالات التناول وخصوبة الموضوع فقط، بل عمقه وصعوبته أيضا، فما أصعب الكلام على الكلام كما يقول أبو حيان التوحيدي في مقابساته؛ لذلك يركز الباحث جهده في هذا الفصل على الانحرافات في الخطاب اللغوي العربي المعاصر، ومزلق هذا الخطاب في تناوله للمسألة اللغوية، وعدم الأخذ بمحمل الجد خطورتها باعتبارها المعتزك الواسع لكثير من قضايا العاصرة في مختلف المجالات، يتساوى في ذلك ما أثاره المستشرقون من غبار حول النحو العربي وأنه مجتلب برمته من قوالب الفكر اللغوي اليوناني، أو ما أثير عن عجز الفصحى ودعاوى تسييد العامية، وهي محاولات لم تنته بل أخذت صورا أكثر حدة، وأبعادا أكثر خطورة، تمس صلب الشخصية العربية وكيونتها، وعقيدتها، ولم يعد الأمر قاصرا على محاولات المستشرقين وانحرافاتهم الفكرية، بل امتد إلى تابعيهم من المفكرين العرب. والحقيقة أن انحرافات الخطاب اللغوي لا تأخذ الأشكال السابقة فقط بل إنها تتعدد وتضرب في اتجاهات عدة، فليس بالضرورة أن يكون الأمر متعلقا بدعاوى العامية ومحاولات تسييدها، فهذه القضية كانت فجة في ظهورها، واضحة في تعاقبها بهيمنة المستعمر مع بدايات القرن العشرين، إنما يأخذ الأمر منحا جديدا يتعلق بقضايا النحو تارة، وبدور اللغة في التعليم بمراحله المختلفة تارة أخرى، وبقضايا أخرى عديدة، لا تتي تظهر مع تهافت الخطاب اللغوي في فكرنا المعاصر، ولا ينفى كل ذلك الجهود التي يقوم به ثلة من اللغويين العرب في الجامعات اللغوية، والجامعات ومراكز الأبحاث، ومؤسسات المجتمع المدني في الذود عن اللغة العربية ومحاوله تصحيح المسار، لكن المحك الأساسي هو أن تصبح اللغة العربية قضية قومية وهم مجتمعي، يُشغل به الكبير والصغير ويشغل به الساسة كما يشغل به علماء اللغة تماما، إنها قضية أمن قومي عربي، فلم يعد يقتصر الأمر على تخرصات رينان وفرستخ حيال يونانية النحو العربي، ولا على دعاوى وليم ويلكس، و سلامة موسى، ولويس عوض، وسعيد عقل، وأنطوان مطر لاستخدام العامية بدلا من الفصحى، بل مانتزال المعارك اللغوية تأخذ أبعادا مختلفة على ومجالات فكرية مختلفة على نحو ما أثاره كتاب **(يحيا النحو العربي ويسقط سيبويه)** في مصر منذ عدة سنوات. وتأخذ شكلا أعمق يتعلق بوعينا اللغوي وإثارة النعرات اللغوية، والربط بين اللغات الأجنبية والحادثة، ويمكن أيضا وضع هذه الانحرافات في إطار إعاقه الفكر العربي وتطوره، وبناء حجاب حاجز بين

العربية والقرآن الكريم، الذي تنتزل اللغة العربية منه منزلة الجسد من الروح، وما يترتب على ذلك من تصدعات في صميم الهوية العربية، وضربها في أهم مقوماتها.

وفي هذا الإطار لا يهتم الباحث بدراسة الجوانب التاريخية لكل خطاب من الخطابين، وإن حدث وعرج إلى الجوانب التاريخية فهو أمر لا مناص منه لدراسة أهم الانحرافات التي وقع فيها، وإن كان اهتمام الباحث في هذا الفصل يتركز حول الغوص في خلفياتها وجذورها العميقة التي سمحت لها أن تأخذ أشكالاً عدة، وتمظهرت في سياقات اجتماعية وتاريخية متنوعة، على أن يتلوه في فصل تال التركيز على إشكاليات الوعي اللغوي العربي، التي هي ذاتها إشكاليات الخطاب، فخلف كل قضية من القضايا يكمن وعي فاعل أحياناً، وزائف أحياناً أخرى ومن ثم كان الهم هو البحث عن البنية العميقة التي تحرك مثل هذه القضايا والتوجهات الفكرية التي تقودها، ومن هذا المنطلق يدرس الباحث مجموعة من القضايا التي تدخل في إطار علم اللغة الاجتماعي، هذا الفرع من علوم اللغة تتأكد أهميته في تماسه مع قضايا تقع في صلب تماسك المجتمع وتقدمه أو تفسخه وتراجع قدرته على التقدم والتطور. وقد أثبتت التجارب التاريخية أن نهضة أي شعب من شعوب الأرض لا يمكن بحال أن تتحقق بعيداً عن لغته الوطنية، وهو ما يجعل قضية اللغة قضية أمن قومي لكل الشعوب العربية.

لقد تغير مفهوم اللغة بعد انفجار علوم الحاسب وتكنولوجيا المعلومات والذكاء الاصطناعي والترجمة الآلية والمجتمعات الرقمية، وزاد كل ذلك من خطورة أمر اللغة وأهميتها، خاصة مع تفجر نظريات تحليل الخطاب والربط بينه وبين بناء الذات على اعتبارها نتيجة للخطاب وللمجال الذي تتموضع فيه، على نحو ما نراه لدى فوكو وبوردو ومن لفّ لفهما ممن تركوا أثراً كبيراً في تحول كلا من مفهومي اللغة والهوية، يضاف إلى ذلك التوسع في دراسات مختلف الخطابات و الأنشطة اللغوية في المجتمع من أخبار ومحادثات وإعلانات... إلخ، وتحول اللغة لبؤرة تتمحور حولها حزمة من العلوم الحديثة، لذلك وجدنا معظم النظريات الحديثة تنطلق من اللغة، بوصفها أداة الوعي الأساسية، ودورها لا يقف عند صوغ الوعي فحسب، بل في بلورة تصورنا لأنفسنا وللعالَم من حولنا، وفي تخليق فهمنا لهويتنا سواء الفردية منها أو الجمعية، وهو ما يجب الالتفات إليه عند وضع منهج من مناهج لغتنا العربية.

والخلاصة هي أن إشكالية اللغة تقع في قلب ظل عصر وفي المركز من قضاياها، بل يتنوع ما يطرح من إشكالياتها وفقاً لما يطرأ على كل عصر من مستجد في العلم والسياسة والاقتصاد وغيرها من مجالات تستلزم إعادة النظرة في قضية اللغة. وعلى سبيل التمثيل والتأكيد نجد أن قضايا مثل اللهجات العاميات شاعت مع الحقبة الاستعمارية، فيما أثرت قضايا التعريب وعلاقة اللغة بالهوية إبان المد القومي. وهذا ما يمكننا تتبعه في المبحث الأول لنرى تأثيرات هذا الوعي اللغوي على طبيعة الخطاب المنتج حول اللغة العربية وأهم قضاياها.

المبحث الأول الخطاب اللغوي العربي (محطات تاريخية)

جاء الإسلام بمفهوم الأمة القائم على المساواة بين الأفراد والمفاضلة على أسس أبعد ما تكون عن العرقية، أساس ديني يتعلق بتقوى الله وأساس دينوي يتعلق بالعمل الصالح لقد تميزت هذه المرحلة الأولى من دولة الإسلام بالتسامح اللغوي، وهو تسامح نجد أسسه في القرآن الكريم كما سبقت الإشارة، وذلك من منطلق قوة الدولة الناشئة حتى استجبت الظروف وتوسعت الدولة ودخلت أعراق أخرى غير عربية تحت مظلة الإسلام بدأ الدولة تتخذ إجراءات التعريب، وظلت لمدة ثلاثة قرون تتمثل علوم وحضارات الثقافات الأخرى، وظل التلازم مستمرا بين الإسلام والعربية، ولكن العربية لغة وثقافة هي التي رسمت الحدود البشرية والجغرافية للأمة العربية، وكان للعروبة دلالة بشرية ابتداء ولكنها تطورت لتجد في العربية أساسها ومعناها. وكما يقول الدوري "إن تكوين الثقافة العربية أعطى العربية محتوى، وأفضى إلى تحديد مفهوم الأمة العربية وطور مضمون الرسالة العربية- بعد أن شاركت شعوب أخرى في حمل راية الإسلام- فأصبحت رسالة ثقافية¹. ولم ينقطع هذا الوعي عبر التاريخ العربي بل ظهرت إلماعات شديدة الأهمية فيما يتعلق بعلاقة الإنسان بلغته وكيف أنها مرآة له تقوى به ويقوى بها، والعكس صحيح وأقصد بذلك كل من ابن حزم في إحكامه وابن خلدون في مقدمته.

ولعل من مظاهر هذا التسامح ما عرف عن القراءات القرآنية، فلم يجحد العلماء المسلمون القراءات القرآنية التي أقرها الرسول لصحابته، وقد نهض بهذه القراءات السبع عدد من الصحابة وقراء التابعين، وهم جميعا ممن يحتج بكلامهم العادي به قراءاتهم التي تحروا ضبطها جهد طاقتهم... وكانت هناك قراءات شاذة لم تتوافر لها صحة القراءة لكنها عدت بعد ذلك مصدرا من مصادر العربية²،

ولم يحل الحديث عن لغة قريش والتحيز لها دون جمع هذه المادة اللغوية الغزيرة، نعم تم التعامل معها على أنها قراءات شاذة لكن تم جمعها، رغم التحيز للغة قريش الذي يراه البعض لا يستند لأسس علمية قوية³ وإن كان العصب القبلي سمح باستمرار هذه اللهجات في الحياة، ولم يحل ذلك دون التواصل وفق اللغة الفصيحة المشتركة. إننا نرى العلاقة بين اللغة الأفضح واللهجات تقوم على الوسطية، حتى وإن كان ثمة تحيزات هنا وهناك لأحد الطرفين إلا إن التوازن بينهما لم يمح اللهجات ولم ينل من مكانة الفصحى وقدراتها التواصلية.

1 - عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية (دراسة في الهوية والوعي)، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت 1986. ص40

2 - سمر روي الفصيل: قضايا اللغة العربية في العصر الحديث، الهيئة السورية العامة للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق 2010، ص7

3 - انظر في ذلك حمزة المزيني، التحيز اللغوي، م س، ص39 وما بعدها

إذا اقتربنا من تاريخنا المعاصر نجد أن الوعي اللغوي يبلور في حضان القومية العربية وحلم الوحدة، وظلت اللغة مقوما أساسيا من مقومات الوحدة، وقد ظهر أثر ذلك التقدير الذي حظيت به اللغة في مختلف الصيغ الأيديولوجية للقومية العربية، حيث يرى - ياسر سليمان - أن اللغة ظلت مهيمنة في مختلف تلك الصيغ، وتم تأسيس ارتباط إيجابي وعلاقة لا تنفصم بينهما¹، وخلال القرن العشرين تحددت المسألة اللغوية في الفكر العربي انطلاقا من تقاطع ضربين من الوعي: "وعي بالسلطة الرمزية الكبرى التي مارسها اللغة العربية داخل منظومة التراث الفكري حتى اكتمل معماره الثقافي تحت قباء الفضاء العربي الإسلامي، ووعي بأن اللغة - بين ازدهار وضمور - هي دوما مرآة تنعكس عليها صورة الواقع السياسي فيما بين المد الحضاري المتألق والانحسار التاريخي الطارئ. وفي رجم هذا الوعي الفكري تخلقت قضية اللغة العربية في بعدها المعرفي ثم تطورت في امتداد ثقافي هو الناتج الأقصى لتظافر المقومات المادية المحسوسة والمرجعيات الرمزية المجردة على حد ما هو صورة من صور ازدواج المشهد العربي بما يثوي وراءه من مكونات المشهد الإنساني العام"²، وفي الوقت ذاته ظل الاعتقاد الشائع لدى أصحاب تلك التوجهات القومية أن اللغة العربية بحاجة إلى التطوير نحويا ومعجميا وأسلوبيا وتربويا كي تصير أكثر فاعلية في المشروع القومي، ويركز دارسو القومية ممن يتبنون أهمية اللغة على أن اللغة أهم أدوات العملية الاجتماعية وأدوات صناعة الإنسان، فاللغة هي الواسطة التي تجعل من الأمة "مجتمعا متخيلا، وتربط الفرد في وقت وحيز اجتماعي معين مع أبناء أمته ممن لم يرههم أو يقابلهم. ولكن هذا لا يمنع وجود من يقلل من أهمية اللغة أو يعدها مجرد عامل بين عوامل أكثر أهمية"³.

ويبقى السؤال مطروحا، هل تحقق ذلك إبان فترة المد القومي وظهرت آثاره واضحة في الخطاب التعليمي؟

بعيدا عن الأحكام المسبقة يلاحظ أن اللغة العربية في فترة المد القومي نالت نصيبها من الاهتمام كخطاب سياسي بالدرجة الأولى وبصورة أوضح كان البعد السياسي الحشدي هو المهيمن في النظر إلى اللغة العربية، وإن أخذ أشكالا أوضح في المغرب العربي متمثلا في حركة تعريب نشطة، ولم تتطور الطرق والمناهج والآليات بالصورة التي تواكب الاهتمام السياسي، بل وجدنا تناقضا بين القول والتطبيق السياسيين فيما يخص اللغة - واللغة بالذات - حيث إن الوعي الصحيح بها يتطلب أن تكون نظرية قائمة وتطبيقا حيا، وهذا ما لم يُلاحظ على الأقل في كثير من خطب جمال عبد الناصر الذي كثيرا ما لجأ للعامية المصرية لأسباب تتعلق بسيكولوجية

1 - Yasir suleiman : The Arabic Language and National Identity A Study in Ideology -Edinbur Ghuniversity-press2003 - 1 p224

2 - عبد السلام المسدي، مجلة أفكار الإلكترونية - afkar@afkaronline.org

3 - Yasir Suleiman, p. 227 - 3

الجماهير، مقارنة بالصحة اللغوية التي تميز بها السياسيون قبل الثورة من أمثال سعد زغول ومصطفى النحاس ومكرم عبيد... إلخ ويربط جلال أمين ذلك بنوعية الطبقة الحاكمة، فمع التوسع في التعليم أصبحت النسبة الغالبة من المتعلمين في الخمسينيات والستينيات ينتمون إلى طبقة اجتماعية أقل استقراراً، بمعنى أنها كانت أقرب عهداً بالطبقات الدنيا (إذا قورنت بالجيل السابق من المتعلمين)، ومن ثم أقل اطمئناناً إلى مركزها، كان موقف هذه الطبقة فيما يزعم - جلال أمين - أقل إجلالاً للتراث (بما في ذلك اللغة القومية) ، كما أن انبهارها بالغرب كان أشد تأثيراً على ثقافتها بنفسها، وقد استمر انحدار اللغة في العقود التالية لأسباب اقتصادية واجتماعية متعددة¹

لقد كان التركيز على دور اللغة القومية هو السائد إبان فترة المد القومي، كما كان الجدل عنيفاً حول الدور الرئيسي للغة في صياغة القومية العربية، وانتبذ الباحثون في هذا الأمر إلى فريقين محتربين ساطع الحصري وقسطنطين رزيق و طه حسين وسلامة وموسى، وعبد العزيز فهمي سلامة موسى، وأنيس فريحة، وسعيد عقل، وميخائيل الصباغ، وثلة من المستشرقين ، أبرزهم وليام ولكس.

بيد أن القومية العربية حملت إبان مدّها جينات انحسارها، متمثلة في أمرين رئيسيين :

- أدلجة الهوية.
- ثباتها وبالأحرى تكلسها .

لقد ظل مفهوم القومية العربية ونحن هنا نساوي بينه وبين الهوية العربية يدور في دائرة مفرغة ولم يسجل أي تقدم ذي بال في أية قضية من قضاياها، فلم تكن فكرة القومية نابعة من إحساس بواقع بقدر ما كانت نابعة من إحساس بالنقص وسعة المسافة بيننا وبين الآخر الأوربي، وهو ما أطلق عليه الجابري الإيديولوجية غير مطابقة، بمعنى أن الجانب المعرفي فيها لا يعبر عن الواقع العربي الراهن، ويحاول أن يخفي ضعفه المعرفي، وثغراته المنطقية بواسطة مضامين إيديولوجية، كان ذلك أخطر ما وقع فيه القوميون العرب في حديثهم عن أدلجة القومية العربية بصورة أخلت بشروطها الموضوعية، و حيثما توجد الإيديولوجيا يوجد التحيز ، إن " أدلجات الهوية والوعي لم يكن سمناً ولا عسلاً، لا عندنا ولا عند غيرنا. بل إن البشرية دفعت ومازالت تدفع أثماناً باهظة، دماً ودماراً، قهراً وهذراً ، من جراء إعلانات الهوية والتشبيث بالانتماءات الألفية أو الأسطورية، أكانت الهوية دينية أم قومية ، اجتماعية أم سياسية... فالمنظومات الإيديولوجية وفلسفات التاريخ، قد تكون مصدراً للوعي أو أداة للتثقيف والتتوير، ولكنها قد تكون في المقابل أداة للتزييف والتضليل"² ، ولأن الفكرة القومية ظهرت كرد فعل للاستعمار وسيطرته ومحاولاته طمس

1 - جلال أمين، ماذا حدث للمصريين (تطور المجتمع المصري في نصف قرن 1945م، 1995م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1999م. ص 166.
2 على حرب :حديث النهايات فتوحات العولمة ومآذق الهوية - المركز الثقافي العربي ، ط 2 بيروت 2004م. ص 22

الهوية العربية؛ فإن رد الفعل عنيفا بحيث أفرغ المشروع القومي من مضمونه، وتحولت الهوية القومية إلى هوية أصولية باحتكارها الكامل لمصادر القوة والسلطة لمصلحة النخبة، وتجلّى أبرز مجلى سياسي لتلك الأصولية في الزعيم القائد الأب (البطيركي)¹؛ ونتيجة لخلو المفهوم من الأسس النظرية لأفعاله المتمثلة في الجانب المعرفي والثقافي تركز مفهوم الهوية الثابتة وهو مفهوم أرسطي يرى في الظواهر جوهرًا لا عرضًا، فلا يعترها التغيير ولا تسير عليها أحكام الزمن .

وفي فترة المد القومي غلب السياسي وانحسر الاجتماعي والثقافي و ظلّا تابعين خادمين لمفهوم القومية المغمّس بالإيديولوجية، وتحولت الخطاب التربوي إلى خطاب تعبوي وظل الخطاب التعليمي على طبيعته من الانحياز غير الموضوعي وغير المبني على أسس علمية وموضوعية صلبة، علما بأن لغة أي خطاب دائما ما تكون منحازة بوعي منا أو بدون وعي، كما سبقت الإشارة، لكن الخطر الحقيقي يكمن في تخطيطنا لمناهجنا التعليمية، حيث تسيطر علينا إيديولوجية ما، وهو ما يترك أثره في هذا الوعي بصورة تجعل منه وعيا مزيفا، وهذا "الوعي المنحاز أو المزيف لا ينتج إلا عن لغة منحازة بحكم طبيعتها، ولن يغير من هذه الحقيقة ما نموه به على أنفسنا أحيانا عندما نزعّم أن اللغة مجرد أداة للتواصل بين الناس"²، ولا ينفصل هذا الانحياز عن السلطوية المسيطرة على مختلف جوانب العملية التعليمية التي لا يرقى منها خدمة الفرد والمجتمع بل وسيلة لتطويع الطلاب.

من هذا الخطاب المتشعب بالإيدلوجيا المتطرفة برزت النظرة الوعائية الخدمية للغة بوصفها أداة؛ لتخدم تلك الأهداف من حيث استلها الميراث ومنجزاته أو تمثل المعاصرة في ما لا يتناقض مع هذا التراث، إذن كان التركيز منصبا على المحتوى على اعتبار انفصال الشكل عن المضمون، وهي النظرة التي لما تزل سائدة في مناهج دراستنا للغة العربية متناسين أنها أداة غير محايدة ووعاء يتشكل ويشكل ما يحويه، وفي ظلال المد القومي واعتبار اللغة هي الرباط الروحي للوطن العربي، استمرت عملية إضفاء القدسية عليها، وعليك أن تلاحظ أن قدسيته كانت في الماضي لارتباطها بالدين، واستمرت القدسية بل وتضاعفت لارتباطها بالهوية العربية، " وهذا ما أضفى ويضفي عليها نوعا من القدسية. فكما كانت من قبل شرطا للاجتهاد الديني (التشريع) فهي اليوم شرط الوجود القومي. إنها والتاريخ العربي الإسلامي - ذو الطابع الروحي المهيمن - شيء واحد. لقد اندمجت في هذا التاريخ وأصبحت سر أسرارها، واندمج هو فيها فأصبح حاضرا يتخطى حواجز الزمن، تماما كما فعلت وتفعل اللغة العربية نفسها"³ ، هذا القدسية تركت أثرها

1 - جابر عصفور النقد الأدبي والهوية الثقافية - كتاب دبي الثقافية - ط1 دي 2009 م. ص145 وما بعدها

2 - عز الدين إساعيل ، أيدولوجيا اللغة، مجلة فصول م5/4 ج2- الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1982م ، ص 42

3 - محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 5 بيروت 1994، ص109

على مخططات التربية والتعليم، التي كرست لهذه القدسية التاريخية دون أن تعضد مكانة اللغة لا في القلوب فقط، إنما في الحياة أيضا؛ لذا نعى عدد كبير من مفكرينا على واضعي المناهج اللغوية اختلاط وعيهم بالأيدولوجيا وهو ما ترك أثرا واضحا في تخطيطهم للمناهج التعليمية، نذكر من هؤلاء الفهري والجابري، وجليون وعصفور وحرب، ومن ثم ظلت أزمة الهوية في الواقع الثقافي العربية تاركة ظلالها على هوية التربية العربية وأصبح السؤال المعبر بدقة عن هذه الإشكالية هو: هل تنتظر التربية حتى تتبلور هوية المجتمع فتكون للتربية هويتها التي تبنى عليها أهدافها ومناهجها واتجاهاتها؟¹ ، إننا مازلنا نعيش انفصاما بين المنظومة التربوية والتعليمية وشروط النهضة الحضارية الحقة، ولا يتحقق ذلك إلا في إطار نظرة مغايرة تضع اللغة في موضعها من التنمية، فلا يكفي اعتبارها أداة للتعبير يمكننا أن نستبدلها بأداة أخرى. إذ توازى مع الطرح الرومانسي الحالم للوحدة العربية كما يسميه الجابري نسق تعليمي يكرس له ويتغنى بالعربية من خلال شعارات أخاذة تعكس تسلط الإيدولوجيا قبل أن تعبر عن وعي حقيقي فلم نجد لها مردودا مؤثرا على تطور الخطاب التعليم العربي خاصة فيما يخص اللغة.

وحين ارتد المد القومي حسيرا، وتغيرت معطيات الواقع العربي في أعقاب هزيمة 67، وبدأت ريح القطرية تهب على الوطن العربي من كل ناحية، حتى بلغ الأمر ذروته مع احتلال العراق للكويت، وفي ظل ارتفاع دعاوى القطرية تفرقت بالهوية العربية السبل ما بين الهوية المغيبة، والهوية المؤدلجة، والهوية المشوهة، وتأكد ذلك بعد الثورات المتلاحقة والاضطرابات التي ضربت كثيرا من الأقطار العربية، وهو أمر من شأنه أن يعيد طرح إشكالية اللغة في إطار نعرات التعصب المتعالية، ولاشك أن عدم وضوح الرؤية في كثير من القضايا الأساسية على المستوى السياسي والفكري كان سببا رئيسيا في تهرؤ خطاب الهوية في تعليمنا خلال العقود الماضية، حتى بعثت الهوية في ثياب جديدة محملة بالفكر الغربي ونظريات التفكيكية وتحليل الخطاب، وانتقلت من الثبات الأرسطي إلى التغير وعدم الثبات والدينامكية، وهبت العولمة عاتية تخلع الأطناب وترج الثوابت رجا، وفي كل لحظة فيض من المعلومات نتلقاه أو يلقي علينا دون مرشح من لغتنا القومية، يستخلص من هذا الكم جوهره ، ويكشف فيه مواضع الزيف والتضليل misinfomation، ويجنب التافه والمضر، وجميعها أمور تتطلب درجة عالية من الوعي والإدراك لا يتولدان إلا من خلال اللغة²، وهو ما يتفق مع دعوتنا إلى وعي لغوي جديد، يتجاوز حدود اللحن والتصويب، ويلتفت إلى الخطابات التي ترسل في كل لحظة عبر آلات العولمة الجهنمية، علما بأن سؤال الهوية والوعي بها" لا يصطنع أو لا يُصنع صنعا، وإنما هو دائما

1 - محمد أرزقي بركان، التحول هل هو بناء للهوية أم تشويه لها؟، مجلة فكر وقاد(المغرب)، عدد 35- يناير 2001

2 - نبيل علي، تحديات عصر المعلومات، الهيئة المصرية العامة للكتاب مكتبة الأسرة، القاهرة 2003م، ص 51

كالمكبوت في حالة الكمون يستيقظ ويشتد بصفة خاصة في ظروف التحولات والانتقالات الحسامة التي تمر بها المجتمعات والشعوب والأمم¹ ولا تجابه أمتنا مثل ظرفنا الحالي بكل تعقيداته ومخاطره لكي يطرح هذا السؤال من خلال أبرز مكوناته؟

ومع بزوغ عصر المعلومات تعاضم الدور الذي تلعبه اللغة في صياغة أشكال المجتمع الإنساني الحديث، وباتت اللغة في أمس الحاجة إلى منظور جديد، منظور يعيد النظر في جميع جوانب المنظومة اللغوية : من أعمق الجذور إلى أدق الفروع. ومما يؤسف له عدم مواكبة مناهج التعليم بالصورة التي تتناسب مع هذا الزخم المحيط بهذا المعلوم المجهول المسمى اللغة. ومن ثم كان البحث عن مسالك جديدة لترسيخ الوعي اللغوي لدى الطلاب والعمل على توثيق علاقتهم باللغة الأم مع تقوية صلاتهم باللغة الأجنبية، فلا خوف من تعلم لغات أخرى ما دامت عرا العلاقة بين الإنسان ولغته الأم وثيقة، بل تزيده معرفته بلغات الآخرين ثقةً في لغته وفي قدرتها على مواكبة العصر، ولا حديث عن بناء الهوية وتشكيلها إلا من خلال وعي لغوي بخطورة اللغة وقضاياها وإمكانية تطويرها، من خلال تعلم فاعل مشبع لمختلف احتياجات الطالب الفكرية والمعرفية. يحقق عربية الإنسان العربية، ذلك الإنسان الذي يمكن القول عنه إنه كلما كان أقدر على التعامل مع اللغة العربية، تعبيرا واستجابة، كان أكثر امتلاكاً لما به الإنسان إنسان²

ويمثل ظهور الشبكة الدولية للمعلومات انبثاقاً لقوة جديدة ذات تأثير لا يمكن تخيله، إذ يمكنها أن تغير الطريقة التي نتواصل ونعمل ونتاجر ونرفه أنفسنا ونتعلم بها، بل وربما ستغير في يوم من الأيام طريقة تفكيرنا، ولما كانت اللغة - وفقاً لقول ديفيد كريستال - مؤشراً حساساً للتغير الاجتماعي، فإنه سيكون من المدهش حقا إذا لم يكن لهذه الظاهرة الابتكارية إلى أقصى حد - يقصد الانترنت - تأثير مقابل في طريقة تواصلنا، إذ إن اللغة تقع في قلب الانترنت الذي لا يمثل مجرد حقيقة تكنولوجية، بل هو حقيقة اجتماعية، وبضاعتها الحاضرة الأساسية هي اللغة ... فكلام الشبكة الدولية يمثل شيئا جديدا تماما، فلا هو كتابة منطوقة، ولا هو كلام مكتوب، إنه شيء مختلف اختلافا جذريا عن كلا من الكتابة والكلام. إنه وسيط رابع جديد للتواصل اللغوي لا يتكرر حدوثه كثيرا في الجنس البشري³، وإذا كانت العولمة والتكنولوجيا قد أسهمت في ظهور ردة فعل انعكاسية فيما يتعلق بالهويات، وزادت من بزوغ نسخ متعددة من الهويات الأصولية؛ فإن ظهور الشبكة الدولية وأشكال التواصل الجديد أتاحت فرصا جديدة

1 عبد الرازق البادي، في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات، حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1 بيروت 2013، ص155

2- محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، ط9 بيروت 2009، مركز دراسات الوحدة العربية، ص75

3 - ديفيد كريستال، اللغة وشبكة المعلومات العالمية، ترجمة: أحمد شفيق الخطيب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ط1 2010م، 293 وما بعدها

لأشكال جديدة من صراع الهويات لم يكن معهودا من قبل في زمن القوميات"¹، غير أن "الوعي بمنزلة العربية في عصر العولمة، وما هو مطروح عليها من تحديات، شأنها شأن جُل لغات العالم، مازال محدودا جدا لا يتعدى أهل الاختصاص العلمي وبعض الإعلاميين"². رغم جدة ما طرحه عصر المعلومات من قضايا ذات أساس لغوي من قبيل، الانقراض اللغوي، وحقوق الأقليات اللغوية والحرب اللغوية، والإمبريالية اللغوية والتعصب اللغوي والتلوث اللغوي... إلخ

وفي النهاية يمكن القول إن ما قد توصل به اللغة العربية من انغلاق وجمود وعجز عن المشاركة الإيجابية في الثقافة الإنسانية الحديثة لا يرجع إلى اللغة في ذاتها، بل إلى أهلها أفراداً وخبأً وجماعات ومؤسسات ودولاً أو أشباه دول. ويعزى، بصورة أساسية إلى تشكلات السلطة في وطننا العربي وإشكالياتها التي لا تنتهي. والحيرة الضالة المضلة التي يعيشها الإنسان العربي المسلم منذ تشكل الوعي القومي وفي مركزه اللغة العربية. وهو ما ستظهر ثمرته في خطابنا اللغوي الذي أخذ طابعا عنيفا، مع/ ضد اللغة على نحو ما سنرى في المبحثين القادمين.

Bryan S. Turner : The Cambridge Dictionary of Sociology- Cambridge University Press 2006- p 278- 1

2 - السياسات اللغوية، المنظمة العربية للثقافة الأسيكو، تونس 2010، ص 27

المبحث الثاني خطاب التقديس اللغوي

وقع الخطاب اللغوي العربي بين شقي رحى، رغم ما يبدو من اختلاف بينهما وما قد يظنه ظان بأنهما على طرفي نقيض، فثمة خطاب طاعن عدائي وآخر هو خطاب الدفاع والمنافحة، والتسمية من عند المسدي، لكن كل خطاب يقف على فتات الآخر، وكأنهما في حلقة مفرغة لم يأن الخروج منها، ومن الملاحظ أن خطاب المنافحة ظل لقرن كامل أو يزيد يشغل على القضايا ذاتها التي طرحت حيال اللغة العربية منذ بدايات القرن المنصرم، ومن أن لآخر تعود القضايا مرة أخرى بغبارها، ثم تهدياً لتقوم دون إضافة نوعية أو تغيير يذكر في الأسئلة المطروحة والأجوبة التقليدية الملاصقة لها، وكل ما في الأمر هو طرح ما سبق طرحه ولا حاجة بنا للتدليل على ذلك وإن كان كافياً أن نذكر ما يثار حول قضية الفصحى والعامية، أو تجديد النحو لنعرف أننا نلوك القضايا ذاتها وإن بدت في ثوب جديد قشيب، إنه خطاب المنافحة كما يقول المسدي إذا انكبنا على مكوناته عن اللغة ألفينا أن قصاره تقليب في الموجود لا اختراع لغير الموجود. من أجل ذلك تساوى خطاب من ينعي على العرب تفریطهم في لغتهم ومن ينعي على اللغة العربية ارتهانها في فصاحة الأزمنة المواضي، ومن أجل ذلك أيضاً راح يحتكم إلى قوانين تخص غير لغة العرب يسلكها على لغة العرب ليحكم بها عليها وعليهم¹. وذلك في إطار تقسيم المسدي للخطاب اللغوي المعاصر إلى ثلاثة أقسام لا قسمين، هذه الخطابات في رأيه هي :

- خطاب عاطفي، هو خطاب الحمية، وهو يمتح من إفرزات الأنا الجمعية تحركه نفحات حماسية.
- خطاب إيديولوجي وهو ذاك الذي تحركه المتراكمات النفسية التي جرفتها سيول الأحداث، إنه صراع الأنا والآخر في صراع الهويات ورمزيتها العلية اللغة.
- خطاب غيبي يستمد وقوده من القناعات الإيمانية وهو خطاب الذب عن اللغة يأتي مغلفاً بالاستلهام الروحي فيسبل على القضايا الكبرى قداسة يختلط فيها العقلي بالغيبي² ، وربما كان من اليسير أن ننحي الإيديولوجي جانباً على اعتبار أنه مشترك بين الخطابين الآخرين. لقد نالت لغتنا الجميلة نوعاً من التقديس وأكثره قولي لا فعلي، تمخض عنه اعتقاد عند البعض بوجوب الحفاظ عليها في إطار كلي لفظاً ومضموناً، والشعور بنوع من التحريم في التصرف فيها كما يحرم إتيان هذا الفعل أو ذاك في الدين، وهذه النظرة للغتنا تمثل نوعاً من التحيز اللغوي الذي نجد نظيره لدى أهل اللغات الأخرى، على نحو ما سبق ذكره، " إذ نجد في كل حضارة من يرى أن لغة تلك الحضارة هي أول اللغات نشأة، وأن اللغات الأخرى لم تنشأ إلا متأخرة نتيجة

1 - عبد السلام المسدي الهوية العربية، والأمن اللغوي، دراسة وتوثيق، المركز العربي للأبحاث والدراسات، بيروت 2014، ص 119

2 - عبد السلام المسدي ، السابق، ص 16

لعقاب إلهي، وأن تلك اللغة تتفوق على ما عداها: فهي الأجل والأكمل والأكثر منطقية"¹، يقول أنور شحنة (Chejne 1969) في كتابه المعروف في الغرب عن اللغة العربية وأهميتها في التاريخ واصفاً أثر هذا الاعتقاد، "إن الإيمان بقدسية القرآن فيما يتعلق بمعانيه وكلماته، وحتى أدق تفصيلاته، أصبح يشمل اللغة العربية بكليتها، إن مسألة كون العربية أعطية الله؛ وبناء عليه فهي فوق اللغات جميعاً بجمالها وثروتها ونبلاها، هذه المسألة استحوذت بعمق اهتمام وتفكير فقهاء اللغة ومشرعي الإسلام والفلاسفة والفقهاء وغيرهم، وقد أدى الإيمان بقدسية العربية الفصحى إلى تجذير قناعات المسلمين بحتمية بقائها على مدى العصور والدهور، وأصبحت هذه القناعات جزءاً من العقيدة"²

ومن المعلوم أن الحديث عن تقديس اللغة أو الغلو في مكانتها نتاج ارتباطها بكتاب العربية الأول القرآن الكريم، فإذا كان القرآن يصرح بأنه وحي بلغة الإنسان العربي على مقتضى أساليبيها في التخاطب وإن كان الخطاب فيها موجهاً إلى الإنسان عامة، وعلى هذا يكون الوحي قد اتخذ في شكل تبليغه وتحققه اللساني وضعاً إنسانياً، وخرج عن وضعه الإلهي الذي لا تكيفه ولا تحده لغة"³، إذا كان ذلك كذلك فيما يخص نصاً صريحاً في ارتباطه ونزوله من لدن العزيز الحكيم؛ فإن الأمر فيما يخص اللغة أشد مدعاة لنزع القدسية عنها، والتحويل الزائف في أسبقيتها أو مستقبلتها في الآخرة، فيما لا يضيف جديداً لقيمتها، وإنما يزيد من أيقنتها (من الأيقونة) ومن ثم جمودها، وليس في هذه الدعوة ما يضعف اللغة العربية، أو يتعلق بشأن العقيدة، وإنما المقصد تحرير اللغة من جمودها بصورة لا يخدم شأننا الديني ولا اللغوي، بقدر ما يجعل الجمود راسخاً في الخطابين كليهما بحكم الطبيعة الجدلية فيما بينهما، "فاللغة إما أن تكون حصناً تلوذ به الشعوب لا تنتشالها من أزماتها، وقلعة حصينة للذود عن الهوية والوحدة القومية، وإما أن تكون سجناً للعقول والأفكار والألفاظ إذا أنكرنا على اللغة حقها في التطور والاحتكاك والتهجين، وهو ما يؤدي إلى ترهل الفكر وضمور أدوات التعبير واختناق المعاني"⁴

وقد سبق أن تناولنا قدسية اللغة بوصفها ظاهرة خارج إطار الواقع اللغوي، ولا أصل لها في القرآن والسنة، بل إن القول بقدسيتها : يناقض صحيح الدين الإسلامي، فلو كانت العربية مقدسة وتسمو فوق لغات العالم لكان الإعجاز في ذاتها، وكان العرب قادرين بالتالي على بمثل ما جاء بالقرآن، لكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً إذ الإعجاز في القرآن لا اللغة"⁵ ويسوق الشوباشي دليلاً آخر هو أنه لو كانت العربية لغة مقدسة لكان الدين الإسلامي للعرب وحدهم وللذين يجيدون لغة الضاد

1 - حمزة بن قبلان المزيني التحيز اللغوي وقضايا أخرى، كتاب الرياض، 2004م، ع 125، ص 9

2 - Anwar G chejne: The Arabic language. Its Role in history. -Minneapolis 1969.

3 - طه عبد الرحمن، روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، ط1 بيروت 2006، 197

4 - نبيل علي، الفجوة الرقمية، م س، ص 307

5 - شريف الشوباشي، لنحيا اللغة العربية ويسقط سيويه، ط3 مديبولي الصغير، القاهرة 2004، ص 88

دون غيرهم من البشر وهذا يناقض صلب الدين الإسلامي الحنيف" ¹ ، رغم أن أكثر الإضافات النوعية في تاريخ اللغة العربية نحو وصرفا وبلاغة جاءت من مسلمين غير عرب بالأساس، يضاف إلى ذلك أن ثمة خلطا بين اللغة والخطاب عند أصحاب هذا الاتجاه، فالإمكانات التعبيرية لبعض التراكيب النحوية والصرفية والدلالية تعد لغة، والخطابات أو الأفعال اللغوية التي يقوم بها الأفراد في ظروف معينة والتي تحمل انطلاقا من ذلك قيمة محددة تعد خطابا" ² ، ولهذا كان وصف القرآن دائما أنه كلام الله لا لغة الله، وأصحاب الخطاب التقديسي على خلاف ذلك وهو من أوهامهم الملتبسة عليهم.

كما إن كثيرا من المفسرين لم يقرأوا الآيات التي وصف فيه الله قرآنه بأنه عربي مبين على أنها نوع من التفضيل للغة على نحو ما ذكرنا وقد فصل المزيني القول في هذا الأمر ورصد أقوال المفسرين فيه، وهم - في رأيه - فريقان:

1- فريق يرى أن الآيات لا تحمل أفضلية للغة العربية، وإنما وصف المبين يتعلق بالمتلقي المتدبر لما فيه ومنهم ابن حزم ³ ، وابن خلدون في مقدمته يكاد الاثنان أن ينفردا بهذا الرأي .

2- فريق ثان - ومنهم متأخرون أمثال سيد قطب - يرون أن هذه الآيات تمثل تفضيلا للغة العربية بوصفها لغة أهل السماء، وأنها أصلح اللغات. ³ ، وخطابنا اللغوي أحوج ما يكون اليوم إلى أخذ بالأسباب اللغوية المقتحمة في عصر العلم والمعلوماتية، وتناول قضاياها وإشكالاتها فهما ونقدا وتحليلا، وقراءتها بمنظور علماني متحرر من نزعة الانتماء والانحياز والبينية" ⁴

إن الوعي اللغوي يطفو دائما على سطح الصراع الفكري والاجتماعي والنفسي، ولا غرو في أن المأزق اللغوي برز نتيجة حتمية الصراع الدائر بين الأصالة والحدثة" ⁵ ، وقد كان هذا الوعي لدي ابن حزم وبناء عليه رأي "عدم أفضلية لغة على أخرى قائلا " وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات، وهذا لا معنى له لأن وجوه الفضل معروفة، وإنما هي بعمل أو اختصاص ولا عمل

1 - شريف الشوابشي، السابق، ص 89

2 سيلفان أورو وآخران، فلسفة اللغة، ترجمة ، بسام بركة، المنظمة العربية للترجمة ط1 بيروت 2012، ص 523

3 "وقد قال قوم: العربية أفضل اللغات لأنه بها كلام الله تعالى. قال أبو محمد: وهذا لا معنى له ، لأن الله عز وجل قد أخبرنا أنه لم يرسل رسولا إلا بلسان قومه. وقال تعالى : {إِنِّي إِذْأُفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } وقال تعالى : {وَأَنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ } فبكل لغة قد نزل كلام الله تعالى ووحيه. وقد أنزل التوراة والإنجيل والزيور، وكلم موسى عليه السلام بالعبرانية ، وأنزل الصحف على إبراهيم عليه السلام بالسريانية ، فتساوت اللغات في هذا تساوياً واحداً ، وأما لغة أهل الجنة وأهل النار فلا علم عندنا إلا ما جاء في النص والاجراع ، ولا نص ولا إجماع في ذلك" أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ابن حزم). الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة ، بيروت 1979، مج 1/ج 1، ص 32 أما ابن خلدون فيقول " اعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالين عليها، أو المختطين لها.. فلما هجر الدين اللغات الأعجمية، وكان لسان القائلين بالدولة عربياً، هجرث كلها في جميع ممالكها، لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب" انظر مقدم ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر ، ط القاهرة 2014، ج 828/2

3- حمزة المزني، التحيز اللغوي، ص 37، 38

4 - منير الحافظ الوعي اللغوي، دار الفرق 2005 دمشق ص 75

5- منير حافظ ، السابق، ص 161

اللغة، ولا جاء نص في تفضيل لغة على لغة... فيكل لغة نزل كلام الله تعالى ووحيه وقد أنزل التوراة والإنجيل والزبور وكلم موسى عليه السلام بالعبرانية وأنزل الصحف على إبراهيم عليه السلام بالسريانية. فتساوت اللغات في هذا تساويًا واحدًا¹ ، هذا الوعي إلى جوار وعي ابن خلدون أن غلبة اللغة بغلبة أهلها يفيد أن من بين علمائنا من سبق لعصره في فهم إشكالية اللغة ووضعها في موضعها الصحيح.

ومن مظاهر التقديس الأجوف محاولات البحث عن لغة آدم عليه السلام ودعوى أنها العربية، وإذا كانت دعوى أن اللغات كلها تمتد إلى لغة واحدة هي اللغة الأولى التي تكلم بها آدم وحواء بعد هبوطهما من الجنة، فإنه يمثل نوعًا من البحث العقيم الذي لا يفيد ولا يضر، ولا يضيف للعربية شأواً ليس لها، مما يمكن أن نطلق عليه أسطورة اللغة، كما أن ارتباطها بالقرآن الكريم وهو تشريف للعربية وإضافة أساسية لقوتها وامتدادها بلا شك، لكن رؤية البعض للغة بوصفها سلطة كانت سببًا في تأخر الفكر اللغوي العربي لا عن الغربي فقط بل عن الرؤى التراثية شديدة الثراء في هذا الإطار، فثمة اعتقادات من مثل ثبوت المعنى وشفافية اللغة، مما ترك أثرًا على قراءتنا للقرآن الكريم، بدعوى المحافظة عليه: فلكي يحافظوا على سلطة النص افتعلوا لغة سلطة ليست لها² ، بل تجاوز البعض وقال "إن اللغة العربية لم تمر بمراحل التطور اللغوي وإنما ولدت مكتملة إلهامًا من الله، وأن العرب نسوا لغتهم السابقة، واستيقظوا على الفصحى"³ ، وهذا الرأي يعطي للغة قوة وسلطة من داخلها بناء على أنها:-

- أن اللغة لها نظامها الداخلي الخاص، وهي تفرض سلطتها على المتحدث بها، بأن يلتزم بنظامها.
- أن اللغة سابقة على الفكر ، موجهة له (وفق الرأي القائل بذلك)، ومن ثم فهي تحدد للإنسان رؤيته الكلية في الحياة، أو أنها تسهم في ذلك.
- أن اللغة تملك سلطة التأثير النفسي، عبر سحرها الشعري والنثري ومنظومتها اللفظية والدلالية.
- أن اللغة تملك سلطة الإقناع العقلي، من خلال منظومة من الأغاليط السوفسطائية.
- أن اللغة مستقلة عن الإنسان ولها كيانه الخاص⁴

وجهة النظر السابقة يقف ضدها من يرون أن اللغة أداة في يد السلطة، ويمكننا أن نعود للوسطية اللغوية مرة أخرى بالوقوف موقفًا وسطًا بين وجهتي النظر، أي أن نساير " اللسانيات

1 نقلًا عن محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، اللغة، دار توبقال للنشر، الكعرب 2004، ص 60

2 نبيل على الفجوة الرقبة، ص 334

3 عودة منيع الله القيسي، العربية الفصحى (مرونتها- وعقلانيتها- وأسباب خلودها) دار البداية ط1 الأردن 2008 م ، ص 76 وما بعدها

4 انظر اللغة لا تحمي ذاتها، مدخل نظري وتطبيقي للحماية القانونية للغات، تحرير عبد الله بن عبد الرحمن البريدي، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، دار وجوه للنشر، ط1 الرياض 2019، ص 27

الاجتماعية الحديثة في ذهابها إلى أن «الكلمة في ذاتها لا تملك إلا سلطة نظامها»⁽¹⁾ ، أي أنها تملك فقط سلطة داخلية، وفي الوقت ذاته مسايرة السوسولوجيات المعمقة المقررة بأن النفوذ والقوة ليس بيد اللغة، وإنما من/ما يقف وراء اللغة؛ إقراراً بتأثير سلطة خارجية¹ إذن تملك اللغة سلطة داخلية لا خارجية كما أنها عرضة لكثير من المؤثرات بفعل الإيديولوجيا والسياسة والاجتماع مثلما إنها عرضة للمحو الزوال كتعرضها للازدهار والنماء.

وفي قضية المفاضلة لا نستطيع أن نصل لرأي نهائي، خاصة أن كل إنسان بلغته معجب وراض، كما نرى أنه المنهج المقارن له دور في الكشف عن إمكانات اللغات وقوتها أو ضعفها، لكن نستطيع أن نقف موقفاً وسطاً بين من يقول إن العربية أفضل اللغات أو أن اللغات جميعاً سواء، فليس لكلا الفريقين دليل قاطع على رأيه، فكل اللغات قادرة على توصيل رسائل البشر الناطقين بها، كما أنها تملك قدرتها على إشباعهم نفسياً واتصالهم اجتماعياً، وعليه فإن "كل اللغات سواء في الغاية الاستراتيجية غاية البيان، كل إنسان يستطيع أن يبلغ رسالته إلى مستمعه، لكن كفاءات الإبلاغ وقدرات اللغة على تمكين المرسل من البلاغ تختلف من لغة إلى لغة"²، وفي هذا الإطار يمكننا أن نتحدث عن ميزات في العربية قائمة على الدليل اللساني والبرهان اللغوي القائم على المقارنة والتقابل.

هنا نشير إلى أن الآراء المتحيزة- تحيزاً غير مدروس- لقوة اللغة العربية وسلطانها غير المحدود تعد شكلاً من أشكال التحيز والتمركز حول الذات، وخطورة هذا الأمر أن التحيز بهذا الشكل يصيب تصوراتنا في شتى مجالات المعرفة، حيث تتحول اللغة إلى أيقونة ثابتة لا تدل على أصل الظاهرة أو الموضوع، وإنما على متخيلاتنا أو تصوراتنا حولها، فالتحيز لا يستقيم بعناصره أو مكوناته الثلاث: ذات مركزية، وأخرية متخيلة، ولغة تخيلية تعد وسيلة لبناء للتحيز، فاللغة بناء على ذلك تمثل عاملاً حاسماً في التحيز، وتقوم بدور في ضبط المصطلح. ولذا يمكن القول بأن التحيز يتمظهر بشكل أساسي في اللغة والثقافة، والحديث عن التجرد التام ضرب من الخيال، وهذا ما يؤكد محمود محمد شاكر (أبو فهر) بقوله "بل هو بهذه الصورة خارج طوق البشر. هبه يستطيع أن يخلي ذهنه خلوا تماماً مما قيل، وأن يتجرد من كل شيء كان يعلمه من قبل، أفستطيع هو أيضاً أن يتجرد من سلطان اللغة التي غذي بها صغيراً، وبها صار إنساناً ناطقاً بعد أن كان في المهده وليداً لا ينطق؟ أمستطيع أن يتجرد من سطوة الثقافة التي جرت منه مجرى لبان الأم من وليدها"³ ، وهنا مكنم الخطورة في ترك أمر اللغة لغيرنا يدبر أمرها ويكتب تاريخها، ويدرس لهجاتها والتغيرات الطارئة عليها، ويسقط عليها فاقته حيناً وتحركه أهواؤه حيناً، وعليك أيها القارئ

1 انظر كتاب اللغة لا تحمي ذاتها، مدخل نظري وتطبيقي للحماية القانونية للغات، تحرير عبد الله بن عبد الرحمن البريدي، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي

لخدمة اللغة العربية، دار وجوه للنشر، ط1 الرياض 2019، ص29

2 من حوار مصور مع د سعد مصلوح، قناته على تويتر أثاره من علم

3 - محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1997م، ص30

الكريم أن تتخيل عدد المستشرقين الذين كتبوا عن تاريخ اللغة العربية لتعلم مدى تقصيرنا في حق لغتنا، وعلينا أن نذكر ما كتبه نولدكه وفك وكيس فرستغ ورينان عن تاريخ اللغة العربية، والأطالس اللغوية التي وضعها برجشتاسر وكانتينو لبعض اللهجات العربية، وما كتبه حايم رابين عن اللهجات العربية القديمة وتضاعف الاهتمام بتدريس تلك اللهجات إلى جوار الفصحى، فكل الأقسام تقريبا في أوروبا والولايات المتحدة ترمي إلى أن يعرف الطالب قسطا حسنا من الفصحى المعاصرة وتتوقع منه أن يتعلم لهجة عربية واحدة على الأقل¹

حقا إن علاقة المسلم بلغته تختلف عن علاقات أي متدين بلغته، إذ لا تمثل اللغة لغير المسلمين أهمية في تداول نصوصهم الدينية مقارنة بعلاقة المسلم بقرآنه الكريم، فعلى سبيل المثال نجد ترجمات للقرآن تساعد على تبليغ المضامين والرؤى الإسلامية للمسلمين الذين لا يتحدثون العربي، لكن في المقابل لا تصلح هذه الترجمات للتعبد أو إقامة شعائره بها، فهذه الترجمة لا تعد قرآنا، بل تجاوز العلاقة إلى مجالات عدة في الفقه، حيث تلعب فيه اللغة دورها التشريعي بصورة تتخطى حدود الشعائر والعبادات وتلاوة القرآن إلى مختلف شؤون الحياة. وقد التفت القديس لطبيعة هذا الدور وأهميته، فالزمخشري على سبيل المثال يربط بين الفقه واللغة ربطا عضويا، على اعتبار : أن الكلام في معظم أبواب أصول الفقه، ومسائلها مبني على علم الإعراب، والتفاسير المشحونة بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائي والفراء وغيرهم² ونجد الإمام الشاطبي يؤكد على هذا الدور في فهم النصوص وإدراك مقاصد الشارع، ذلك أن اللسان هو المترجم عن هذه المقاصد، وفي هذا الإطار يقول: "إن الشريعة عربية، وإذا كانت عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم العربية حق الفهم أنهما سيان في هذا النمط ما عدا وجوه الإعجاز؛ فإذا فرضنا مبتدئا في فهم العربية، فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسطا، فهو متوسط في فهم الشريعة، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية؛ فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة"³

أما العلاقة بين العربية والقرآن من هذه الجهة، فهي أن العهد الإلهي بحفظ الذكر قد ترتب عليه بقاء العربية واستمرارها على حال تتفتح معها أسباب التواصل بها على الزمان... فليست العربية- إذن- مقدسة بإطلاق كما يذهب بعضهم من حمل قداساتها على قداسة الوحي جزافا، ويستدل نهاد الموسي بدليل واضح وبسيط حيث يقول: "وحسبنا أن ندفع هذا المذهب بأن العربية كانت لسان الجاهلية وكانت لسان الزنادقة وأهل المجون، بل إن العربية تجري بها السنة الآخرين ممن لا يؤمنون بالإسلام بل يناصرونه العدا وتكون العربية لسان شبهاتهم وطعنهم وافتراءاتهم

1- كيس فرستغ، تاريخ العربية، ت محمد الشرقاوي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2003، ص17

2- الزمخشري، أبو القاسم، المفصل في صناعة الإعراب، ت علي بو ملحم، بيروت، مكتبة الهلال، ط1، 1993، ص2

3- الشاطبي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى. الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق، محمد عبد الله دراز، المكتبة التجارية مصر ج4، ص114، 115.

فأنى لها أن تكون مقدسة بإطلاق؟ وقد يحسن هنا أن أحترس بأن أقرر أن العربية في ذاتها شأنها شأن سائر اللغات وأنها محايدة حمالة للأضداد¹

إنه لمن الخطر ترك أمر اللغة لفصيل من الفكر الأصولي المتجمد يعوق تقدمها تحت دعاوى مضللة ومفاهيم خاطئة للحفاظ على الطهارة اللغوية والأصالة الفكرية... إن تلك الفئة من أصحاب النظرة الجامدة المتشددة ينكرون على اللغة العربية حقها في التطور²

ودعاوى النقاء اللغوية ليست حديثة إنما تمظهرت تجلياتها لدى كثير من القدماء، فقد نتج عن تلك النظرية التقديسية اللغوية كثير من الإساءة للعربية في كثير من الحالات، فعلى سبيل المثال نجد أنهم "نظروا إلى ما عدا العربية على أنه رطانات وأهملوا دراسته ففوتوا على العربية نفعا كبيرا كان يمكن أن تناله لو أنهم درسوا اللغات المحيطة بها والمتصارعة معها أو أخواتها الساميات بالإضافة إلى أنهم أهملوا لهجات القبائل العربية التي تتصل بأي منها"³، كما إن تلك النظرة جعلتهم يحرمون أنفسهم من القياس بدعوى أنه فساد للغة و بطلان حقائقها... ودعاهم ذلك إلى الوقوف في وجه التطور اللغوي، وفوتوا على أنفسهم دراسة تاريخ اللغة في مراحلها المتعاقبة، ولا يستطيع لغوي أن يتحكم في اللغة بقوانين ضد سنتها يفرضها عليها خارجة عن طبيعتها⁴

ويضيف رمضان عبد التواب أثرا آخر ارتبط بتقديس العربية في أذهان اللغويين وارتقاع شأنها على ما عداها من اللغات واللهجات، ومن هنا انصرفوا عن الدرس المقارن للعربية، في إطار فصيلتها السامية من جانب، ولهجاتها المحلية من جانب آخر، كما كانوا يرون في العربية أمرا سحريا، جعلهم يربطون بين الصوت ومدلوله اللغوي، ربطا حتميا، مع أنه في واقع الأمر ليس إلا رمزا اصطلاحيا لما يدل عليه، وبلغ من إعجابهم بالعربية أن ادعوا عروبة ما فيها من ألفاظ، اقترضها العرب من لغات الأمم المجاورين لهم، شأنهم في ذلك شأن سائر الأمم⁵

إن مقولة الشفافية اللغوية تمثل خطرا على اللغة وتفسير القرآن معا، فقد ترتب على هذا الظن ظن آخر، مفاده أن فهمنا للقرآن الكريم لا بد أن يرتبط بهذه الشفافية، وهو أمر أبعد ما يكون مجافيا لطبيعة اللغة التي لها منطقتها الخاص، فهي "ليست وسيطا شفافا، فالاستتار والغموض واللبس خصائص جوهرية في منظومة اللغة، وكما أثبتت اللسانيات الحديثة استحالة مطابقة اللفظ للمعنى، ويسري الحكم أيضا على استحالة مطابقة اللغة للواقع"⁶

1 - نهاد الموسى، اللغة العربية في العصر الحديث قيم الثبوت وقوى التحول، ط1، عمان 2006، دار الشروق، ص45

2 نبيل علي، الفجوة الرقمية، ص312، 311

3 البدرابي زهران، مقدمة في علوم اللغة، دار المعارف، القاهرة 1987، ص103،

4 البدرابي زهران، السابق، ص103

5 رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي، القاهرة ط3، 1995، ص7، 8

6 نبيل علي الفجوة الرقمية ص334

كما إن مقولة الشفافية واسقاطها على القرآن الكريم تنزع من باب خفي سمة من أهم سمات نصنا الكريم، وما يتعلق بديمومته وصلاحيته لكل زمان ومكان" وليس من سلطة أحد أن يحرم معانيه- باستثناء ما يتعلق بثوابته- من حقها في التغيير والاستتار واحتمال تعدد التفسير والتوسع المجازي المنضبط فهذا الحرمان يسيء أشد الإساءة إلى لا زمنية هذا النص الفريد وعالميته" 1

لذلك نصادف كثيرا من الآراء في كتب التراث تغذي هذه النظرة فعلى سبيل المثال يذكر كل من ابن النديم صاحب الفهرست، وابن فارس في الصحابي، كثيرا من الآراء التي تؤكد على هذا النوع من التقديس الذي يضر ولا ينفع²، فنحن إذ نقدر اللغة نفعها ونجعلها جزءا من نسيج حياتنا، ولغة تعليمنا وأداة تحاورنا، ومعين أدبنا وعلمنا. وعليه فإن التقديس لا بد أن يكون فاعلا، ومبنيًا على عاطفة راسخة مرتبطة باللغة برباط لا انفصام له، فمن أخطر ما تعاني منه اللغة العربية المعاصرة فقدانها لقيمتها وهبتها في نفوس الشباب والمتقنين. وإذا كان الاستعمار قد أسهم في ذلك إلى حد بعيد؛ فكيف نزل تحت تأثير سمومه حتى بعد زواله وانتهائه؟ لا بد أن يعود إلى ابن العروبة اعتزازه بلغته وتراثه، وأن تبعث من جديد روح الغيرة على لغته واعتبارها جزءا من كيانه ومقوما لعروبه وأساسا لدينه" 3 ، وبإمعان النظر إلى تعامل خطاب القداسة مع قضية لغوية واحدة نرى مخاطر تلك النظرة التي تعامل اللغة بمنطلقات دينية قد تضر أكثر مما تنفع. إن أخطر ما يواجه الخطاب اللغوي التقليدي التقديسي في بلادنا هو الانفصال عن الواقع بصورة تفقد المتعلم الدافعية المطلوبة في الإقبال على تعلم اللغة وتنامي مشاعره حيالها وفهمه لأهميتها ودورها في حياته، وتنمية روح الانتماء الثقافي والقومي لديه، فقد لاحظ الباحث أن دراسة ما يُعرف في اللسانيات الحديثة باللغة الواصفة(الشارحة) أو الميتالغة أي حديث اللغة عن نفسها؛ وهو ما يمثل نقلة نوعية في دراسة اللغة، وتحولها من أداة إلى موضوع، لم يحظ باهتمام اللغويين وواضعي المناهج، فلم يُول هذا النوع من الدرس - على أهميته - العناية اللازمة في مراحل التعليم المختلفة، بل كثيرا ما يمتد هذا الإهمال إلى أقسام اللغة العربية في التعليم الجامعي، فلقد تهرأت لغة وصف اللغة العربية وتخلفت حتى على مستوى المفاهيم الأساسية، وهو ما يظهر جليا في الخطاب التعليمي العربي فيما يخص تعامله مع اللغة العربية أهدافا وطرقا ومحتوى، ولعل من أسباب ذلك ما يتعلق بطبيعة اللغة ذاتها ووظيفتها، فالغالب أن المتكلم لا يفكر في اللغة التي يستخدمها في ذاتها، وإنما يقتصر على استخدامها ليتوصل إلى أغراض لا تتعلق بها في الغالب، فما أحرانا أن نعيد قراءة خطابنا اللغوي لنرى كيف تعاملنا مع لب لباب هويتنا. ونتوقف على سبيل التمثيل أمام

1 نبيل علي الفجوة الرقمية، ص334

2- انظر تفصيل القول في هذه القضية في كتاب البدراني زهران ، مقدمة في علوم اللغة ، م س، ص101 وما بعده

3 أحمد مختار عمر، اللغة العربية بين الموضوع والأداة، فصول، مجلد 4، عدد3، 1984، ص143

قضية واحدة من القضايا التي نوقشت في إطار خطاب النقاء اللغوي وكيف أنه ترك أثرا لا يقتصر على اللغة فقط بل تخطاها إلى مجالات أخرى.

قضية اللفظ الأعجمي والنقاء اللغوي

من القضايا التي أثرت منذ القرن الأول الهجري ، قضية اللفظ الأعجمي في القرآن الكريم، وقد توقف القدماء أمام هذا القضية فريقين بين مؤيد ومعارض وبينها فريق يقول بالتسوية والجمع بين الرأيين:

- الفريق المعارض لوجوده في القرآن ومنهم الشافعي، والطبري، وأبو عبيدة معمر بن المثنى العالم اللغوي، والباقلاني وفي العصر الحديث الشيخ أحمد شاکر.
- الفريق المؤيد لوجود بعض ألفاظ أعجمية في القرآن ومنهم ابن عباس وعكرمة وأبو موسى الأشعري والسيوطي وجمهرة علماء اللغة واللسانيات في العصر الحديث
- فيما ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام إلى قبول الرأيين، وكذا الزركشي الذي قام في "باب معرفة ما فيه من غير لغة العرب، بعرض للرأيين السابقين دون أن يوضح إلى أيهما يميل

1»

ولم يتوقف الأمر على هذا الخلاف لأن القضية تتعلق أيضا بالدخيل والتعريب، وهو ما أوجد خلافا بين العلماء والمجمعين حول مستويات التعريب من اللغات الأخرى إلى العربية، وتشدّد مجمع اللغة العربية بمصر في هذا الموضوع: "فلم يجز إلا تعريب الألفاظ الفنية والعلمية، التي يعجز عن إيجاد مقابل لها في العربية"²

لا يعنى الباحث بتتبع هذه القضية بمختلف جوانبها، لكن ما يعنيه منها عدة نقاط أساسية في كيفية التعامل مع الأمر نوجزها في الآتي:-

أولاً : من مظاهر النقاء اللغوي ما ادعاه البعض من إنكار اللفظ الأعجمي في القرآن، رغم أنه من دلائل إعجازه، وآيات نسبته إلى الله تعالى ، فورود الألفاظ الأعجمية في القرآن دليل دامغ أنه من عند الله، كما إنه من ناحية أخرى لا يقلل من الحقيقة الدامغة من أنه نزل على الرسول الكريم بلسان عربي مبين. بل إن استخدام لفظ أعجمي في القرآن يوحي بشيوعه ومعرفة دلالاته حينها،

1 - الزركشي(بدر الدين بن محمد بن عبد الله الزركشي) البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص287: 290، وانظر تفاصيل القضية وموقف المستشرقين منها، عبد الرحمن بدوي، دفاعا عن القرآن ضد منتقديه، مجلة الأزهر، القاهرة، 2015م، ص191 وما بعدها

2 رمضان عبد التواب ، فصول في فقه العربية، ص367

هذه الرؤية سبق التوقف أمامها من خلال دراسة موقف القرآن الكريم من قضية اللغة، نضيف هنا إلى ذلك ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن "القرآن الكريم كان المدونة الأولى التي وضعت قضية الاستعارة اللغوية وأبرزت حدها ضمن اللغة العربية، كما نلاحظ أن القرآن الكريم قد استعمل عمدا مصطلحات فنية مستعارة من غير العربية عن أهم عناصره ونعني بتلك المصطلحات الألفاظ التالية: السورة، الآية... فنحن نلاحظ أن القرآن كان المدونة الوحيدة التي اعترفت بظاهرة الاستعارة اللغوية أسلوبا جديدا، ولقد دافع القرآن عن ذلك العدول بطريقتين متكاملتين: أولهما أنه لم يتخرج من استعمال الألفاظ مستعارة قد وصفها وجمعها Jeffrey. أما الطريقة الثانية فهي تبرز لنا في موقف قرآني دفاعي تكرر على الأقل ثمانية مرات ومفاده أن القرآن نزل بلسان عربي مبين (قرآن عربي مبين). إن تأكيد عربوية القرآن هو رد على مختلف أعداء الإسلام الوليد، ومنهم أعداؤه العقائديون، الذين اعتمدوا قوة الشعر ولغته، ومحتواه لمهاجمة الدين الجديد وأهم خصائصه وهو الإعجاز الذي تعتبر الإستعارة اللغوية جزءا منه"¹

كان التشدد في النقاء اللغوي للقرآن الكريم أمرا غير مبرر؛ اعتمادا على قياسات خاطئة؛ لأن القرآن ذاته يرد على التهمة في قوله تعالى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَءَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾²: فالتهمة تعتمد - على ما يبدو - على تناقض بين تأكيد القرآن على عربيته واستعماله ألفاظا أعجمية اعتبرها القرآن مجرد هدى وشفاء"³

كذلك عالج الشافعي القضية في رسالته من منظور ديني، بناه على سعة لسان العرب، مقارنة بغيره، فاللسان العربي وفقا لقوله: "أوسع الأسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي"⁴، وبالمثل تشدد أبو عبيدة معمر بن المثنى فيها حين قال: "من زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول"⁵، ثم عاد مرة أخرى ليقر أن لفظة إبليس أعجمية، فقال: "ولم يصرف إبليس لأنه أعجمي"⁶.

وقد قرأ نصر حاد أبو زيد هذه الموقف من الشافعي قراءة مؤدلجة، فرأى أن موقفه من مشكل وجود الأجنبي في القرآن وفي اللغة موقف وسطي تلفيقي يقع بين طرفين: يذهب أحدهما إلى وجود ما كان في الأصل أجنبيا من الألفاظ في القرآن، وهذا هو اتجاه كثير من مفسري التابعين وعلى

1 محمد رشاد حمزاوي، العربية والحداثة، دار الغرب الإسلامي ط2، تونس 1986، ص142.

2 فصلت/ 44

3 محمد رشاد، العربية والحداثة، م س، ص142

4 الشافعي، محمد بن إدريس، الرسالة، ص63، سلسلة تقريب التراث، مركز الأهرام للترجمة، القاهرة 1988، ص63

5 أبو عبيدة عمر بن المثنى التميمي، (ت210هـ)، مجاز القرآن، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد فؤاد سركين، مكتبة الخانجي، القاهرة ج1/ ص17: 17

6 أبو عبيدة عمر بن المثنى، مجاز القرآن، السابق، ج1/ ص38

رأسهم عبد الله بن عباس... والاتجاه الثاني ينكر إنكارا تاما وجود ذلك في القرآن، لا على طريقة الشافعي، بل على أساس وجود الأجنبي يتناقض مع وصف النص لنفسه بأنه عربي، وبأنه بلسان عربي مبين، أما طريقة الشافعي الوسطية التلفيقية فتذهب إلى أن هذه الألفاظ محل الخلاف هي من الألفاظ التي تتفق فيها لغات وألسنة مختلفة، دون أن تكون قد انتقلت من لسان أمة إلى لسان أمة أخرى، وتبدو التلفيقية واضحة في محاولة التوسط بين الاتجاهين على غير أساس، وهي بذلك تختلف عن الوسطية التوفيقية الحقة، التي تعتمد على رصد الحقائق التاريخية وتحليلها¹، وقد ربط أبو زيد موقف الشافعي هذا بناء على انحياز أيديولوجي للسان قريش، ولم يكن دفاعه عن نقاء لغة القرآن من الأجنبي الدخيل دفاعا عن اللسان العربي فحسب، بل كان بالإضافة إلى ذلك دفاعا عن نقاء لغة قريش وسيادتها وهيمنتها على لغات اللسان العربي²، ونحن نرى أن الشافعي يمثل اتجاها حسم أمره فيما يتعلق بأمر الأجنبي، ولم يسعى إلى أي نوع من الوسطية التلفيقية، إذ إن الوسطية في هذا الأمر تقف بين الرفض والإيجاب على النحو الذي ذكره نقلا عن أبي عبيد القاسم بن سلام، ووصف وسطيته بالوسطية الحقة، فقد حسم الشافعي رأيه ولم يتخذ موقفا وسطا بحال لننسبه إلى التلفيق أو التوفيق، ذلك أن التلفيق غير وسطي بحال، ولا تعبر عن موقف ما، نعم ربما بنى رأيه على منظور ديني مستدلا بآيات الله المتواترة عن القرآن بوصفه لسانا عربيا مبينا، فهو "يتعلق بنصوص تلك الآيات ولا يرى داعيا إلى تخرجها لغويا ولا تاريخيا ولا اجتماعيا"³ ويبدو أن رأيه الدينية ونظرته إلى ظاهر النصوص الكريمة دون ربطها بسياقات إنتاجها هو ما قاده إلى هذا القياس، لكن في الوقت نفسه من الصعب أن نحمل هذا الرأي ما لا يحتمل مما ذهب إليه أبو زيد من أنه شكّل منطلقا لتحقيق السيادة القرشية رغم صحة ما توصل إليه فيما يتعلق بتأثير وجهة نظرة اللغوية على توجهاته الفقهية مقارنة بأبي حنيفة ذي الأصول الفارسية. ومن ثم يمكن القول إن نظرة الشافعي المتحيزة للعربية هي ما أوقعته في خطأ القول بالنقاء اللغوي، رغم أن الواقع الفعلي للغة عموما يخالف ذلك، في مقابل نجد أن النظر للقضية من وجهة نظر لغوية ينسف رأي الفريقين، ذلك أن من طبيعة اللغات الاستعارة والإعارة، فهو من قبيل التلاحح المحمود والضروري، وليست العربية بدعا بين اللغات في هذا الأمر، ولكن وجود اللفظ الأعجمي في القرآن ورغم ما آثاره المستشرقين لم يكن مدخلا للغمز في عروبة القرآن من قبل المشركين الذين لم يجدوا وصفا أو اتهاما إلا وألحقوه بالرسول الكريم، فنفهم من ذلك أن ما ورد في القرآن من ألفاظ أعجمية تم تعريبها للتنفق مع الأوزان العربية كانت مفهومة من قبل العرب، أي أنها دخلت العربية قبل

1 نصر حامد أبو زيد، الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية، سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1992، ص3.

2 نصر حامد أبو زيد، السابق، ص15

3 محمد رشاد حمزاوي، العربية والحداثة، م س، ص145.

نزول القرآن، ويبقى السؤال الأكثر أهمية هو لماذا يلجأ القرآن للفظ أعجمي وهناك ما قد يناظره في العربية الشديدة الثراء؟

هنا نقف مع معجزة قرآنية جديدة جلها الله على يد أحد الباحثين، حيث يرى رؤوف أبو سعدة في كتابه القيم (من إعجاز القرآن العلم الأعجمي في القرآن مفسرا بالقرآن، وجه في إعجاز القرآن جديد)¹ أن القرآن الكريم في تعامله مع الألفاظ العجمية وهي من بيئات وحضارات مختلفة، كان يقوم بتفسير المعنى الدقيق لكل اسم أعجمي ورد في ثنايا الآيات، وهي ذات أصول مختلفة مصرية ويونانية وعبرية وآرامية، وهو بذلك ينسف أوهام المستشرقين حول الاستعارة من التوراة، أو الإنجيل، إذ إن القرآن الكريم يخالف ويصوب ويتحدى الكتب السماوية السابقة فيما يخص العلم الأعجمي، باعتباره شاهدا عليها فهو يصدق منهما ما صدق، ويصوب ما وقع فيهما من خطأ. وحدد أبو سعدة طرائق تفسير اللفظ الأعجمي في القرآن بالقرآن فيما يلي:

1. التفسير بالتعريب
2. التفسير بالترجمة
3. التفسير بالترادف
4. التفسير بالمشاكلة
5. التفسير بالمقابلة
6. التفسير بالسياق العام

ولسنا في معرض التمثيل على كل نوع من هذه الأنواع، إذ إن كتاب أبي سعدة يتناول عشرات الأسماء لأنبياء وملائكة وأمثلة عرض لها بمنهج واضح يجعلها بحق معجزة قرآنية جديدة، وهو جدير أن تُقرر أجزاء منه في معاهدنا ومدارسنا، وتزداد قيمته من كونه يمثل خطابا علميا ولسانيا مقارنا متفردا لم يتصلب عند آراء النقاء اللغوي كما رأينا لدى بعض القدماء وقلة من المحدثين، ولم يتبع آراء المستشرقين أو تلفيقاتهم ومن لف لفهم في هذا الشأن، ومن ثم كما أكد على عظمة القرآن الكريم وصدقه، أكد أيضا أن اللغة العربية يسير عليها ما يسير على اللغات الأخرى من قوانين التطور والتلاحق والاستعارة. ليتحول العلم الأعجمي من مدخل للغمز إلى برهان على الصدق ومن كوة للتقول على القرآن إلى طاقة نور تشع باليقين. بل إن القرآن الكريم من خلال ما طرحه كتاب أبي سعدة يمثل منهاجا متفردا للتعامل من الأعجمي والدخيل خاصة أن قضية التعريب التي تمخضت بالأساس مع احتكاك العرب بمن حولهم وشيوع اللحن، تضرب لغتنا العربية بعنف، في مقابل تقصير واضح من

1 رؤوف أبو سعدة، من إعجاز القرآن (العلم الأعجمي مفسرا بالقرآن)، دار الهلال، القاهرة 1994م

المجامع اللغوية، خاصة مجمع القاهرة وما تمخض عنه من عدم استقرار آليات وقواعد للتعريب ناجزة يتم الأخذ بها على مستوى المجامع اللغوية المختلفة، ولم تستطع المجامع العلمية معالجة هذه المشكلة معالجة حاسمة، فهي تنتظر حتى يشيع اللفظ الأجنبي على كل لسان وتستخدمه العامة والخاصة، ثم تقوم قيامة المجمع العلمية، وتحاول أن تبحث عن لفظ عربي بديل، وبذلك يولد اللفظ ميتا، لاشتتار اللفظ الأعجمي وشيوعه على الألسنة¹، فحركة اللغة أسبق بخطوات من جهود المجمعين والعلماء، وقد أسهم عصر الصورة والاتصالات في سيولة هذا الألفاظ وسهولة تداولها بصورة صعب معها الضبط ولم تعد عملية إيجاد البدائل أمرا ذا بال، إلا إذا كان دخول اللفظ الأجنبي مواكبا له في الوقت نفسه لفظا عربيا يتم تسويده، لكن الخطاب المتشدد وخطاب رد الفعل الذي سبق وصفه - رغم حسن نوايه - ضره أحيانا أكثر من نفعه. وقس على ذلك كثيرا من القضايا حتى لنلاحظ أن التشدد انتقل إلى المجامع اللغوية مما جعل عملية التعريب وبناء المصطلحات تتأخر ويولد كثير من مصطلحات المجامع ميتا، إضافة إلى فراغ معجمي شبه تام. وبناء على ما سبق يمكن رصد خصائص خطابنا اللغوي التقليدي فما يلي:

1. خطاب انفصالي على مستويين عن وعيه الذاتي وعن الوعي العام، نتيجة لسجنه عقله في مقولات جامدة أو غير فاعلة حياتيا أو لغويا
2. سلفي، ونقصد هنا السلفية اللغوية، أي معالجة ذات القضايا التي عالجه السلف دون إضافة تذكر أو دون ربطها بالهم الأنبي والمعاصر لغويا، فإذا كان الخطاب السلفي - دينيا- يقوم على مبدأ العودة إلى الماضي، إلى زمن الوحي وزمن حافظي الوحي الأوائل، والسعي إحياء خطاب قديم، ومفهوم الإصلاح لديه يقوم على الرجوع إلى الأصل وبعثه وهو ما يمثل خلاصة الدعوة النهضوية السلفية؛ إذا كان ذلك كذلك فإن السلفية اللغوية؛ نتيجة لاختلاف طبيعة اللغة عن الدين، لا يمكنها أن تحمل نفس الدعوة بالعودة إلى الوراء لغويا، بحكم طبيعة اللغة، ومن ثم تلجأ لمعالجة الإشكاليات القديمة التي سبق طرحها، فهي تناقش قضايا من مثل: أصل اللغة وهل هي إلهام أم اصطلاح، ولغة أهل الجنة ولغة آدم، وأي اللغات أسبق،
3. خطاب فوقي متعال يقوم على الطنطنة الخطابية، ويعتمد على أبجدية جامدة في معالجة ما هو موار بالفاعلية شئنا أم أبينا.
4. خطاب رد الفعل، فهو ينبري لمعالجة قضايا اللغة حين يجد طرحا من المعسكر الآخر، ليعود مرددا ما سبق ترديده دون إضافات تذكر، ويستخدم نفس الأدوات برّد الافتراءات

¹ رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، م س، ص 368

- والشبهات اللغوية بأن يكيل الاتهامات لمردديها من أهل التبعية والاستلاب، نحو ما نجده في الربط بين بعض المفكرين العرب المسيحيين ودعاوى اللاتينية والعلمية.
5. يفنقر للنقد الذاتي وإعادة فحص فرضياته وتصوراتهِ، ذلك أن الذي يمارس النقد الذاتي يكون قد تحرر سلفاً من وهم مزمن هو وهم امتلاك الحقيقة¹.
6. خطاب أسطوري، يخرج بالثقافة اللغوية عن جادة الصواب إلى قضايا يصعب الفصل فيها دون أن تضيف جديداً أو تغيراً واقعاً لغوياً مأزوماً.

1 عبد الإله بلقزيز، نهاية الداعية، الممكن والمتنع في أدوار المثقفين، ط2 الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت 2010، ص61، 62

المبحث الثالث خطاب التبعية والاستلاب

في مقابل خطاب الغلو، وما تمخض عنه من جمود في العقل اللغوي العربي، نجد خطاباً آخر أشد خطورة هو خطاب الانسلاخ والتبعية، إذ ينطلق مروجوه من خلفيات إيديولوجية تختصم مع كل ما هو إسلامي وعربي، وطرفاه من المستشرقين المتطرفين حيناً ومن تابعيهم من دعاة التغريب من العرب، وقد تجلى هذا الخطاب في مراحل مختلفة وبأشكال عدة، وفقاً لسياقات اجتماعية وثقافية متنوعة. ورب قائل إن دعاوى العامية - مثلاً - قد انحسرت، في ظل مقاومة واعية وإدراك عدد كبير من المفكرين العرب آنذاك، لكن مثل هذا النوع من القضايا لا ينتهي نهاية مبرمة وإنما يأخذ أشكالاً أخرى، لعل أبسطها زعزعة الثقة، ثقة العربي في لغته، ولعل ذلك واضحاً في تيار ينتصر للغات الأجنبية على كافة المستويات، ويعطيها الأولوية في مختلف مجالات الحياة. فهذه إحدى ثمار ما أثير ونتيجة من نتائجها المباشرة.

لقد نشأت دعاوى العامية واللاتينية وترعرعت في عصر النهضة والاستعمار، وكانت حركة الاستشراق هي حربتها التي تمسحت بالعلمية ووجدت من يتبعها إما بحسن نية أو سوء نية، وقد واكب التشوه الحادث في البنى الاقتصادية والإنتاجية تشوّه مواز ومشابه، وربما أخطر وأعمق في هياكل المجتمع العربي الثقافية، وفي مقدمتها اللغة العربية. "ومن مؤشرات هذا التشوه ذلك الدور الهامشي الذي يعطي للغة العربية اعتبارها وسيلة تعليم وتعلم أو وسيلة تعامل يومي" 1 وكان رينان * من أوائل من درسوا اللغات السامية، بيد أن دراساته كانت ذات وجهة عنصرية، كما إن دراسته للغات السامية كان المقصود بها المساهمة في تطور علم اللغة الخاص باللغات الهندية الأوروبية وفي التفريق بين ضروب الاستشراق. كان يرى أن اللغات السامية تمثل شكلاً منحطاً بالقياس إلى تطور اللغات الهندية الأوروبية، وكان يقصد الانحطاط الأخلاقي والبيولوجي، أما بالنسبة لضروب الاستشراق فكانت اللغات السامية تمثل له شكلاً ثابتاً - إن لم يكن الشكل الوحيد - للانحلال الخلقي

1 أحمد حسين حسنين، لغة التعليم وتأثيرها في الهوية العربي، دراسة ميدانية على عينة من الطلاب المصريين في ظل أنظمة تعليمية متباينة، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي إشكاليات التعليم والترجمة والمصطلح، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت 2013، ص 343

* ربط رينان بين العرق واللغة وعلى أساسه رأى أن مسيرة الشعوب الآرية على نقيض تام مع مسيرة الشعوب السامية، حيث كانت غريزة التوحيد في رأيه تطبيقاً لمبدأ عام هو شخ الخيلة واللغة وهو سبب آخر لانعدام روح التطور وطفولتها الأبدية. وقد اتخذ من الربط بين اللغة والعرق مدخلاً للغمز واللمز على العربية، وجعل من العبرية لغة لأهل الجنة، انظر موريس أولندر، لغات الفردوس، آريون وساميون: ثنائي العناية إلهية، ت جورج سليمان، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة 2016، الفصل الخاص بأرنست رينان، ص 131، ما بعدها.

1 ، وظلت الدعوة إلى العامية مرتبطة بالاستشراق، إذ أصبحت من أهداف المستشرقين الأساسية، كذلك هاجموا الحرف العربي زاعمين أنه حرف معقد وهو عامل في حجب الفكر والأدب الحقيقي عن التطور ، وما تعللوا به هو أن اللغة الفصحى هي التي عاقت المصريين عن الاختراع على نحو ما ذهب ويلكوكس، وأن اللغة العربية ماتت بسبب جمودها وصعوبتها، ومنهم الذين دعوا إلى العامية، وذهبوا إلى أن اللغة العربية الفصيحة فقيرة في المعاني الجديدة والمصطلحات العلمية وغناها بالمعاني والمسميات القديمة، إلى غير ذلك من دعاوى، وإن كنا نعرف بطلانها وتهافتها، لكن الواقع الفعلي لأهلها هو ما يجعلها عرضة لكل هذه التهم والافتراءات.

ويمكننا ملاحظة أن معظم الداعين العرب إلى هذه الدعوة من غير المتخصصين في الدراسات اللغوية، كما نلاحظ أيضا- وهذه مفارقة أخرى- أن كثيرا منهم في إنتاجه العلمي أو الأدبي يكتب بالفصحى، فعلى سبيل المثال سعيد عقل يعد شاعرا عموديا أصيلا في قصائده، رغم دعواه، كما إن كثيرا من كتابات سلامة موسى ولويس عوض جاءت على خلاف ادعاءاتهما، فكانت فصيحة في مجملها، وهذا ما يؤكد لنا أمرا يخص طبيعة هذا الخطاب المتناقض مع ذاته ومع هويته. أنه يطرح ما لا يفعل ويقول ما ينقضه ويناقضه في آن.

إن الأسماء التي طرحت موضوع استخدام العامية تارة، واللاتينية تارة أخرى عديدة، ولا تني دعواهم من الظهور بين حين وآخر، وإن كانت واضحة بينة في النصف الأول من القرن العشرين، في ظل التبعية الفكرية للغرب، فكان الطرح دائما يأتي مع من تماس معه أو تأثر به، ونذكر من هؤلاء يعقوب صروف، قاسم أمين، يعقوب صنوع، رفاعة الطهطاوي، وليام ويلكوكس، كارل فولرس، سلدن ولمور، اللورد دفرين البريطاني، أحمد لطفي السيد، عبد العزيز فهمي، سلامة موسى أنيس فريجة، لويس عوض، أنطوان مطر، سعيد عقل، وغيرهم ممن كان هجومهم على اللغة الفصيحة يأخذ أشكالا عدة، معظمهما يدخل في إطار الأفكار المتعجلة التي لا تجد لها سندا من الواقع، وإنما طرحت بشكل عابر أحيانا وعضدها التطبيق أحيانا، ومثال ذلك تأليف كتب في العامية المصرية وقواعدها، على نحو ما فعل ولهم سبيتا في كتابه قواعد اللغة العامية في مصر 1880 و كارل فولرس في كتابه اللهجة العربية الحديثة 1890، وكتب وليم وباروت² ،

1 إدوارد سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ت محمد العناني، دار رؤية القاهرة 2006 ص 236

2 انظر تفاصيل الدعوة للعامية، نفوسة زكريا سعد ، تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، ط 1 1964، دار نشر الثقافة - الإسكندرية، ط 1 ص 10: 71

والدراسات الموسعة للمستشرقين للهجات العربية، والسعي لاستبدال الحرف اللاتيني بالعربي وهو ما عرضه عبد العزيز فهمي على مجمع اللغة العربية 1944م ، أو دعوة لويس عوض لترجمة القرآن للعامية، وغيرها من المحاولات التي لم تلق نجاحا يذكر في وقتها، وإن ظهرت آثارها مع تردي حال اللغة العربية على ألسنة أهلها وتراجع مساحتها الفعلية في عقل العرب وقلوبهم واستعمالهم، ويمكننا أن نصف هذا الخطاب المغالي في التبعية للغرب بالآتي:-

1. خطاب تقليدي مؤدلج، يقوم على محاكاة التجارب دون وعي بآثارها، فمقترح عبد العزيز فهمي صدى لما فعل أتاتورك بتركيا بعد زوال الخلافة العثمانية، كما إن دعوى لويس عوض لترجمة القرآن جاءت تقليدا لما تم مع الكتاب المقدس، ولا شك أن القياس بين الكتابين خاطئ، إذ شتان بين نص متواتر ممتد موثوق في صحته، وآخر لم يبق منه إلا ترجمات منبئة عن الأصل لغة وتاريخا.
2. يمارس خطاب التبعية نوعا من القياس الخاطيء، كقياس علاقة الحضارة الأوربية بالإنجيل والأمة العربية بالقرآن، ولم يعد الأمر قاصرا على التقعيد للعامية، أو الدعوة لها ولا تعليم اللغات الأخرى ومحاولة تسييدها بل الإشكالية الكبرى في رأى الباحث يتعلق بشعور العربي ذاته حيال لغته وموقفه منها ونظرتها لها إما بالتقديس أو الاستهانة، وكلا الأمرين له خطورته، فمن الحب ما قتل. ومن ثم لا بد من التحول من التقديس الصوت المفرغ من مضمونه إلى التقديس بالفعل والقوة من خلال وعي لغوي على كل المستويات على أن يكون الوعي اللغوي هو الوعي الأساس، لا لمجرد تعلم اللغة وإنما للارتباط بها بعاطفة متقدة وبمعرفة قضاياها ومشكلاتها والاعتزاز العملي بها من خلال معالجة ناجزة لقضايا تعريب التعليم والازدواجية وحدوده والثنائية وبيان مخاطرها.
3. خطاب متناقض مع ذاته، إذ نجده يطرح الفكرة ولا ينفذها، ويكتفي من ذلك بإثارة البلبلة والشك حول طبيعته. وإن كان في الوقت نفسه يحرك وعي الطرف الآخر الذي يدافع عن اللغة العربية، وإن أخذ الدفاع طابعا سجالي تشككي، في معظم الأحيان، خاصة في بدايته، وذلك على نحو ما نجده في دفع محمد شاکر ومصطفى صادق الرافعي والعقاد وغيرهم¹

¹ أخذ الخطاب شكلا علميا في دراسات متخصصة بعد ذلك منها على سبيل المثال: تاريخ الدعوة للعامية في مصر لنفوسة زكريا 1964، ودراسة الازدواجية اللغوية باعتبارها ظاهرة لغوية عالمية على نحو ما قام به إبراهيم صالح الفلاي 1994. ثم تبعتها دراسات عديدة لكثير من اللسانيين العرب

4. خطاب تبعي، يقوم على اتباع دعاوى المستشرقين، بوعي وبدون وعي، رغم معاناة المناهج الاستشراقية المتمثلة في انفصالها عن البيئة الشرقية لغة ودينا وثقافة وتقيدها ببيئتها الثقافية والدينية والإيدلوجية المحركة لها.

5. خطاب اختزالي تشويهي بمعنى أنه يختزل المعلومات والقضايا ويضعها في سلة أسباب واحدة، كأن تختزل قضايا التأخر والتخلف في اللغة العربية وأبجديتها، وهو خطاب تشويهي بمعنى أنه يخلط المناهج المختلفة للوصول إلى نتائج محددة سلفا بدعوى العلمية، لتحقيق أغراض لا تمت إلى العلمية بصلة.

6. خطاب يفتقر إلى النقد الذاتي أو المراجعة، وإن حدث ذلك فإنما يتم باختيار بديل غربي بأخر غربي، ولا عجب أن يتقلب سلامة موسى الذي نرصد خطابه التبعي المستلب بين مذاهب غربية عدة، انطلاقاً من رفضه التراث بكل مكوناته.

ويحمل لواء هذا الخطاب كثير من العرب ممن ارتبطوا بالغرب عاطفياً وفكرياً، ممن يدعون التنوير ولا يحملون منه سوى اسمه، فهم" من هذا النوع الذهني، شبه العلمي وهو ليسوا مثقفين بمعنى احتواء الوعي العام لناسهم في زمانهم، ولا هم علماء بالمعنى الغائي الإنساني للعلم"¹، ومن العجيب أن يدخل إلى حوض اللغة العربية من هو غير متخصص في علومها أو دارس لتاريخها، أو دينها، فلويس عوض متخصص في الأدب الإنجليزي، وسلامة موسى متبنٍ لكل ما هو غربي فكراً وثقافة، وشريف الشوباشي أبعد ما يكون عن اللغة وعلومها، ناهيك عن سابقهم من المستشرقين، ممن أثاروا كثيراً من القضايا التي تمس العقيدة واللغة بصورة فجّة وبكثير من الافتئات.

كانت تلك الحفريات التي قام بها ويلكوكس، ويلمور وسبيتا وغيرهم مقدمات لمخطط الاستشراق بالنسبة للغة العربية الذي لم يلبث أن ظهر جلياً على أبدي جماعة المستشرقين في العالم والذي تكشّف صريحاً في الدعوات التي دعا إليها لويس عوض وكولان وبروكلمان، رغم أن كتاب فقه اللغة العربية الذي ألفه عوض غير المتخصص في اللسانيات قد أثار من الزوابع بسبب مصادرتة أكبر من قيمته العلمية الحقيقية، خاصة أن الأساس النظري الذي أقام عليه المؤلف هذا الكتاب محل شك كبير، هذا أولاً، وثانياً أن هذا الأساس النظري ليس إلا استعارة من

¹ يحيى الرخاوي، مراجعات في لغات المعرفة، م س، ص 107

الآخرين في أغلب الأحوال، والكتاب غاص بالأمثلة التي تدل على أن محصلة المؤلف من المعرفة اللسانية دون المستوى.

وفي مراحل تالية أخذ خطاب التبعية والتقليد للغرب صوراً أكثر خطورة وأشد خفاءً، فما كان يظهر للعيان من مجابهة دعاوى العامية أو استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية في عصر النهضة، وهو ما استنقر المنافحين عن العربية ودورها؛ صار يتم دون عناء أو مجاهرة، ودون دعاوى صريحة أو مباشرة، وإنما أخذ طابعا خفيا يتم من خلال تقليص مساحات الفصحى على مستويات مجتمعية تعليمية وإعلامية وسياسية بل ودينية أيضا، فلم تعد دعاوى العامية تتم بشكل رسمي ولكن السلوك الموضوعي كثيرا ما يمهد لها السبيل¹، كما يقول المسدي، ولأن اللغة هي مرايا الهوية ووسيلة أساسية في تحقيق الهوية الفردية و الجمعية ومن خلالها يتحقق الوصل التاريخي وربط الماضي بالحاضر؛ لذلك نجد أن محاولات الغض من هذا اللغة والتقليل من شأنها في نظر مستخدميها كفيلاً أن تُحدث البلبلة والتشتت، خاصة في أذهان الناشئة ويوقعهم في إشكالية التذبذب النفسي في علاقتهم بلغتهم الأم، ولنضرب الأمثلة التالية؛ لنقرأ من خلالها آليات هذا الخطاب التبعية المستلب باسم العلمية تارة، وباسم النهضة والتقدم تارة أخرى:

1- شريف الشوباشي وسقوط سيبويه

يعد طرح شريف الشوباشي في كتابه **لتحيا اللغة العربية ويسقط سيبويه**²، نوعاً من الخطاب المكرور حول قضايا يُعاد طرحها بين حين وآخر مثل: قدسية اللغة وظاهرة الإعراب واعتماد الشوباشي على قراءاته في هذه القضايا وآراء السابقين فيها، إلا إن الإشكالية الأساسية في الكتاب الذي لا يحمل أطروحات فكرية مستحدثة أو آراء جريئة لغويا، بل إنه في معظم الكتاب يدافع عن اللغة ويدعو إلى تطويرها بما يناسب روح العصر؛ أقول إن الإشكالية هي العنوان الصادم التي حرص عليها الكاتب، وهو سقوط سيبويه، الذي لم يذكر في الكتاب مرة واحدة، وإن استخدم على سبيل الرمز بوصفة سلطة صلبة مستبدة ومتجمدة، وهذا ما فهمه من هاجموا الكتاب، ولكن استخدام الرمز بطريقة إعلامية فجأة ذات علاقة بتوزيع الكتاب والبحث عن الشهرة، فهو في الحقيقة لم يقدم حولا لأزمة اللغة العربية، في نفس الوقت الذي لم يخرج عن التيار العام القلق عليها خوفاً من الإزدواجية اللغوية والتثنائية وطغيان العجمة على أبناء الضاد.

1 عبد السلام المسدي، الهوية العربية، والأمن اللغوي، دراسة وتوثيق، م س، ص 264

2 شريف الشوباشي، لتحيا اللغة العربية ويسقط سيبويه، ط 3 مديولي الصغير، القاهرة 2004م

فالكتاب غرضه "إعلامي أكثر من علمي، هجومي وصدامي أكثر منه وسطي، يتذرع بحب العربية في العلن ويطعنها في الخفاء، فهو خطاب تلفيقي لا يقوم على أساس، وربما كانت مسألة صعوبة العربية ناتجة من تصور أن اللغة العربية الفصحى هي النحو فقط وهذا وهم أضر باللغة... كما أن الشوباشي حمل على علماء العربية دون مناقشة آرائهم بتهم جاهزة من مثل التحجر والجمود حراس الماضي التخلف، سوء الفهم، عدم الوعي"¹، واتهاماته هذه خصيصة من خصائص خطاب الاستلاب والتبعية، فهي تقف دائما تحت شعار العلمية، وتطلق اتهامات معلبة بالتخلف والسلفية والجمود لكل من يخالفهم الرأي، وإذا كنا نأخذ على الخطاب التقليدي طبيعته التكرارية في إعادة التساؤل وإعادة طرح القضايا، فإن خطاب التبعية أيضا ذو طبيعة تكرارية، حيث يردد اتهاماته للأخر دون سند ويصمه بالتخلف دون دليل.

ومن مثالب كتاب الشوباشي توخيه للسخرية ووصم العربية بما لا دليل عليه، حيث يتهمها بالمبالغة والتهويل ويعيد قراءة قصائد عربية من العصر الجاهلي وغيره، في تأثر واضح بنسبية وورف وسابير، ويضرب بعرض الحائط بنتائج علم اللغة التقابلي، ورغم أنه أمسك بإشكالية صحيحة هي التناقض بين حب العربي للغة العربية وتخليه عنها في الوقت نفسه، إلا إن الأسلوب الإعلامي وحب الظهور أطيح بكل آراءه السديدة، حين غلفها بنبرة تهكمية لا تليق، وخلط حقًا بباطل.

2- اللغة العربية ضد المرأة

من الاتهامات التي يتبناها بعض الغربيين ومن تابعهم أن اللغة العربية لغة عنصرية تتحيز ضد المرأة، وهذه النظرية لها جذورها في الفكر الغربي فيما يعرف بالنسبية اللغوية، وقد طرحها وورف- ساابير وأساسها المنهجي أن اللغة تحدد بدرجة كبيرة طريقة تفكيرنا، وأن اللغة وفقا لهذا التصور أشبه بسجن ثقافي لا يستطيع المرء الخروج منه . ويركز وورف على دور التراكيب النحوية في صياغة رؤية المرء للعالم"² ، وقد سادت هذه النظرية فيما يعرف بالنسبية اللغوية يسخر منها غاي دويتشر بقوله، " ولم تكن بفكرة جديد - فقد كانت في حالتها غير المصقولة لأكثر من قرن- بيد أنها استخلصت في الثلاثينات من القرن العشرين لتتحول إلى خدعة جبارة أسكرت جيلا كاملا أطلق على تلك الفكرة قاعدة النسبية اللغوية جاعلا منها شيئا مقاربا لنظرية

1 محمد محمد داود، دموع الشوباشي بين يدي سيويه، ص34

2 نقلا عن عماد عبد الطيف، البلاغة والتواصل عبر الثقافات، الهيئة العامة لتصور الثقافة، القاهرة 2012، ص83

أينشتين التي هزت العالم"¹ ، كما يصف غاي قصة النسبية اللغوية أنها تاريخ مخز، أما سيليفان أورو فيصفها بالعنصرية اللسانية، إذ يقول " هناك عنصرية عندمل تفسر الاختلافات بين اللغات كاختلافات في الوضع الفكري والروحي"²، وجدلا نفترض أن هذه النسبية صحيحة، فليس العيب في نظرية وورف رغم تهافتها، إنما العيب فيمن يتلقف مثل هذه الآراء باعتبارها مسلمات علمية، ويطبّقها دون تروٍ لغرض في نفسه، فقد قاد البعض هجوما على العربية ووصفها بالعنصرية، بسبب تمييزها العنصري على حد زعمه بين المذكر والمؤنث وحطها من شأن المرأة بخلاف اللغة الانجليزية التي تتساوى فيها الإحالة على المذكر والمؤنث، حيث تقدم نموذجا راقيا لديمقراطية المجتمع الغربي الانجليزي التي تنعكس على بنيته اللغوية"³

إن مثل هذه الآراء تدخل في باب العنصرية اللغوية، ولا تقوم على أساس علمي، وبدأ في الإنحسار علميا، مع ظهور دراسات حديثة، " تمّ إعادة صياغة المفاهيم بالجنس إلى مدى مهمّ. لقد بدت أتا ظاهرة أقلّ ثباتًا ووحدة أكثر منها حتى الآن. وكذلك الدراسات التي تؤكّد أو على الأقل تُقرّ بالتنوّع المتغيّ بين الناطقين من الذكور والإناث، علاوة على أهميّة السياق في تحديد كميّة استخدام النّاس للغة. ومن خلال هذا النّهج كان قد ظهر الجنس على أنّه أقلّ كميّة تؤثّر على استخدام اللّغة، وأيضًا كشيء يمثّل أو يناقش، أو ربّما يتمّ التنازع عليه"⁴

ولعلنا نشير في هذا المقام إلى أنه إذا كانت المرأة العربية حين تدخل مملكة الفصاحة تتخلى عن تاء التأنيث - كما في كلمة زوج- فإن المرأة الغربية لا تكون زوجة إلا إذا تنازلت عن اسمها وعلامة وجودها وتكبلت باسم زوجها لكي تكون جزءا من ممتلكاته المسجلة باسمه والمتحركة تحت مظلتها، وهي بهذا لا تتخلى عن علامة لغوية فحسب ولكنها تكسر صلتها بماضيها، وسجل وجودها من أجل أن تكون زوجة، إن الحالة العربية حالة فصاحة فحسب، أما الحالة الغربية فهي حالة إلغاء تام من جهة وإدماج تام من جهة ثانية"⁵ ، ويدلل الغدامي على الغياب التام للأنثى في الذكر في اللغة الانجليزية، فطالما نحن في دائرة المساجلة فيلبدل كل ذي لسان على ديمقراطية

1 غاي دويتشر، عبر منظار اللغة لم يبدو العالم مختلفا بلغات أخرى، ت حنان عبد المحسن مظفر، عالم المعرفة، ع429 الكويت، أكتوبر، 2015، ص151

2 سيلفان أورو وآخران، فلسفة اللغة، ترجمة، بسام بركة، المنظمة العربية للترجمة ط1 بيروت 2012، ص511

33 محمد نافع العشري، مفهوم اللغة ومفهوم الهوية ومظاهر التفاعل، عالم الفكر، ع4/ مجلد 43، أبريل، يونيو 2014 ص245

4 جون سوان وآخرون، معجم اللغويات الاجتماعية، ت فواز محمد راشد، عبد الرحمن حسني، مركز الملك عبد الله بن عبد الملك الدولي لخدمة اللغة العربية، الرياض 2019، ص207

55 عبد الله الغدامي، اللغة والمرأة، المركز الثقافي العرب، ط3 بيروت 2006م، ص22.

لسانه، وفي هذا الإطار يطرح الغدامي هذا المثال قائلاً: "وفي اللغة الانجليزية ليس للمرأة من وجود إلا داخل مصطلح الفحولة، وللنظر في هذه الكلمات:

wo-man

Man

Hu- man

Man- kind

حيث تطون المرأة مجرد إضافة لفظية إلى الرجل، ولو حذفنا كلمة رجل (man) لضاعت وسائل المرأة من الوجود في اللغة، وكذا مصطلح إنسان Hu- man ومصطلح بشرية Man- kind¹، إن اللغة العربية شأنها شأن غيرها من اللغات ليست متحيزة للذكر ضد الأنثى أو العكس، كما إن "التحريرات حول العلاقات المحتملة بين تركيب المجتمع وتركيب النظام النحو لا تزال في مرحلتها الجنينة"²، وقد رصد أحد الباحثين ثلاثة أسباب لهذه الظاهرة:

1- عدم الاعتراف باعتبارية العلامة، ويقضي هذا المبدأ أن وجود علامة التأنيث في الوحدات التي تدل على المؤنث لا يمكن تعليلها أبداً بأي شيء يتجاوز القول بأنها إنما وجدت للتمييز بين صيغة المذكر وصيغة المؤنث فحسب.

2- القول بأن هناك ارتباطاً ضرورياً بين اللغة والفكر: وهو ما يقتضي القول بأن اللغة مرآة لفكر متكلميها، فوجود ظاهرة لغوية يمثل دليلاً على وجود بعض الارتباطات بين هذه الظاهرة والبنى الفكرية.

3- القول بأن لكل واحد منا أسلوباً واحداً يميزه عن غيره، وما تلا ذلك من اعتقاد أن للنساء أسلوباً مختلفاً عن الرجال، رغم أن هذا يخالف ما برهنت عليه الدراسات اللسانية من أن لكل واحد منا عدداً لا يحصى من الأساليب³

إن السياق يلعب دوراً رئيساً في تمييز النوع اللغوي أو إبراز ظواهره وخصوصياته، وفقاً لطبيعة الأداء اللغوي لجماعة ما، ولذا وجد أنه "دراسة ما يتعلّق باللّغة والجنس Language and

1 الغدامي، السابق، ص22

2 غاي دويتشر، عبر منظار اللغة، م س، ص257

3 حمزة المزيني، مراجعات لغوية، كتاب الرياض، ع 75، الكتاب الثاني 1420، الرياض ص102، 103.

Sex يلاحظ أنّ هويّة المثليين والسحاقيات كعمل يمكن تمثيله من خلال استخدام اللّغة في مواقف معيّنة، وليست كصفة يمكنها التأثير على استخدام اللّغة¹. وفي كل الأحوال لا يخلو التمايز اللغوي بين جماعات بعينها من هوى أو غرض.

ويضاف إلى ذلك اختلاف اللغات عموماً في نظام الجندرية أو التصنيف وفق النوع، فثمة للغات لا تعرف هذا التصنيف الذي تعرفه نادي اللغات النخبة ذات الجندر المنطقي، كنا إن عدد التصنيفات الجندرية ليس ثابتاً فقد يكون ثنائياً أو ثلاثياً أو أكثر من ذلك وقد لا يوجد بالأساس، بل إنه "في الواقع يقل عدد اللغات التي تحتوي على نظام جندي واضح وثابت، فأغلب اللغات تمتلك نظاماً جندرياً متمرداً"²، وعليه فإن بناء أي تصورات ذهنية أو أفكار حول تحيزات جندرية مع أو ضد نوع بعينه هو ضرب من الخيال غير المؤسس على الواقع اللغوي الفعلي أو نظمها القاعدية، ناهيك عن تغيير أشكال الأشياء الجندرية بين اللغات وبعضها البعض حتى وإن كانت من نفس العائلة اللغوية، وربما أظهرت بعض صيغ الأداء ما يلحح إلى ذلك عبر أطر اجتماعية بعينها لكنه لا يعكس بحال سمةً لغوية متأصلة في اللغة ذاتها. ♥

ولعل السبب الثاني - وفقاً لما ذهب إليه حمزة المزيني - يمثل مدخلاً لكثير من الباحثين للقول بأن اللغة العربية تمارس تمييزها ضد المرأة، وهو ما يمثل باباً شديداً للخطورة لإسقاط كثيراً من إشكاليات المجتمع على اللغة، بشكل مبالغ فيه، وبصورة لا تتناسب مع طبيعة الظاهرة وطبيعة اللغة، فيما يرى البعض أن "ما يقال عن ذكورية اللغة الفصحى وذكورية علوم اللغة، القديمة ومنها والحديثة أيضاً، وذكورية العلم عامة، ليست شيئاً آخر غير ذكورية السلطة المركزية وذكورية الثقافة المركزية. اللغة ليست موضوعاً محايداً للعلم، بل هي ذات وحياة." فمن العبث التفكير في لغة أنثوية مقابل لغة ذكورية، أو لغة الهامش مقابل لغة المتن، بدلاً من التفكير في كسر احتكار السلطة واحتكار الثقافة، ونقد جميع أشكال المركزية، في سبيل أنسنة اللغة وأنسنة الثقافة، والخروج

1 جون سوان وآخرون، معجم اللغويات الاجتماعية، م س، ص 224

2 غاي دويتشر، السابق، ص 220

♥ يشير غاي دويتشر إلى أنه في اللغة الألمانية لا تمتلك الفتاة جنساً، بينما لنبات الفت جنس. فما رأيك في التبجيل المفرط الذي يصبغه هذا على الفت والازدراء القاسي للفتاة؟

من الدّور أو الحلقة المفرغة في ما يسمى تناقض الذكورة والأنوثة. مسألة اللغة هنا هي مسألة الإنسان ومسألة المجتمع، ومسألة تحولات ديمقراطية يصعب الرجوع عنها"¹

إن الأمر لا يخلو من المبالغة، فليس معنى وجود ضمير للمذكر وآخر للمؤنث التمييز بينهما، تماما بالمثل ليس في عدم وجود ضمير للمؤنث في لغة ما مثل الألمانية إبخاس لها، ففي اللغة الألمانية، " لا تمتلك الفتاة جنسا، بينما لنبات اللفت جنس. فما رأيك في التبجيل المفرط الذي يصيغه هذا على اللفت، والازدراء القاسي للفتاة؟"²

وقد أخذت العلاقة بين اللغة والفكر في السنوات القليلة السابقة منحى جديدا، خلاف ما طرحه وورف- سابير، فلم يعد الأمر مجرد كون اللغة تؤثر في طريقة تفكيرنا أو أنها مرآة الفكر، إذ ثبت أن التقاليد اللغوية لمجتمعنا لها أن تؤثر على جوانب من تفكيرنا تفوق حدود اللغة ذاتها، فتأثير اللغة المثبت في التفكير يختلف كثيرا عما كان رائجا في الماضي، وبخاصة أنه لم تظهر أي أدلة على أن لغتنا الأم تفرض حدودا على آفاقنا الذهنية أو تعيق من قدرتنا على فهم مفاهيم وفروقات تستخدمها لغات أخرى، فالتأثيرات الواقعة للغة الأم هي العادات التي تتطور عبر الاستخدام المتواصل لأنماط تعبير معينة. والمفاهيم التي دُرنا على اعتبارها مميزة. والمعلومات التي تفرض علينا لغتنا الأم الإدلاء بها، والتفاصيل التي تطلب منا الانتباه إليها، والارتباطات الذهنية المتكررة التي تفرضها علينا"³

ولعل من أخطاء هذا الخطاب المستلب أنه يعلن تبعيته للغرب بصورة مباشرة حيناً وبدعو التقدم والنهوض حيناً آخر، وكان موقفه حيال اللغة العربية إبان النهضة مباشرة وقاطعا وتبعيته لآراء المستشرقين سافرة، " إن الترصد المنظم للغة العربية يتخذ شكل الحرب الصامتة تتكشف حيناً وتتقنع أحيانا أخرى، واستتارها أخطر من كشفها؛ لأنه يستنجد بسلاح المسكوت عنه، وهو أوقع في النفوس وأقدر على تملك الأعرار"⁴، فالعنف اللغوي يأخذ أشكالا عدة تستحق فعلا أن يطلق عليها في بعض الحالات الحرب اللغوية، " فإن اعتبرنا أن العنف أكبر مولد للتاريخ - وهذه فكرة ليست بالجديدة المبتكرة- فإن هذا العنف يطال تاريخ اللغات... فوجود حرب اللغات إنما هو

1 جابر الكريم الجباعي، اللغة والمعرفة والتقيّد الصدئ للحرية، مجلة الجديد (إلكترونية)، لندن ع12، ص42

2 غاي دويتش، عبر منظار اللغة، م س، ص222

3 غاي دوتش، عبر منظار اللغة، م س، ص256

4 المسدي ص 265

نتيجة لوجود التعدد اللغوي؛ ذلك أن عالماً ليس فيه إلا لغة واحدة، لا يكون فيه هذا النوع من النزاع، أما الاعتقاد بمسالمة اللغات، فوهم دفع عدداً من الناس إلى ابتداء لغات مصطنعة "1.

1- سلامة موسى وكتابه (البلاغة العصرية واللغة العربية)

لم يخف سلامة موسى في آراءه توجهه المضاد للغة العربية الفصحى سواء باتباع آراء مستشرقين من دعاة العامية مثل ولكوكس، أو آراء مصريين سابقين من أمثال: أحمد لطفي السيد أو قاسم أمين؛ أما تبعيته للأول فتتجلى في السير على نهجه في الدعوة إلى العامية، واتهام الفصحى بأنها تعوق التقدم، لذا نجده يشيد برسالة ولكوكس "سوريا ومصر وشمال أفريقية ومالطة تتكلم البونية و العربية... ويكرر تأييده لولكوكس في دعوته إلى هجر العربية الفصحى هجراً تاماً. ولكنه لما رأى الظروف لم تنتهياً بعد لتحقيق تلك الدعوة قام هو نفسه بطريقة أخرى لتحقيقها، وهي طريقة التسوية بين العامية والفصحى" ² ، ومن أوجه التسوية في رأيه:-

- 1- إلغاء الألف والنون من المثني والواو والنون من جمع المذكر السالم.
- 2- إلغاء التصغير.
- 3- إلغاء جمع التكسير كله
- 4- إلغاء الإعراب والاكتفاء بتسكين الكلمات" ³ ، فهو يرى أن يدرس طلاب المدارس الثانوية قواعد النحو ولا نبالي بالإعراب الذي أثبت الاختبار أنه لا فائدة منه بتاتا؛... والوقف في آخر الكلمات أي إسكانها هو الخطة السديدة التي يجب أن تتبع.

وهذه التسوية التي يدعو إليها موسى يقل خطرها مقارنة بالربط بين اللغة العربية والتخلف والحرب والاستبداد والتعصب ضد المرأة على النحو الذي يطرحه في بلاغته العصري، فهو يرى:-

- 1- أن العيب الأساسي يكمن في اللغة الفصحى الكلاسيكية والتي يقابلها كلاسكية اجتماعية⁴

1 وليس جان كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، المنظمة العربية للترجمة، حسن حمزة، بيروت 2008، ط1، ص29،

2 نفوسة زكريا سعد، تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، دار نشر الثقافة ط1 الإسكندرية 1964م، ص122

3 سلامة موسى، البلاغة العصرية، مركز هنداوي للنشر القاهرة، 2008، ص 116

4 سلامة موسى، السابق، ص104

- 2- أن اللغة العربية من ناحية العلوم مية، ولذلك لن نعيش المعيشة العلمية ولا يتحرك مجتمعنا التحرك العلمي¹
- 3- أنها نتاج ثقافة إقطاعية مستبدة ماضوية تنظر إلى الخلف واستخدام اللاتينية وثبة نحو النور.
- 4- مرجعيته في القياس الغرب دائما، فهو يرجع إلى فولتير ودارون باعتبار آرائهم هي الصواب والأحق وبالاتباع.
- 5- تأيد دعوة عبد العزيز فهمي في تبني الحرف اللاتيني وتعدد مميزاته، لعل من أبرزها يجعلنا نقرب نحو التوحيد البشري، فهو وسيلة القراءة والكتابة عن المتمدينين ، إزالة الحاجز النفسي بين شرق وغرب
- 6- واستمرار للقياس الخاطئ يشير إلى أن الطفل الانجليزي يتعلم الإنجليزية في ستة أشهر، مقارنة بالطفل العربي الذي يحتاج إلى أربع سنوات.²

كان سلامة موسى يرى أن تأخرنا اللغوي من أعظم أسباب تأخرنا الاجتماعي، فالعلوم لا تزال خرساء في اللغة العربية، ونحن مازلنا نقتبس عبارات عربية يعافها الذهن الذكي ومرجع تلك العبارات تلك البلاغة العاطفية الانفعالية التي تعلمناها وغرست فينا قيما مزيفة ومستعارة، وموسى في رأيه هذا ينظر بعين الغربي- وهو الذي عاش في فرنسا - الذي لا يبغي الإصلاح دون الهدم، أو الاجتثاث، فليس العلاج الناجع لتأخرنا اللغوي في ترك العربية الفصحى لعامية أو لاتينية، إنما إصلاح اللغات يكون من إصلاح أحوال أهلها. إن تبني وجهة نظر المستعمر فيما يخص اللغة ليست بالأمر الجديد، فقد أشار إليه ابن خلدون في مقدمته، وحديثه عن الأمم المغلوبة، إنما الغريب أن يأخذ خطاب التبعية والاستلاب مظاهر الحداثة والعلمية والدعوة إلى بناء مجتمع التقدم والنهضة، حتى أصبح ينظر إلى لغة المستعمر على أنها القوة الموحدة، والتذرع بحجج تبريرية تقوم على أسس اقتصادية وعلمية وسياسية واجتماعية لترسيخ الوجود الاستعماري والذوبان فيه لغة وثقافة وحضارة ودينا، فقد استخدم موسى ذات الحجج التي استخدمها من قبله المستشرقون في تأكيدهم على أن لغة المستعمر هي لغة التفانة والإبداع، وأن التمسك بها يناسب الأمم المستعمرة أكثر من لغاتها الأصلية، التي يرون أنها لا تصلح للتعبير عن لغة العلم والتقنية، وما قاله موسى قبل ستين

1 سلامة موسى، السابق، ص 79

2 سلامة موسى، السابق، ص 121

عاما ترسخ في الأذهان وصار على أرض الواقع يعضده توسع غير مسبق في التوجه نحو اللغات الأخرى، وإهمال آخر غير مسوق للغة الأم.

إن سلامة موسى في محاولته النهضوية انطلق من تبعية كاملة للغرب شملت شتى ضروب المعرفة، وخطابه خطاب تغريبي يقوم على القطيعة التامة مع التراث بكل مكوناته، وأحد أهم عناصره اللغة، فموسى " لم يتعامل مطلقا مع التراث، لم يقرأه لا بشكل سلفي ولا بشكل انتقائي، بل اتخذ منه موقفا إيديولوجيا راديكاليا"¹، هذا القطيعة يقابلها رغبة جارفة في التواصل مع الغرب والذوبان في حضارته، علميا وثقافيا، ومن ثم يمثل موقفه من اللغة الفصحى في رأينا نوعا من الوعي اللغوي الزائف، يحمل كل إشكاليات الوعي اللغوي العربي من فصامية وتناقض وتشتت على النحو الذي سنراه في فصل تال، هذا الوعي كان كفيلا بإنتاج هذا الخطاب التبعية المستلب الذي تنطق فيه الذات بصوت غيرها الذي تلبسها بالكلية، فمن ذلك أننا نجده قد التزم في مجمل ما كتب بالحرف العربي الذي شجع على استبداله، وبالفصحى التي وسمها بالميتة، فهو يرى أن اللغة لا تحيا في بطون المعاجم والكتب، وإنما تحيا داخل المجتمع، " وتتفاعل معه؛ فتتخط بانحطاطه، وترتقي بارتقائه؛ أي أنها تتطور... ولهذا السبب يجب ألا يكون للمجتمع لغتان، إحداهما كلامية؛ إحداهما عامية، والأخرى مكتوبة أي فصحى كما هو حالنا في مصر وسائر الأقطار العربية؛ لأن النتيجة هذه الحال أن اللغة المكتوبة تنفصل عن المجتمع؛ فتصبح كأنها لغة الكهان التي تتلى في المعابد، وينقطع الاتصال الفسيولوجي بينهما وبين المجتمع؛ ولهذا يجب أن تكون غايتنا توحيد لغتي الكلام والكتابة"²

ربما كانت الفجوة بين العامية والفصحى على النحو الذي لفت نظر موسى أوسع في عصرنا الحالي، وربما صدقت دعواه في ضرورة التقريب بين اللغتين الفصحى والعامية؛ لكن الإشكالية تكمن هنا في الفجوات، فدعوى التقريب غير المحو والإزالة، والفجوة ليس سببها الفصحى في ذاتها وإنما يتعلق الأمر بعوامل كثيرة منها الأمية وغياب الوعي اللغوي، كما أن التقريب لا يعني إحلال لهجة محل لغة أساسية للعمل والدين والأدب والثقافة، يضاف إلى أن التبعية الأدبية خاصة فيما يخص القصة والرواية والمسرح في بدايتها في عالمنا العربي للغرب، لا يمكن أن نعول عليه

1 كمال عبد اللطيف، سلامة موسى وإشكالية النهضة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2009، ص 255

2 سلامة موسى، السابق، ص 37

باعتباره مقياساً لتخلف الفن لدينا مقارنة بالغرب، ذلك أنه العرب اتبعوا في تعرفهم على تلك الفنون الطريق الطبيعي في التلاقح الثقافي بين الأمم والحضارات، فمر بمرحلة النقل والترجمة، ثم التعريب أو التمسير، ثم الإبداع العربي الخالص، على نحو ما نرى نحن ثمرته الآن في فوران أدبي منفصل تماماً عن محاولات الأوائل، وعن تقليد الغرب وإن كانت الأطر الفنية مستقاة منه، فإنه يسعى دائماً إلى تجاوزها وإلى ربط إبداعه بترائه: قصا ورواية ومسرحاً.

والحقيقة أن آراء سلامة موسى تعبر عن شطط وضاح وخلل في الرؤية لمفهوم اللغة، هذا المفهوم الذي لا يصمد أمام أساسيات اللسانيات الحديثة، منها على سبيل المثال قوله عن اللغة الحسنة إنها "التي لا يقل فيها الالتباس، أو يندم؛ لأن لكل كلمة معنى معيناً لا يتجاوزه ولا يتسع لهوامش تحمل الشك أو الغموض، أو الزيادة، أو النقص"¹، وهذا ما يؤكد الواقع الفعلي للغات باستحالة حدوثه، فمن المستحيل تخيل لغة دقيقة بالدقة التي يقصدها، بمعنى أن كل دال يدل على مدلول واحد، يرتبط به بشكل آلي حتمي، لا يفصل بينهما فاصل، ولا توجد بينها ثغرات، بحيث يكون لكل دال مدلول واحد، إن حاولنا ذلك لاكتشفنا أن هذا لا ينطبق إلا على "اللغة الجبرية الصارمة التي لا تتعامل إلا مع رموز جبرية مثل (أ) و (ب) و (س). ولكنها لغة الجبر لا تشير إلى أي شيء خارج ذاتها فهي بريئة تماماً من الواقع"²

ودون المبالغة في الاتهام لما مثله مشروع موسى النهضوي وفي القلب منه معاداته للغة العربية الفصحى، فإن الانتماء الديني له دور في ذلك، إضافة لتأثره بتيارات الفكر في فرنسا وإنجلترا حين سافر إلى أوروبا، إذ إن هذا الانتماء "حتى عندما يكون اسماً فقط، يعني توحيده مع تاريخ الغرب"³، وإلى جوار ذلك نجد أنه يمثل نموذجاً للمثقف الحائر الذي يرفع رايات التقدم بناء على ما يطلع عليه، فهو "اشتراكي وليبرالي ونهضوي قومي بدون أي مضمون إسلامي، وفرعوني، وربما اعتبر البعض دعواه للحرف اللاتيني نوعاً من التهور الفكري ونزوع مطبق للتوحد مع حاضر الغرب"⁴، لقد قدم سلامة موسى في خطابه النهضوي- بما فيه خطابه المضاد للغة العربية الفصحى- مثلاً واضحاً لخصوصية المثقف العربي المسيحي "فهو ليس مجرد نتاج لانتماء ديني

¹ سلامة موسى البلاغة العصرية، ص 45.

² عبد الوهاب المسيري، هاتان تفاحتان حمراوان، دراسة في التحيز وعلاقة الدال بالمدلول، من كتاب إشكالية التحيز، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط3، 1998،

ص63

³ كمال عبد اللطيف، السابق، ص103

⁴ كمال عبد اللطيف، السابق، 105

غير إسلامي، إنه قبل ذلك محصلة دور اقتصادي جديد، إنه محصلة وضعية اجتماعية سياسية جديدة تحددت زمن التهيؤ للسيطرة الإمبريالية"¹

إن خطاب موسى لا ينفصل في رأي الباحث بحال، عن حركة الاستشراق التابعة لتلك للحقبة الاستعمارية، وكان دائما يمثل مسوغا فكريا لهذا الاستعمار، حيث يوظف أدواته للتبرير والمقارنة والتأكيد على ضرورة الاستبداد بدعوى التمدن، وكانت اللغة في قلب هذا الاهتمام الاستشراقي" وحصلت المغازلة اللغوية فجاءت حركة الاستشراق، وبدأت مشروعها التحالفي الواسع بين السياسة الاستعمارية ومناهج فقه اللغة بمفهومه الفيلولوجي القديم، وانصبت الأنظار والعنايات على اللهجات العربية، وازدهر البحث في هذا المجال بما أغنى العلم اللغوي الخالص بدون شك، ولكن مناورات التوظيف لم تكن خافية ولا متخفية، وهكذا أمعن المستشرقون في تجنيد البحث الفيلولوجي سواء منه ما كان في الساميات أو ما تركز على دراسة اللهجات العربية بغيره تنميطها وكشف أنساقها إلى أن تهيأ كل شيء لإطلاق الدعوة إلى نبذ اللغة العربية وإحلال بناتها محلها"²، وقد سار موسى على تلك الخطا، النعل حذو النعل ولم يبتعد عنها قيد أنملة في مجمل خطابه النهضوي.

ولعل من مظاهر التعسف لدى المستشرقين الذين تأثر به موسى حيال اللغة العربية وتابعيهم، تصنيفهم للغات البشرية، باعتبار علاقتها بتقويم النظرية اللسانية، إلى صنفين؛ لغات مركزية فاعلة كالإنجليزية تؤثر في النظرية اللسانية بسبب جوهريتها واكتمال نضجها، ولغات هامشية منفصلة كالعربية ونحوها تتأثر بالنظرية ولا يؤخذ بها في تقويم النظرية والحكم عليها. إذا تعارضت توقعات النظرية اللسانية مع معطيات اللغات المنفصلة وجب تغيير المعطيات وتكييفها والمحافظة على النظرية وتحسينها من النقص، وعليه ليس للمستعنين بنظرية غيره في وصف لغته الخاصة أن يغير شيئا في البناء المنطقي للنظرية، لكن له أن يغير في البناء النسقي للغته، حتى يعود التوافق بينهما"³، وقد مارس سلامة موسى شيئا من هذا القبيل في إطار مقارناته بين الشرق والغرب على اعتبار أن اللغة مرآة لحضارة وشخصية كل منهما.

مما سبق يتضح خطورة ما وقع فيه كل خطاب من الخطابين، وسوف تتضح المخاطر والانحرافات مع كل علاج يطرح لقضية من قضايا اللغة، إذ يدخل كل خطاب إليها محملا برؤى وأفكار مسبقة أو سابقة التجهيز، هذا يستمدها من القديم المعتقد، وهذا يلتقطها من أحدث النظريات المستوردة وبينهما خلاء واسع، وإن كانت اللغة العربية لم تعد نماذج على وعي لغوي كبير،

¹ كمال عبد اللطيف، السابق، ص 103

² عبد السلام المسدي، الهوية العربية، والأمن اللغوي، دراسة وتوثيق، م س، ص 268

³ معاذ بن عامر، البديل الحضاري الإسلامي في حي العمولة: اللغة نموذجاً، مجلة آلباب ع 2، الرباط 2014، ص 167

عرفت أهميتها واتخذت منها منطلقاً منهجياً لإصلاح الفكر العربي طرحت من غير واحد من المفكرين العرب، كما أشرنا وعلى نحو ما ذهب أمين الخولي، وزكي نجيب محمود، وتبلور لدى نبيل علي في أكثر من كتاب، خاصة أن العولمة والثورة الرقمية زادت من أهمية اللغة واشتياكها مع شتى فروع المعرفة، حيث يرى أن اللغة باعتبارها نهجاً معرفياً يمكن تطبيقه على مجالات معرفية مختلفة، فهي وسيلتنا لإصلاح عقولنا وتنمية تفكيرنا وزيادة إسهامنا في إنتاج المعرفة، هذا الأمر يتطلب في رأيه سد الفجوات التي ظهرت على العقل اللغوي النظري والفلسفي والتطبيقي، إذ إنها الفجوة الأساس التي يلزم رطبها من أجل بعث الحياة في أوصال إنتاجنا المعرفي الذي أصابه الشكل، وزادت أهمية هذا الرطب حتى لا ينسحق الإنسان العربي أمام إعصار المعلومات الجارف، والذي يتعذر احتواؤه وتقطيره معرفياً دون وسائل لغوية مبتكرة وطبعة تتيح النفاذ إلى عمق النصوص وتحليلها وتصنيفها" 1.

ومن أمثلة النماذج المجددة في النظر للغة باعتبارها نهجاً معرفياً طابعا عملياً، محاولات طه عبد الرحمن المضنية لبناء فلسفة إسلامية مغايرة وتجديد لعمل الكلام، والتأثير لفكر إسلامي لا يقوم على التقليد للنموذج الغربي، أو مجرد إستلهام التراث الفلسفي المقلد أيضاً للنموذج اليوناني، ولأن اللغة هي أشد الأسلحة الأيديولوجية مضاء، وهي الوسيلة القصوى للسيطرة على الفكر، وهي أداة من أقوى الأدوات التي يستخدمها المتكلم لتبليغ مقاصده إلى المخاطب والتأثير فيه بحسب هذه المقاصد؛ ولأن ذلك كذلك فقد تحولت اللغة في فكر عبد الرحمن من طور المقترض من الفلسفة إلى كونها مدخلاً أساسياً للبحث الفلسفي، فبقدر ما تكون الأسباب اللغوية مألوفة للمخاطب، وموصولة بزاده في الممارسة اللغوية فهما وعملاً، يكون التبليغ أفيده والتأثير أشد، ولو تأملنا الجهاز المفاهيمي في دراسات عبد الرحمن المتتالية لعرفنا مدى حرصه على التشقيق اللغوي وبناء هيكل مفاهيمي خاص به يمتحه من تراثنا العربي ويقوم على النحت والاشتقاق.

ونظير اجتهادات عبد الرحمن المتنوعة نرى اجتهادات أخرى لعبد الوهاب المسيري ، فقد كان المسيري على وعي بقوة اللغة العربية وقدرتها الفائقة على التطور من خلال النحت والاشتقاق، لذا كان حريصاً على بناء جهازه المفاهيمي والاصطلاحي من نسج اللغة العربية والتأصيل لكثير من المصطلحات وكشف مخاطر التبعية للمصطلح الغربي خاصة في العلوم الإنسانية، على سبيل

1 نبيل علي العقل العربي ومجتمع المعرفة عالم المعرفة ، عدد 370 الكويت 2009م، ج 2، ص 220

المثال نجد أنه من المثير للدهشة أن عبد الرحمن والمسيري في بعض كتبهما يستعيضان بمصطلح الفقه عن العلم، لما للأول من بعد اجتهادي واحتمالي وإبداعي للمعرفة على عكس العلم التي تؤكد حوانب الدقة واليقينية والحيادية والنهائية، فاستخدمه عبد الرحمن في مؤلفه فقه الفلسفة، وكذا استخدمه المسيري في دراسته فقه التحيز. وما كان هذا إلا على سبيل التمثيل فيما يخص قدرتنا كعرب وقدرة لغتنا العربية أن تؤسس لنهضة علمية واجتماعية وسياسية مفارقة للنموذج المادي الغربي.

إن هذين المثالين يكفیان للتدليل على قدرة اللغة على استنهاض العقل العربي بما توفره من أدوات كثيرة لتوليد الأفكار وتوصيلها، خاصة في حقل الاستعارة والمجاز.¹ وليس في ذلك غمط للغرب في منجزه أو دعوة لعدم الإفادة من هذا المنجز بخاصة العلمي منه. كما لا يمكن أن نتجاهل ما أعطاه الجابري في كتبه عن العقل العربي من أولية للغة باعتبار أنها المؤسس الحقيقي للعقل العربي " ذلك أن الواقع التاريخي يؤكد بما لا مجال للطعن فيه أن أول عمل علمي منظم مارسه العقل العربي هو جمع اللغة العربية ووضع قواعد لها. وفي حالة كهذه من الطبيعي تماما أن يتخذ العمل العلمي الأول، الذي أنتج علم اللغة وعلم النحو، نموذجا للأعمال العلمية الأخرى التي قامت من بعده" 2، بل لا تتفصل اللغة عن الأخلاق بناء على اشتباك اللغة مع مختلف الحقول المعرفية، يمكننا أن ننظر لعلاقتها والأخلاق بناء على فرضية مفادها أن الأخلاقيات البشرية ذات تمظهر لغوي أي ذات بعد لغوي يتعلق بسلوكيات لغوية باعتبار الكلام صورة من السلوك الإنساني يتم من خلاله إنجاز كثير من الأفعال " وذلك عبر ما تلزمنا به أقوالنا من إنجاز لمقتضى مضمونها السلوكي وما يترتب عليها من أفعال" 3 ، فالعبارة المفتوحة على الدلالات المختلفة، بحسب سياق استعمالها، " تفتح اللغة على التعدد الإحالي والدلالي بحسب اختلاف سياقات ورودها واستعمالها، إن التلفظ الكلامي تعكس نشاطا اجتماعيا تؤديه اللغة أكثر مما تعكس أقوالا يصدق عليها الصدق والكذب" 4 ، والأقوال التي ننتجها في حياتنا اليومية لها جانبان،

1 انظر طه عبد الرحمن في كتابه فقه الفلسفة بجزئيه، وما تلاه من كتب في بناء نظرية أخلاقية إسلامية من خلال كتبه خاصة أنه حرص على التشقيق اللغوي وبناء هيكل مفاهيمي خاص به تمتحه من تراثنا العربي ويقوم على النحت والاشتقاق، بؤس الدهرانية النقد الاتنابي لفصل الأخلاق عن الدين (بيروت 2014) وشروود ما بعد الدهرانية النقد الاتنابي للخروج من الأخلاق (بيروت 2016)، يضاف إلى هذين الكتابين كتابه الأساسي في نقد أخلاق الحدائة، وهو سؤال الأخلاق (بيروت 2000)

2 الجابري تكوين العقل العربي، م س، ص 76.

3 - الحسين أخدوش، نظرية أفعال اللغة عند أوستن، أسسها وحدودها الفلسفية، موقع مؤمنون بلا حدود قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية أكتوبر 2016
www.mominoun.com ص 9

4 - الحسين أخدوش، السابق ص 12

بناء على ما ذهب إليه التداوليون: لغوي نطقي وهو الفعل التكملي، وجانب فعلي إنجازي هو الفعل التكملي وهي كلها أقوال وأفعال يقترن فيها القول بالفعل¹، وليس عجيباً أن نجد التطابق التام بين مادتي الخلق والخلق على اعتبار أن الخلق هو القيمة العليا في سلم القيم التي تتأسس عليها رسالة الإنسان في هذه الحياة وهي ملء الوجود بالقيمة، وهي التي ينفرد الإنسان بالقابلية على تحقيقها، ومن خلالها يصير صاحب رسالة.

و في النهاية ننبه إلى أن الأمر في قضايا اللغة أوسع مما نتخيل، فهو لا يتعلق بمجرد النطق أو الكتابة، إنما الأمر يتعلق بتمييزنا عن الآخر وشعورنا ووعينا بهذا التميز الذي قد يتيح لنا أن نرى بشكل آخر وأن نفتح مجال المعرفة بشكل آخر وهذا ما لن يتم إلا من خلال بنية عربية غائرة، بعض صورها النطق والبحث والحوار بهذا اللسان العربي²، إن كل لغة تحقق إشباعاً روحياً وعقلياً لمتحدثيها، ولا تمثل عائقاً بحال دون تطورهم فكرياً إلا : إذا وقعت لغة ما عثرة أما قدرة متحدثيها على حل مشكلة منطقية يسهل حلها من قبل من يتحدث بلغة أخرى، وحيث لم يكشف عن أدلة على مثل هذا التأثير المعيق للتفكير المنطقي، فإن هذا يعني - أو هكذا يقال - أن أي تأثير آخر للغة لن يكون ذا أهمية، وعليه فإن كثيراً من الترهات التي اتخذها البعض كمسلمات حيال اللغة العربية واعتبارها معوقاً للنهضة أو التقدم كما أشاع المستشرقون وأدناهم تذهب أدراج الرياح، ولكن بشرط دراستنا نحن، أولى الناس بلغتنا لتاريخها وتطورها وكيفية تفعيلها. إن خطابنا اللغوي أصبح ممجوجاً ومكرراً من كثرة الحديث عن العربية ومأزقها. ولا سبيل إلى بناء خطاب لغوي فاعل إلا من خلال لحظة وعي والكلام للمسدي³ بضرورة فك التعاضل بين مراتب الخطاب فضلاً عن إنجاز التقايل الجلي البات بين المعايير؛ معايير الأضرب الثلاثة: الغيبي والوجداني والنضالي³، والمسدي ينطلق في دعوته بحثاً عن طريق مستقيم أو منهج وسطي يتساءل عن قائل: هل من سبيل إلى معالجة المعضلة اللغوية بتسوية خطاب يستجيب لأشراط الموضوعية العلمية، ويتواءم مع متطلبات التشخيص العقلاني، دون انخراط في أعراض

1- الحسين أهدوش، السابق ص17

2 الرخاوي، مراجعات في لغات المعرفة، م ي، ص72

3 المسدي الهوية العربية، والأمن اللغوي، ص 15

الاستلاب الثقافي أو يُجر لإعوار الانبئات الحضاري... خطاب يحتكم إلى المنجز المعرفي ذاك
الذي حققته اللسانيات"1 ، ونحن من جهتنا نبحت عن لحظة الوعي من خلال الفصل التالي.

1 عبد السلام المسدي، السابق، ص16

الفصل الثالث تجديد الوعي اللغوي العربي
المبحث الأول: دراسات حول الوعي اللغوي العربي
المبحث الثاني: اللغة والوعي والهوية

المبحث الأول دراسات في الوعي اللغوي العربي

يبدو أن ندرة الأبحاث في الوعي اللغوي لا تقصر على اللغة العربية بل تمتد إلى أهل اللغات الأخرى فيشير - على سبيل المثال - كل من جيفري ريسر Jeffrey Reaser وولفرام وولفرام Walt Wolfram في دراستهما عن الوعي اللغوي في المرحلة المتوسطة من التعليم بأمريكا Language Awareness in Middle School إلى عدم وجود تقليد راسخ للوعي اللغوي في التعليم العام بالمجتمع الأمريكي¹، بيد هذا الأمر لم يستمر طويلاً خلال العقدين الماضيين، في ظل انفجار الماوراءيات في سياقات علمية وفكرية مختلفة. وعليه فقد تتابعت الدراسات التي تتناول الوعي اللغوي وتعريفاته وضبطه اصطلاحياً، ومن ذلك تعريف Bourke له بأنه " حل مشكلات لغوية، ويتضح من خلال مهام تصحيح فقرات لغوية، ويتضمن استخدام استراتيجيات معرفية، مثل الملاحظة واختبار الفرضيات وحل المشكلات وإعادة الصياغة"²، أما Barjesteh و Vaseghi فيعرفانه بوصفه "سمة عقلية تتطور من خلال إعطاء انتباه محفز إلى اللغة واستخدامها الذي يمكن متعلم اللغة من كسب استبصارات حول كيف تُستخدم"³ ، وقد بدأ مصطلح الوعي اللغوي في الانتشار بين المعلمين والطلاب باعتباره من الأولويات التعليمية، " والتي تسعى إلى رفع سوية الوعي الواضح لاستخدام اللغة لتعريف لغة أخرى لدى الطلبة أو معرفتهم باللغة. انظر أيضاً المعرفة المتعلقة باللغة لقد تنوع المبرمجون في التّكيز على المظاهر اللغوية للنصوص إلى مناقشة سياسات اللغة . Politics of Language وفي هذا المجال من الاهتمامات، ظهر جدال عظيم يتعلّق بنوع اللغة العليا (الفوقية Metalanguage)، ألا وهو أن تتحدّث اللغة عن اللغة"⁴، فارتباط الوعي باللغة يتم عبر الميتا لغة وهو ما يتطلب عناية خاصة عند بناء أي محتوى تعليمي لغوي.

لا نجافي الحقيقة حين نقول إن مفهوم الوعي اللغوي لم ينل حقه من الاهتمام، على كثرة تردد الوعي في مجالات معرفية أخرى، فالدراسات في هذه المجال على كثرة ما كتب في مناقشة قضايا اللغة العربية شحيحة، ومحاولات اكتناه أبعاد هذا المفهوم واستراتيجيات تنميته نادرة، فلم يحفل التعليم في بلادنا العربية على وجه الخصوص بكيفية إدراج بعض قضايا اللغة العربية الحيوية في مناهج التعليم المختلفة الأساسي أو العالي، وكأن أمر هذه اللغة لا يعني طلابنا أو أن مستوى

1 Jeffrey Reaser, Language Awareness in Middle School. North Carolina State University 2004.

2 James Bourke :A Rough Guide to Language Awareness, 2008. Teaching Forum, 12-21.

3 Barjesteh, Hamed.& Vaseghi, Reza: Language Awareness Within The Context Of Changing Perspectives On 3

Grammar Pedagogy. LEKSIKA. 2012. Vol.6 No.2 – August 1-7

4 جون سوان وآخرون، معجم اللغويات الاجتماعية، م س، ص 208

هذه القضايا أكبر من عمرهم العقلي، ومن خلال عملية استقراء سريعة لمناهج عدد من الدول العربية تأكد الباحث من خلو مناهج اللغة العربية من قضاياها الاجتماعية والسياسية الملحة، برغم أن التعرض لهذه الموضوعات يضع اللغة في بؤرة اهتمام الطلاب وينمي الوعي اللغوي لديهم- بصورة مباشرة- و ينبههم لخطورة ظاهرة اللغة وخطورة مشكلاتها سياسيا واجتماعيا واقتصاديا .ويخفهم للتمسك بها نطقا وكتابة وتفكيراً وتعبيراً.

من الناحية التاريخية كانت اللغة العربية ذات حضور دائم فيما تبلور من أفكار حول مقومات القومية العربية، نعم كانت ريح الرفض ومحاولات التمكين للهجات والعاميات تهب من مناوئ هنا أو مستشرق هناك، لكن التيار العام كان يصب في اتجاه مبشر بازدهار اللغة العربية على عدة مستويات، من تقدير مجتمعي، واهتمام تعليمي، مع انتشار حركة تعريب واسعة، وأمامنا عشرات الأسماء منذ بدء تبلور فكرة القومية العربية ممن أدلوا بدلوهم في هذا الموضوع، لكن ارتباط اللغة بالهوية القومية برغم صدارته لمقومات الوحدة لم يتجاوز حدود التنظير إلى التطبيق العلمي، خاصة في مجال التعليم في أغلب الأحيان، كما لم يتواءم مع التطورات المتلاحقة في علوم اللغة التي انفجرت خلال القرن الماضي، وكان المسلك الذي لجأت إليه الحكومات العربية فيما يخص هذا الأمر؛ هو التأكيد النظري الصرف على أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية، مع إعطائها ميزة مفرغة لا مضمون لها، تتمثل في رفع درجات اللغة العربية عن غيرها في التقويم الشفوي والتحريري، وإعطاء منهج اللغة العربية مساحة زمنية أكبر مقارنة بغيرها، فالنظرة المنهجية ذاتها لم تتغير منذ ستين عاماً أو يزيد، وكأن السلطات العربية قد نفضت أيديها من أمر اللغة بمجرد النص الدستوري على أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة، أو الدفاع الجهوري الصوت الخامل الفعل، أو الخطاب المقلد الذي يسقط إشكاليات اللغات الأخرى على لغته، وكأن إضافة درجة أو درجتين أو عشرة - في عرف منسقي التعليم في بلادنا- يكفي لجعل طلابنا أكثر وعياً بلغتهم، فهما ونطقاً وكتابة وإدراكاً لما يجابهها من إشكاليات .

يزعم الباحث أنه على كثرة ما كُتب عن اللغة العربية وقضاياها المعاصرة، وعلى كثرة ما عقد من مؤتمرات لمناقشة أهميتها ودورها في تشكيل الهوية القومية؛ فإن المحصلة قليلة للغاية، والردة اللغوية مازلت تنتشب أظافرها في مختلف أرجاء الوطن العربي بإشكال متعددة، ومرجع ذلك في نظره أمور عدة :

1- الأول الطابع النخبوي الذي تعالج به القضايا اللغة، وكأن اللغة قضية خاصة باللغويين فقط أو التربويين دون غيره، ومن ثم لم تترك الدراسات والمؤتمرات على كثرتها الأثر الأهم، وهو تنمية الوعي اللغوي لدى فئات المجتمع أو التيار الأغلب فيه، بل إن خلافهم في كثير من القضايا اللغوية الملحة كالتعريب الذي تحوّل -أحياناً - من طريق أساسي لنمو العربية وتطورها إلى أداة لتثويش والتشردم، من خلال عربيات

متفرقة، وكذلك " معركة المعيارية والوصفية وما لابس هذه المعركة من خلط منهجي، وتحريف مبدئي تولدت عنهما مجموعة من المشاكل الزائفة أربكت المعيارين وأرهقت الوصفيين وهو ما حال دون ازدهار وعي لساني"¹. إن أحد أسباب محنة اللغة هو افتقاد القدوة التي تتحرى الصواب اللغوي، هذه القدوة يجب أن تكون في البيت والمدرسة والجامعة في الحاكم والمسؤول، لينتقل الهم اللغوي إلى جميع فئات الشعب، فيصبح هما عاما.

- 2- الأمر الثاني يتعلق بطبيعة الأبحاث والمؤتمرات ذاتها، حيث يغلب عليها التعميم أو الأسلوب الوعظي الأجوف، والبعد عن الدقة المنهجية والجيد منها لا يجد صدى لتفعيل نتائجه أو تطبيقها، ومن ثم عدم تبلور سياسات لغوية سليمة، ناهيك عن عدم جدية كثير من القادة السياسيين - وهم رأس الحربة في كل تغيير مطلوب - في اهتمامهم باللغة، وكأن لغات الشعوب تنمو بشكل تلقائي وتبرأ من عللها دون تدخل من أحد"²
- 3- الأمر الثالث يتعلق بأحادية المنظور، وأقصد به طبيعة تلك الأبحاث واتجاهاتها، حيث يحكمها منظور أحادي وفقا لتخصص الباحث، فمن أخطر ما يتبدى في الدراسات التي تناولت العلاقة بين اللغة العربية والهوية التركيز على طرف على حساب طرف آخر، فإذا كان الباحث سياسيا قوميا كان التركيز على الهوية القومية وتحولاتها، فيما تختزل اللغة في مجرد التأكيد على ضرورتها للبناء تلك الهوية، أما مفهومها ووظائفها ودورها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي فمهمش، وإذا كان الباحث لسانيا، فالغلبة للغة وبنيتها صرفا ونحوا ومعجما، ويكون التهميش من حق الهوية، فتتحول إلى أيقونة يرددونها كثيرا في ثنايا بحثه، وحقيقة سرمدية لاتحتاج إلى جدال أو مراجعة، وهو ما ينطبق على الباحث التربوي والباحث النفسي، وهو ما يؤكد غياب الدراسات التأصيلية الأساسية في ثقافتنا العربية التي يمكن البناء عليها.

والمحصلة النهائية هي غياب الثقافة اللغوية حتى لدى النخب المثقفة وقادة الرأي، ويتصف المنتج الثقافي فيما يتعلق بقضية اللغة والهوية - على قلته - أنه يركز على دور اللغة في تنمية الوعي القومي أو الوعي بالهوية العربية وليس العكس، أي الحديث عن دور الوعي اللغوي في بناء الهوية وتشكيلها ، والحق أن الاتجاه الثاني وهو الأقل درسا أخطر من الاتجاه الأول، والسبب في ذلك أن الوعي القومي كما تبلور لدينا عبر أكثر من قرن من الزمان، كان سياسيا في مجمله يفنق للبعد الثقافي النافذ والمتغلل في شعاب المجتمع العربي، فهو وعي ذو بعد واحد، لذا جَمَدَ وتحرك العالم ولم يراوح مكانه وثبوتته، أما الوعي اللغوي فهو أعمق وأشمل وأقدر على التغلل، إذ

¹ - عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1 بيروت- 2010م ص205

² - نبيل علي. الثقافة العربية وعصر المعلومات، عالم المعرفة عدد 265، الكويت 2001م، ص 236

هو الوعي الأساس، به تتفعل كل أنواع الوعي الأخرى سياسيا وفكريا وعلميا، كما يتصف هذا الوعي بأنه ذو طبيعة نقدية، حيث "يشار إلى برامج الوعي اللغوي والنشاطات التعليمية على أننا وعي لغوي ناقد Critical Language Awareness ، من خلال سعيها للوضوح في تركيزها على العلاقة ما بين اللغة، المقدرة والمبدأ، التأثير والأيدولوجية"¹، ولعل ما جابته اللغة العربية عبر تاريخها الطويل من صعوبات ومحاولات للمحو لا يقارن بما جابته في القرن المنصرم، وما تجابهه في عصرنا الحالي؛ أعطى للدراسات التي تركز على الربط بين اللغة والوعي القومي أهمية كبيرة، وهذه الدراسات تتنوع وفقا لاتجاه كل باحث، ويمكننا التوقف أمام عدة دراسات توافرت لدينا نرى أنها تخدم ما نقصده من تبلور مفهومي للوعي اللغوي ومستوياته، وكيفية تفعيله في تعليمنا ومجتمعنا عموما، ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر:

2- دراسة يحيى الرخاوي عن اللغة والوعي القومي، وهي أحد فصول كتابه مراجعات في لغات المعرفة (1997) ، كما أنها متوافرة على موقع مؤلفها على الشبكة الدولية، وهي دراسة تتناول العلاقات الرابطة بين كل من اللغة وتشكل الوعي القومي من منظور نفسي، حيث وضح الرخاوي من واقع تخصصه وخبرته في الطب النفسي دور اللغة في تشكيل وعي الفرد، وأهم أمراض اللغة وما يترتب عليها من أمراض الوعي، ثم انتقل إلى طبيعة العلاقة بين اللغة والوعي القومي موضحا مخاطر التخلي عن العربية الفصحى على تحلل الوعي القومي. ثم اتسع بدائرة بحثه للكشف عن عمق دور اللغة العربية في تشكيل العقل العربي واستعادته استقلاله وحرية، ويعترف الباحث بعمق دراسة الدكتور الرخاوي وإفادته منها، مع تأكيده على ضرورة التوسع في مثل هذا النوع من الدراسات التي تسعى لتعميق العلاقة التي تنظر إلى البناء الحضاري للأمة من منظور اللغوي للكشف عن أبعاد الواقع العربي التاريخي والمعاصر من منظور لساني، حيث تتجلى في نسج اللغة وتراكيبها ونصوصها عشرات الجوانب الدالة على حقائق في حياة ناطقيها، وموقفهم من الحياة ورؤيتهم للعالم من حولهم.

3- دراسات عبد السلام المسدي: وأخص منها العولمة والعولمة المضادة 1999، الهوية اللغوية ورياح السياسة، والعرب والانتحار اللغوي 2011م، الهوية العربية، والأمن اللغوي و دراسة وتوثيق 2014، العرب والانتحار اللغوي، والدراسة الأولى تمثل بحثا في سيمياء الثقافة بين الفكرين العربي والغربي، والدور المحوري للغة أو أم المرجعيات كما يسميها في كتابه، وبرغم معالجة المسدي لقضايا العولمة من منظور آني يتعلق بما أثير ما زال غباره منعقد فوق رؤسنا، فإن تغير الظروف والمعطيات لم ينتقص من كتابه شيئا، والمعانات للوعي اللغوي وغيابه عن متقفينا على درجة كبيرة من الأهمية، أما الدراسة الثانية، فدرس من خلالها المسألة اللغوية عبر

1 جون سوان وآخرون، معجم اللغويات الاجتماعية، ت فواز محمد راشد، عبد الرحمن حسني، مركز الملك عبد الله بن عبد الملك الدولي لخدمة اللغة العربية، الرياض 2019، ص 208

التاريخي العربي، وكيف تبلورت مكانة اللغة العربية في التاريخي العربي حتى وصلت إلى أبنائها في القرن العشرين؛ لتؤدي وظيفة لم تعرفها كثير من الثقافات بوصفها الركن العتيد بين أعمدة معمار الهوية، وقد عاد المسدي لقضية الوعي اللغوي مرة أخرى في كتابه الهوية العربية ودعاه إلى ذلك "أمران جاءا يكتفان الوعي بمأزق اللغة العربية، ويدفعان ببعض النخب- هنا وهناك إلى إرسال صيحات الفزع: ظاهرة الكونية الثقافية المستترة بعباءة العولمة وامتداداتها، وظاهرة التهم الجاهزة التي أمعنت في الإلهاء إلى حد الإضلال"¹، ويناقش المسدي من خلالها وعيا لغويا جديدا فرضته ظروف متغيرات عصر جديدا، يتطلب أن منا اقتران الهوية بالأمن اللغوي

4- دراسة ياسر سليمان اللغة العربية والهوية القومية 2003 The Arabic Language and National Identity، وتكمن أهمية تلك الدراسة في كونها تقدم مسحا تحليليا شاملا لموضوع القومية العربية ودور اللغة فيها باستخدام مناهج بحث القومية والهوية، معتمدا على الجمع بين الوصفي والتاريخي في دراسة اللغة العربية والهوية القومية متتبعا عشرات الأسماء في التاريخ العربي عبر امتداده قديما وحديثا؛ لتبيان الكيفية التي تأسست بها فكرة الهوية في الوطن العربي ودور اللغة الأيديولوجي في تأسيسها، وبرغم تنوع عروض الكتاب على الشبكة الدولية فإنه لم يترجم - فيما أعلم- إلى العربية كاملا إلى الآن على أهميته .

5- دراسة منير حافظ الوعي اللغوي، الجمالي في فلسفة الكلام 2005م، وهو يطرح الوعي اللغوي من منظور فلسفي جمالي، ويناقش قضايا الوعي منذ بدء ظاهرة اللغة، محاولا طرح اجتهاداته في إطار استنتاج الحقائق وبيان تأثير الوعي اللغوي في الخلق المعرفي والجمالي، معليا من أهمية هذا الوعي إلى نرا بعيدة باعتباره القيمة العليا لتاريخ الإنساني، فهو ليس الحضارة كمكان، وإنما هو الحضارة الروحية في كل زمان ومكان.

5- دراسات محمد أمارة، ومن أهمها كتابه اللغة العربية في إسرائيل (سياقات وتحديات) 2010م ، وواضح من العنوان أنه يتناول حال اللغة العربية في ظل الكيان الصهيوني، وهي من الدراسات المهمة في ربطها بن سياسات التعليم والهوية، ومحاولات الاحتلال الإسرائيلي الضغط المستمر على اللغة العربية لتهميشها، ومن مظاهر تهميشها مشروع قانون قدمه حزب كاديفا لإلغاء اللغة العربية كإحدى اللغات الرسمية لدولة إسرائيل وفقا لما نشرته جريدة الأهرام 2011/11/8م

وفيما بعد تفجرت الدراسات التي تتناول الوعي اللغوي وقضايا اللغة في المجتمع من مختلف جوانبها تربويا واجتماعيا وسياسيا، وإعلاميا ورقميا... إلخ من خلال مراكز الأبحاث المتخصصة

1 عبد السلام المسدي، الهوية العربية، والأمن اللغوي، ص12

في اللغة العربية في عدد كبير من الدول العربية* خاصة أن مختلف القضايا المجتمعية لها بعد لغوي يكون حاضرا عن وعي أو بدون وعي منا،" وقد تطورت هذه الأبحاث، في أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات من القرن الماضي؛ حيث اتخذت من الوعي اللغوي موضوعاً سيكولسانياً، وخلصت إلى نتيجة مفادها أن اللغة لا تكتسب وتستعمل من أجل الفهم والإنتاج والتواصل فقط، وإنما من شأن هذه اللغة نفسها أن تكون موضوعاً للتفكير والتحليل والوعي بعناصرها المتعددة: الدلالية والتركييبية والمعجمية والتداولية"¹

كان هذا عرضاً موجزاً لأمثلة لدراسات وأبحاث أُطلقت على الوعي اللغوي، لم تدرس قضايا اللغة العربية من منظور لغوي فقط، بل انفتحت لآفاق واسعة تتعلق بقضايا العصر والهويات وجدل الأنا والآخر والأقليات اللغوية وغيرها من قضايا لا يعرف الطالب العربي شيئاً عنها في مختلف مراحل تعليمه مع ملاحظة أن هذه الدراسات لم تتوقف في الأغلب الأعم بتوسع أمام المقصود بالوعي اللغوي، على اعتبار أنه من البديهيات، كما لم ينظر أحد منهم لكيفية الربط بين الهوية والتعليم بمناهجنا التعليمية، أو الربط بين اللغة وعلومها وتضمينها في المناهج الدراسية باستثناء أمانة، كذا لم نتوقف أمام كثير من الأبحاث والدراسات الجامعية التي تناولت الوعي اللغوي من منظور تربوي مرجئين هذا الجانب إلى الفصل الأخير من الدراسة.

وليس المقصد أن تنص الدراسات على الوعي اللغوي أولاً تنص عليه، فكثير من الدراسات اللغوية قام بها اللسانيون العرب تكشف عن وعي لغوي متميز لقضايا العربية كيفية تطويرها بما يتناسب مع متغيرات العصر، وبرزت في مدارس علم النفس التربوي مدارس مختلفة تأثرت بالاتجاهات السائدة حول الوعي اللغوي، وما تمخض عن الدراسات والأبحاث السيكومعرفية والسيكولسانية، التي حاولت الجمع بين أطروحة الوعي اللغوي المبكر وأطروحة الوعي اللغوي المتأخر، بين نظرية النمو ونظرية التعلم، بين الاكتساب اللغوي داخل مجال الأسرة والوعي اللساني داخل فضاء المدرسة، وذلك في إطار رؤية تفاعلية تتلخص في كون الطفل بإمكانه تكوين نظريات ساذجة وعفوية حول اللغة، ويستطيع الحكم على وحداتها وعناصرها، والتعليق عليها والوعي بوظائفها "²

إن الوعي اللغوي فيما نرى ملاصقٌ للغة، موجودٌ بوجودها، فاللغة جسد يحمل الوعي، ومفهوم اللغة ذاته يعبر عن وعي، "وكل مستعمل للغة ما يجد في هذه اللغة مبرراً لإقامة مسافة بينه

• من أمثلة ذلك مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية بالرياض وله إصدارات مهمة في مجال اللغة العربية والتخطيط لها، ومركز اللغة العربية بأبو ظبي، ومركز الشارقة

1 - مولاي إسماعيل علوي، نمو الوعي اللغوي سيروية اكتساب اللغة عند الطفل، مجلة علوم التربية، القاهرة 2005، 15: 33

² مولاي إسماعيل علوي، الوعي اللغوي و استراتيجيات إدراك الجملة عند الطفل. مجلة الطفولة العربية، مج 10 ، ع 40 ، 8 - 30 .

/Record/com.mandumah.search//:http700501

ونفسه كذات للفظ وبين كلامه والعالم كموضوع للفظ"¹، غير أننا نشير إلى أن قلة الدراسات التي تتعقد حوله ترجع إلى إمكانية تحويله إلى واقع فعلي بالسياسة والتخطيط على المستوى اللساني والنفسي والاجتماعي والتعليمي وأنها ترجع إلى استراتيجيات تفعيله في المجتمع وفي حجرات الدرس، كما إننا نقصد بالوعي اللغوي المنصب تجاه اللغة الأم في مستواها الفصيح، فهذا النوع من الوعي لا يتجسد في الحقيقة إلا فيما هو مكتوب بل ما هو مكتوب خصيصاً في الشأن اللغوي ثم يغيب بعد ذلك حتى في مجالات المثاقفة الأخرى، وهذا ما أشار إليه المسدي قبل عدة أعوام²، وقد تجاوز تحليل الخطاب هذا الحيز الضيق إلى رحابة الخطابات المختلفة بشتى أنواعها وفئاتها دون تراتبية غير حقيقية، ومن الملاحظ أن الوعي - عموماً - لا يوجد بشكل منفصل عن الشخص، ولا يمكن استخراجها من الإنسان من أجل الدراسة بشكل أفضل؛ لذلك يجب على الشخص أن يدرك الوعي البشري بمساعدة نفس الوعي الذي يدركه، والحال أن الوعي اللغوي يتوسل بذات اللغة التي يطلب منه أن يعيها في مستوياتها وقضاياها المختلفة بدءاً بالأصوات والحروف وصولاً إلى الخطاب اللغوي، وإلى مختلف الخطابات، ومن هنا نجد أن الوعي اللغوي وهو المتماس مع ما وراء اللغة " باستعماله أي إشارة كان للتكلم عليها، يفتح ثغرة واسعة في أنظمة اللغات. بما أن كل فعل خطابي قابل للاندماج فيها. ومن المفيد حينئذ أن ندرس تأثير الخطاب ما وراء اللغوي على هذه الأنظمة"³

وبناء عليه فإن الوعي اللغوي هو مختلف الأنشطة اللغوية المصاحبة للنشاط اللغوي الاعتيادي بمختلف أشكاله، ولذا فهو يتضمّن مركّبين " الأول هو وعي مطابّق بالموضوع المطلوب تغييره، وهو هنا المعلومات المطلوبة عن اللغة التي يجب أن يمتلكها الفاعل النهضوي. والثاني هو السلوك النهضوي المناسب في مسألة اللغة"⁴، وهذا الوعي هو أحد الأسلحة الماضية في النهوض باللغة العربية ورد الاعتبار له في كثير من المجالات والحقول التي تم إزاحتها عنها بوعي وبدون وعي، وهو المدخل السحري كما يقول المسدي في كتابه، ويتأتى ذلك من خلال " إعادة الاعتبار إلى اللغة العربية لغة علم وتقانة وتعليم وعمل، وغرس الاعتزاز بها لدى كل المواطنين وفي مقدمتهم الأجيال الناشئة"⁵

إن كل تغيير طرأ على الحضارة العربية واكبه وعي لغوي فاعل يناسب هذا التغيير، فما كان جهد اللغويين الأول إبان العصرين الأموي والعباسي، من خلال تقعيد النحو، وبحوث البلاغة، وتقويم الكتابة العربية وتطوير أدواتها إلا نتاج وعي بخطورة ما طرأ على اللغة من جراء اختلاط

¹ - جوزيف ري - ديوف، المبتالغة: مقدمات ومعطيات أولية، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، ع8/ خريف 1989، لبنان 1989، ص 62: 76

² - عبد السلام المسدي، العولمة والعولمة المضادة، كتاب سطور، القاهرة 1999م، ص 407

³ جوزيف ري - ديوف، المبتالغة: مقدمات ومعطيات أولية، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، ع8/ خريف 1989، لبنان 1989، ص 62: 76

⁴ محمد شاويش، نحو وعي لغوي مناسب، موقع مجلة الآداب، <https://al-adab.com/article>

⁵ عبد السلام المسدي، الهوية العربية، والأمن اللغوي، م س، ص 96

العرب بغير العرب، وتضعض الملكة اللغوية السليمة، الأمر نفسه ينطبق على العصر الحديث وإن كان بصورة أقل زخما، فلم نعد باحثين كبارا امتلكوا هذا الوعي اللغوي الفاعل والمستشرف لما يحيط باللغة من قضايا، وما أكثر ما أريق من مداد في تلك المشكلات مما يكشف عن وعي وفهم واضحين لقضايا العربية وفقا لمتغيرات العصر، فكان القوميون في مجملهم يحتفون باللغة بوصفها مقوما أساسيا من مقومات العروبة، كما انبرى اللسانيون العرب لطرح نقاشات متنوعة حول اللغة ومشكلاتها الرئيسية من الازدواجية والتعريب والترجمة والمصطلح والمعجم، والتصويب اللغوي... إلخ ولن نستطيع أن نحصي عددًا من أسهموا بجهد وافر في هذا الصدد، فهذا الجهد يكشف عن وعي لغوي أكيد، لكن مجمل النشاط اللغوي العربي يمكن وصفه بالخبوية، سواء أكان في أقسام اللغة بالجامعات أو المراكز البحثية أو المجامع اللغوية، ومن ثم يكون المردود من أنشطتها اللغوية ضئيل، والفائدة المرجوة في تنمية الوعي اللغوي، وتبلوره لدى فئات المجتمع معظمها بوصفه تيار عاما .

والحق أن عملية إزاحة اللغة العربية في تجليها الفصيح تتم على عدة مستويات، التعليم واحد منها، ووضع القضية في إطارها الصحيح لا يسمح مطلقا بفصل قضية اللغة العربية في التعليم عن وضعها في المجتمع العربي عموما، فقضية اللغة ذات أبعاد سياسية وحضارية واجتماعية. كما أن عوامل موت اللغات التي رصدها ديفيد كريستال في كتابه (موت اللغة Language death) ينطبق أكثرها على العربية، وإن كان أكثرها تأثيرا يتعلق بعوامل التغيير الثقافي أو ما يتعلق بتمثل ثقافة الآخر cultural assimilation ، حيث يتبنى أفراد المجتمع سلوكيات وأنماطا لغوية جديدة نتيجة لعوامل سياسية واقتصادية¹ ، ولا يجوز أن نفهم ما يقصد بموت اللغة اندثارها وزوالها، ولكن المقصد هو حالة من حالات الغياب، والتي تأخذ أشكالا ثلاثة:-

- 1- الغياب بالتحول. يحدث هذا النوع من الغياب في كل مرة يتطور فيها الشكل اللغوي، ويتميز جغرافيا في أثناء توسع الشعب الذي يتحدث به ليولد عائلة من اللغات، وهو ما ينطبق على العربية.
- 2- الغياب بالانقراض. يكون هذا النوع من الغياب حين يموت آخر المتخاطبين بلغة من اللغات من دون أن يترك عقبا خلفه.
- 3- الغياب بالاستبدال. يحدث في كل مرة تغيب فيها لغة مغلوبة تهيمن عليها لغة غالبية²

1 David Crysta : Language death -Cambridge University-press 2003p76.77.

² لويس كافي ، حرب اللغات، م س، ص 204

وبعد هذا العرض الموجز لبعض الدراسات التي توقفت عند الوعي اللغوي يحاول الباحث قراءة طبيعة العلاقة بين الوعي واللغة رابطاً كليهما بقضية أخرى جدير بالعناية مع كل مناقشة إشكالية اللغة وهي قضية الهوية.

المبحث الثاني: اللغة والوعي والهوية

مع متغيرات العصر المتلاحقة أصبح الخطاب اللغوي بحاجة لكثير من المراجعة، فلقد تغيرت وظائف اللغة، أو استبان على غير ما هو معهود من طابعها المكتنز للثقافات والوعاء الحافظ للتراث، لتقوم بأدوار في غاية الخطورة على كل المستويات علميا وسياسيا واجتماعيا ولم يكن كالفهم مجازيا عندما أطلق على كتابه الشهير الحروب اللغوية، إذ إن أمر اللغة أصبح يمس الهويات باعتبار أن الهوية وظيفة ثلاثة وأساسية ومتميزة من وظائف اللغة¹

يحاول الباحث في هذا المبحث مقارنة مصطلحي الوعي *Awareness* ، والهوية *Identity* من خلال تشابكهما مع اللغة، فليست الغاية تتبع كليهما في تجلياته المختلفة الاجتماعية والنفسية والفلسفية، أو تقديم تعريفات محددة، وكلا الأمرين عسير وخطير في الوقت ذاته، وإنما الهدف الرئيسي هو تتبع حركية اللغة وتفاعلها الخلاق، وما ينتج عنه من تشكيل للوعي الإنساني في مختلف أبعاده وبناء الهوية في مستوياتها المتعددة، إذ لا وجود للهوية خارج الوعي ولا وجود للوعي خارج اللغة، ومن ثم بلورة مفهوم متماسك واضح المعالم للوعي اللغوي، يعاد على أساسه النظر في الخطاب اللغوي العربي جملة، حيث تتبدى خطورة المفاهيم في تحولها إلى أيقونات مقدسة وشعارات محفوظة، ويتم ترادها بين حين وآخر دون تطور يذكر برغم التغيرات المتسارعة التي نالت ريحها كل جوانب الفكر والمعرفة الإنسانية، وبالتالي تظهر المفاهيم مشوهة مبتورة، تتصف بالحدائث اسماء فقط أما مناقشتها فضارب في الجمود والتكلس، كما يلاحظ أن كثيرا من المفاهيم يخصم من رصيدها المعرفي وضع تعريف لها، لذا نتوقف أمام كلا من مصطلح الوعي والهوية في إطار علاقتهما باللغة شدا وجذبا وبناء متفاعلا، وجدلا دائما.

1- الوعي *Awareness*

من الناحية اللغوية ارتبط الجذر اللغوي (وعي) بالحسي والمعنوي، فكان يعني الجمع والحفظ، على نحو ما نجده في قوله تعالى (وَجَمَعَ فَأَوْعَى)² ويعنى الحفظ والفهم والتعقل وفي قوله تعالى (وَتَعِيَهَا أُنْزُورُهَا) ³ أي عقلت فانثقت بما سمعت من كتاب الله، ومعظم المفسرين يؤكد على أن (تعياها) تعني تحفظها وتعقلها وتفهمها، وفي تفسير الطبري يروى عن قتادة أن (واعية) أي "

1 جون جوزيف، اللغة والهوية، م س، ص 42

2 الحاقه 12/

3 المعارج 18/

أذن عقلت عن الله، ويقول البقاعي " والوَعْيُ: الحِفْظُ في النَّفْسِ، والإِيعَاءُ: الحِفْظُ في الوِعَاءِ " أم ابن عاشور فيقول " والوَعْيُ: العِلْمُ بِالمَسْمُوعَاتِ، أَي وَلِتَعْلَمَ خَبَرَهَا أُذُنٌ مَوْصُوفَةٌ بِالوَعْيِ، أَي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَعْيَ"¹

إن الأذن الواعية هي الحافظة لما تسمع، وهي التي تعقل وتتفحص بما تسمع، فالأذن تسمع ما يصل إليها من أخبار، خيرة كانت أو شريرة، فتنقلها إلى العقل ليجري المحاكمات اللازمة في ضوء ما لديه من المفاهيم والمقاييس والقناعات، ثم تصدر عنه الإجابات التي ما أن تختلط مع أحاسيس القلب ومشاعره وتتجاوب مع العقل وقناعاته حتى تحقق الانسجام الكلّي في شخصية متكاملة متميزة، ويتحقق بذلك الوعي القائم على أثر القناعات المؤدي إلى تأثير الاطمئنان، يضاف إلى ما سبق التماثل في الوظيفة بين اللغة طابعها الوعائي والوعي من الإيعاء وهو ما يمثل رابطاً قويا بينهما على نحو ما سنبين.

لقد كان الوعي ومازال من أكثر المصطلحات غموضاً في الوقت ذاته، ولعل مرجع ذلك هو اختلاف زوايا النظر إليه والمجال المستخدم فيه برغم أنه يدرس في علوم مختلفة مثل: الفلسفة وعلم النفس والمنطق واللغويات والفسولوجيا وعلم الاجتماع... إلخ، إلا إن - فيما يرى الرخاوي- " حقيقته توارت عن الدارسين والكافة " إما بالإنكار أو بالإهمال أو بالنفي - كما يقول الطبيب النفسي الفرنسي هنري إي - فالبعض أنكر الوعي تماماً كمادة للدراسة والتقييم مثل السلوكيين، والبعض نفخ فيه حتى أصبح هو كل شيء، فلم يعد شيئاً، والبعض نزع منه التحديد الذاتي حين جعله شبكة معقدة من التركيبات البيئشخصية، والبعض جعل الوعي - اختزالاً - مرادفاً للصحو مرة (ضد النوم) ومرادفاً للشعور مرة أخرى (ضد اللاشعور)²، لذلك وصفه إدغار موران أنه بديهي وغامض ومنشطر وواحد³، ولعل جزءاً من مشكلة الوعي وتعريفه يتعلق باختلافه عن غيره من الظواهر النفسية، ففي حين تتبدى تلك الظواهر في صورة ما أمام الفرد، نلاحظ أن الوعي يفتقر إلى السمات والملامح النفسية المميزة، اللهم إلا سمته الوحيدة التي تتمثل في " أنه يوجه الفرد بدرجات متفاوتة من الوضوح بالظواهر المختلفة المشكّلة لجوهر الوظائف النفسية النوعية، ومن ثم فقد نظر إلى الوعي على أنه شرط عام دون صفة محددة الوجود يُرمز إليه مجازاً بعبارات ضوء الوعي، مجال الوعي"⁴، لذلك نلاحظ أن الوعي يكتسب تعريفه مما يلحق به من وصف، فالوعي حضور وانتباه وإدراك واللاوعي غياب وانفصال، فحين أصف فلانا بأنه ذو وعي بيئي - مثلاً - معنى ذلك أنني لاحظت في سلوكه وأنشطته الفكرية والعملية ما ينم

1 انظر موقع الباحث القرآني في التفسير المشار إليها 69/12/tafsir.app

2 يحيى الرخاوي مراجعات في لغات المعرفة، م س، ص ص 41

3 أدغار موران: النهج، إنسانية البشرية، الهوية البشرية - ت هناء صبحي - هيئة أبو ظبي للتراث، كلمة ط 1 2009م، ص 137.

4 أ.ف. بتروفسكي - م.ج. ياروفسكي: معجم علم النفس المعاصر، ترجمة: حمدي عبد الجواد، عبد السلام رضوان، القاهرة، دار العالم الجديد ط 1996م، ص 61

عن ذلك، مع تفاوت درجات الوعي بدرجات الأنشطة، كذا إذا وصفنا إنساناً أنه ذو وعي لغوي، فإنه يتم على عدة مستويات تتفاوت في ظهورها ربما كان صورتها الأولى التزام النطق بالفصحى في مجمل تعاملاته وأنشطته الفكرية والعملية، فيما قد تعلق لتصل إلى مراحل أعلى من التوجيه ومعالجة مشكلات اللغة الخارجية من تعريب وتعليم وترجمة وازدواجية... إلخ من منطلق إدراك وإيمان.

فمن تعريفاته ما طرحه peter A. Angeles في قاموسه حيث عرّف الوعي بأنه "مركز انتباه أو شعور أو إدراك ذات ساعية إلى معرفة موضوع ما تمارس من خلال هذه المعرفة نشاطاً فعالاً تتوالى فيه أساليب أو صيغ لا يمكن اختزالها أو إنقاصها، كأن نفهم ما يوجهنا من خلال بعد ما أو من خلال منظور خاص أو من جانب من جوانبه مستخدمين الصور الخيالية والإدراكات الحسية والمشاعر والعواطف والمعارف جميعها بموجب طريقة خاصة بكل امرئ، يتحكم فيها - مثلاً - الحالة المزاجية أو الاختيار أو التذكير أو الانتقائية أو الانتباه أو التكتيف"¹.

أما أ.ف. بتروفسكي في معجمه فيرى أنه المستوى الأعلى للانعكاس العقلي للواقع الموضوع المتأصل في الإنسان على وجه الحصر بفضل ماهيته الاجتماعية التاريخية، ويمثل الوعي من الناحية التجريبية كلية دائمة التغير من الصور، والأفكار الحسية التي تتبدى مباشرة أمام الشخص في تجربته الداخلية وتسبق نشاطه العملي"²

يؤكد التعريفان السابقان على وجود فرعين متشابهين للوعي، الأول يستند إلى النشاطات الفكرية والعملية، والثاني فرع الإحساس بالذات، ومن هنا يتأتى تعقيد الوعي لجمعه بين الذاتي والموضوعي، إذ يتسم دوماً وفي الوقت نفسه بالذاتية وإضفاء سمة الموضوعية فهو داخل الذات وبعيد عنها، وهنا تكمن خصوصيته "بإمكانيته على عكس الواقع الموضوعي بأشكال عقلانية، أي تحويل الأشياء المادية إلى أشياء فكرية. فالوعي هو انعكاس فكري للعالم المادي، وانطلاقاً من هذا لا يمكن للوعي أن يمتلك مضموناً قائماً بذاته، إنه بمثابة حالة عامة من الانتباه المنتشر، تمثل أرضية كل الوظائف النفسية الأخرى، بل لكل نشاط عقلي، وكأنه التيار العام الذي يصبغ الحياة العقلية، وأن الوظائف الأخرى هي بعض المحتوى الذي ينساب على هذا التيار، دون انفصال بينه وبين كل وظيفة من تلك الوظائف"³

والوعي خاصية فكرية يتمتع بها الجنس البشري دون سواه، وهو ذو طبيعة انعكاسية، حيث تلتقط حواسنا ما يتواجد وما يدور في محيطنا من أشياء وأحداث وأنشطة، وما يرافق ذلك كله من انفعالات ورغبات وتعكسها إلى المواقع المخصصة لها في الجهاز العصبي المركزي، ليتولى هذا

1- Peter A. Angeles: Dictionary of Philosophy - New York, N.Y. 1992.p46

² أ.ف. بتروفسكي - م.ج. ياروفسكي، السابق ص 60

³ الرخاوي دليل الطالب الذي في علم النفس والطب النفسي، دار عطوة للنشر القاهرة 1980م، ج 1 ص 235 وما بعدها

الأخير نقل عملية الإنعكاس هذه وإيصالها إلى الدماغ. فالوعي بهذا الوصف يشمل كافة أشكال الإنعكاسات الحسيّة والعقلانيّة، وكل ما يرتبط ويحيط بهذه العملية، أي أنه وبمعنى آخر يشمل مجمل النشاط النفسي لكل فرد في المجتمع. ويبقى الوعي بالذات حاضرا، " بمثابة حارس في الوعي الفكري الذي يبقى يقظا بدوره في الوعي بالذات"1 ، لكنه ليس فقط نتاج جانبي للعمليات الفسيولوجية التي يقوم بها الجهاز العصبي، بل إنه يقوم بأداء واجبات ضرورية وهامة في حياة الناس. وبالاعتماد على قدرات الوعي بعكس الأفكار، فإنه بمثابة أداة عامة للمعرفة، يتمكن البشر بمساعدته من الولوج إلى جوهر العالم المادي وإدراك خصائصه .

والوعي ليس مجرد عملية انتباه أو إدراك ذاتي، بل هو - كما يقول بكار - "معطى اجتماعي يرتبط بالخبرة، لكنه يقيم علاقة جدلية مع المجتمع والوجود عامة، تؤثر فيه ويتأثر به، إلا أن الصحيح أن وعي الفرد يظل مسورا إلى حد بعيد بمستوى الوعي السائد في مجتمعه"2 ، وهنا تكمن مخاطر الوعي بمستوييه الفردي والجمعي، إذ تظهر مراوغاته على المستويين بصورة تصيبه بالتكلس والجمود ، فنحن لا ننفي وجود وعي لغوي يوجه الخطاب التعليمي للغة العربية، لكنه وعي يعاني من كثير من إشكاليات الوعي المعهودة من جمود وعدم مواكبة للمتغيرات الحضارية، وعدم المواءمة بين الثنائيات التي لم تزل تعصف بالفكر العربي منذ عقود طويلة؛ لذا كان لزاما تجديد هذا الوعي وفقا لم يعن من أهداف عامة وخاصة تتغياها مؤسساتنا التعليمية، فهو لا يعرف الثبوت أو الاستاتيكية، لكنه بمثابة الحركة التي تدمر من غير توقف نقطة انطلاقها، ولا تتركز على ذاتها إلا في النهاية، ويقول آخر "إنها لا تملك معناها إلا من خلال صور متلاحقة، فالصورة الجديدة هي التي تستطيع وحدها أن تكشف بعد فوات الأوان ،معنى الصورة السابقة ... وإنه يمكننا أن نقول بصورة عامة جدا إن إدراك الوعي ليذهب دائما من الأمام إلى الخلف"3. وهذا طبيعي لأن كل وعي بالحاضر يحمل جرثومة تغييره وتطويره بوعي آخر، وهذا يذكرنا بتفرقة جولدمان بين الوعي الفعلي الحاضر والوعي الممكن الاستشراقي، ومن خلال تلاحمهما في كلية متجانسة يصبح الوعي الممكن رؤية للعالم .

في ضوء ما سبق يرى الباحث أن الوعي هو العملية الحيوية التي تتضمن عدة جوانب منها: المعرفي يتعلق بالموضوع وما يتوافر حوله من معارف ومعلومات، ومنها الوجداني يتعلق بتقبل المعارف والمعلومات وتأثره بها وتكوين اتجاهات مناسبة نحوالموضوع، ومنها الأدائي، ويتعلق باستجابة الفرد استجابة صحيحة وفاعليته مع معطيات الموضوع ومتغيراته الطارئة. وذلك من خلال منظومة عقلية يمكن استعادتها وتنشيطها وفقا للموضوع أو الموقف أو المثير، ومن هنا

1 أدغار موران، النهج ، السابق، ص137

2 عبد الكريم بكار: تجديد الوعي، دار القلم ، دمشق ط 1 ، 2000م.ص11

3 بول ريكور : صراع التأويلات دراسات هيرمينوطيقية، ت مندر عياشي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2005 م ص 152

كان للوعي أدوار متعددة في بناء الفرد ذاتيا واجتماعيا، فهو يُمكن الإنسان من التخطيط بشكل هادف، ومن التَّكهُنَّ المبكر لنتائج الأمور التي خطط لها، كما يُمكنه من ترتيب علاقاته المختلفة والمتبادلة مع محيطه الطبيعي والاجتماعي، وتغييرها بشكل ينسجم مع تطلعاته، أي أنَّ الإنسان وبالاعتماد على ثمرات الوعي الذي يمتلكه يكون في وضع يؤهله لاستخدام هذا الوعي وتوظيفه، وترتيب أولياته حسب حاجته للوصول إلى أفضل النتائج التي يطمح اليها مع محيطه الاجتماعي والمادي. وكلما ازداد وعي الفرد، تمكَّن من إدراك ذاته وتقويمها، وإدراك محيطه والتأثير فيه.

ويقدم سيرل ثلاثة عناصر يراها تمثل جوهر الوعي، هي أنه:

- **نوعي qualitative** بمعنى أن هناك نوعية تجريبية لأي حالة واعية.
- **شخصاني أنطولوجيا** بمعنى أنه لا يوجد إلا كما تتم معاشته من قبل موضوع بشري أو حيواني
- **موحد** بمعنى أن كل حالاتنا الواعية تأتي إلينا كجزء من حقل واع موحد¹

وقد دخلت علوم مختلفة على الخط في تعريف الوعي، فنجد عالما مثل **ميشيو كاكو** يطلق نظرية الوعي الزمكاني، ويعرفه بأنه "عملية خلق نموذج للعالم باستخدام دارات تغذية راجعة عديدة بمتغيرات مختلفة (على سبيل المثال، درجة الحرارة والمكان والزمان والعلاقة مع المتغيرات الأخرى) من أجل تحقيق هدف ما (على سبيل المثال إيجاد الشريك أو الطعام أو المأوى)".² ، وبناء على تلك الدارات يتدرج الوعي يمكن قياسه تصنيف الوعي رقميا، على أساس عدد دارات التغذية الراجعة المستخدمة في صنع نموذج للعالم وتعقيدها، لن يبقى الوعي عند ذلك مجموعة غامضة من أفكار دائرية غير معرفة، لكنه يصبح نظاما من التراتبية يمكن تصنيفه رقميا.

وقد أخذ مدلول (الوعي) يتسع؛ ليدخل العديد من المجالات النفسية والاجتماعية والفكرية، فقد كثرت المجالات التي يضاف إليها الوعي، فهناك الوعي الاجتماعي والوعي الطبقي والوعي الفكري والوعي السياسي...إلخ، ولأجل ذلك يعتقد "كولين ماك جين" أن الاهتمام الجديد بالوعي يمثل الفصل الكبير القادم للفكر الإنساني حول العالم الطبيعي، تماما كما كان فهم العالم الطبيعي هو الذي حشد القوى والفكر في أثناء القرن السابع عشر³

فالوعي يبرز من خلال جملة من الخصائص منها:-

- **يجمع الوعي بين المعنيين الحسي والمعنوي**. دون تحديد أيهما أسبق من الآخر.

¹ جون ر. سيرل، رؤية الأشياء كما هي، نظرية الإدراك، ت إيهاب عبد الرحيم علي، عالم المعرفة، ع 456، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 2018، ص 57

² ميشيو كاكو، مستقبل العقل، الاجتهاد العلمي لفهم العقل وتطويره وتقويته، ت سعد الدين خرفان، عالم المعرفة، ع 447، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 2017، ص 62

³ فتح الله الشيخ، الوعي شبح يستعصي على العلماء والفلاسفة، الكتب وجهات نظر: ديسمبر 2001

- يرتبط الوعي بالفهم والإدراك في تشكيل بيولوجي ذهني يتداخل فيه العقلي بالشعوري.
- يمثل الوعي أساسا لكل معرفة ولكل نشاط عقلي .
- ارتباط الوعي بالمعارف اللغوية أو باللغة ، فلم يوصف عضو من أعضاء الحس بالوعي سوى عضو السمع والتلقي، في حين لُصق هذا الوصف بالقلب تارة وبالرأس تارة أخرى.
- الوعي يتسم بإيجابية التلقي - عموما- في فهم مدخلات المعرفة المتنوعة .

2- الوعي واللغة

من حيث علاقتها بالوعي تُعرف اللغة بأنها الإطار التنفيذي لكل العمليات الذهنية للإنسان، بل إن تشكّل مفهوم اللغة ذاته يفترض الوعي بها، وتعد هذه العملية نتيجة تفكير ذاك الذي يخمن ويفكر، ويخرج من التحقق النوعي للكلام ليخلق مسافة بينه وبين نفسه¹، لذا يعرفها أحد الباحثين اللغة أنها: "الوعي الدائم التشكل والتشكيل بما يسمح باحتواء المعنى- إذ يكونه- وإطلاقه بما تيسر وتناسب من أدوات، كما إنها تمثل ذلك الكيان البيولوجي الراسخ/المرن/المفتوح في آن، القادر على تفعيل المعرفة في الوعي.²" فاللغة والوعي متلازمان بل متماهيان، فالوعي هو كلية اللغة حال كونها منظومة مستقرة نسبيا³، واللغة هي أداة الوعي لدى مجتمع ما، أي أنها طرح خارجي لأشكال هذا الوعي كما يقول - كروس وهودج- وهذا ما يتيح تحليل الوعي لدى مجتمع ما من خلال لغته والوقوف على منطلقاته الأيديولوجية⁴. فنحن إذن أمام علاقة تفاعلية قوامها التأثير والتأثر لدرجة تصل إلى التطابق مع اختلاف التماثل فكان اللغة دال والوعي ومدلول، فاللغة تمارس سطوتها على الوعي في تجلياته العقلية المختلفة، أبسطها أن ما لا نسميه لا نعيه، والوعي لا يتمظهر واضحا وجليا إلا من خلال لغة تصفيه وتقدمه جليا وهو ما لا يحدث بدونها؛ لذا تجد أن اللغة في حالة سيرورة وصيرورة، فلغة الوعي لا تتولد إلا بالوعي باللغة وبإمكانياتها، ونتيجة لطبيعة العلاقة بين الطرفين، نجد أن "النقد التنظيري لا يستطيع تشخيص الوعي اللغوي بتعريف أو كيفية أو صورة أو فعل أو دلالة أو معنى في مقولة محددة وثابتة ونهائية"⁵، وإنما

¹ ولهانز جورج غادامير: الإنسان واللغة - ترجمة: عبد العلي الزبي، مجلة علامات- عدد 22، المغرب 2004 م.ص102

² الرخاوي، مراجعات، م س، ص39

³ الرخاوي، مراجعات، م س، ص43

⁴عز الدين إساعيل ، أيديولوجيا اللغة، مجلة فصول م5/ع 4 ج2- الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1982 م ، ص43

⁵ منير الحافظ، الوعي اللغوي، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2005 ص61

يمكن النظر إلى أن وعي العالم لغويًا "هو حالة تحول انتقالي من الوعي الغريزي إلى الوعي العقلاني المحدث اللامتناهي عبر لحظات الحضور الأفهومي لصياغات الكلم"¹ ، وبناء عليه نجد أن الوعي اللغوي هو "الإدراك الحسي والمعرفة الصحيحة بميكانيكية اللغة وطريقة بنائها وتركيب عناصرها. ويتمثل ذلك الإدراك في مدى استيعاب المتعلم للقواعد النحوية، والأنماط اللفظية للغة ومدى قدرته على توظيف تلك المعرفة في مواقف صفيّة أو حياتية، تساعده على تطوير مهارات التواصل الاجتماعي مع أقرانه ومعلميه ومحيطه الخاص"² ، هذا إذا قصرنا الوعي اللغوي على مستوى واحد من مستوياته، إذ يظل الوعي اللغوي مترامي الأطراف يتجاوز حدود المؤسسة التعليمية بمختلف أشكالها.

كذلك يؤثر الوعي في اللغة قوة وضعفاً، تطوراً أو جموداً وفقاً لبننيته الفكرية والشعورية والسلوكية، لذا يُعرّف الرخاوي الوعي أنه الكيان البيولوجي الذي يتشكل ب/ مع اللغة³ ، أما إدغار موران فيرى أن "الوعي انعكاس في أحد معنياه يشير إلى عودة الذهن في دورة إلى ذاته مرورا للغة"⁴، فإذا كانت اللغة أداة وموضوع للوعي حال نعتنا للوعي باللغوي، فنحن في تلك الحالة أمام وعي مزدوج - إن صح التعبير - ينظر إلى اللغة بعينيها ويمر إليها من خلالها، فهو وعي مخالف لأنواع أخرى تتوجه لموضوعات معرفية مختلفة كالوعي السياسي والوعي الاقتصادي والوعي البيئي... إلخ، علماً بأن اللغة هي الأداة المشكّلة لكل تلك الأنواع مما يحق لنا أن نطلق على الوعي اللغوي بأنه **الوعي الأساس** ، بوصفه "الجهاز الذي يغذي كل الأوعية المعرفية التي تحافظ على بقاء الذات الحضارية وتصونها من الهلاك والتلف"⁵، وهنا يمكننا التوقف أمام دور اللغة في تشكيل الوعي بمستوياته الذاتي، والجمعي مع ربط ذلك بالخطاب التعليمي العربي. كما يمكننا رصد التشوهات والانحرافات التي تجعله - أحياناً - وعياً زائفاً على نحو ما تابعناه في خطابنا اللغوي بأشكاله المختلفة.

إن العلاقة بين كل من الوعي واللغة هي علاقة وثيقة حتى لتوحي بالتماثل، والترادف، وما أكثر ما يقال عن علاقة اللغة بالفكر والعقل والوعي، لكنها من ناحية أخرى "شديدة الصلة باللاوعي واللاعقل واللافكر، فاللغة تمارس سلطتها من خلال اللاوعي الجمعي وأيديه الخفية"⁶ ، وبالرغم من ذلك فهما ليسا واحداً، برغم اتفاقهما في أن كلا منهما:

(أ) عملية.

1 منير الحافظ الوعي اللغوي، ص 75

2. منير الحافظ، السابق، ص 77

3 الرخاوي، مراجعات في لغة المعرفة، م س، ص 41

4 أدغار موران: النبع، إنسانية البشرية، الهوية البشرية - ت هناك صبحي - هيئة أبو ظبي للتراث، كلمة ط 1 2009م، ص 136.

5 منير الحافظ، السابق، ص 43

6 نبيل علي، الفجوة الرقمية رؤية عربية لمجتمع المعرفة، عالم المعرفة ع 318، الكويت 2005م، ص 309

(ب) تخليق وتشكيل.

(ج) منظومة .

(د) ملتحمة بما تحتويه.

ويشير الرخاوي إلى أن ثمة فروقا ضرورية بين اللغة والوعي، لا بد من التنبيه عليها مثل: إن اللغة توليد، نو وحدات أوفر كثرة وأنشط تشكيلا وأحضر إبداعا وأقدر حوارا، في حين أن الوعي هو أكثر منظومية، وأعمق رسوخا، وأطول زمنا، وأجهز تنسيقا، فاللغة هي وحدة الوعي وفي نفس الوقت هي تشكيلاته المتداخلة القادرة على الإفصاح المعرفي دون إلزام بلاغي محدد، والوعي هو كلية اللغة حالة كونها منظومة مستقرة نسبيا؛ ومن هنا فإن تشكيل الوعي يعتمد بالضرورة على ما تتصف به اللغة من قوة وضعف، وإحكام وترهل، وإبداع وتناثر¹، لذا تمثل اللغة أسمى مستويات الوعي العقلاني، فهي الأقدر على التجسيد المعرفي، "إن وظيفة اللغة عرض مواقف متجلية للوعي والتعبير الأمثل عنها، فاللغة اختبار وتحدٍ تبرز قدرة الوعي على تجاوز الفهم المعقد لكافة اللحظات الراهنة المتشاكلة مع الذات، وتحدد نمط العلاقة بينها وبين سلوكنا إزاءها"²، وعليه فإن علاقة اللغة بالوعي قضية متأصلة (original)، وليست مسألة عارضة في رؤيتنا الشمولية للعالم .

والفرد كما يحصل معاني المفردات من خلال سياقها الاجتماعي، كذا فإن وعيه بالأشياء والحياة عموما ينمو من خلال الطريق ذاته، والذي به تتحقق كينونته في المجتمع، فاللغة هي الأداة الأساسية في عملية التكيف الاجتماعي ودور المجتمع في بناء وعي أفراده

ولا تمثل اللغة مجرد وسيلة أو أداة تواصلية، حيث لا تفصل اللغة عن عمل الذهن، والعلاقة بين اللغة والتفكير كما كرر كثيرون تشبيه العلاقة بين الدجاجة والبيضة، والفصل بينهما في النظرة الحديثة متعذرٌ، وهو ما يؤكد عمق العلاقة بينهما وتشعبها، حيث يمارس كل منهما تأثيره على الآخر، وتظهر العلاقة بينهما في أوضح صورها" في إطار التقابل بين كون اللغة قيما على الفكر أم تحريرا له فكما يمكن أن يسمو الفكر بلغته أو ينحط بها، كذلك يمكن للغة أن تسمو بفكر جماعتها أو تنحط به"³، فاللغة عامل أساسي في نمو الذهن البشري، ونحن حين نفكر فهذا يعني أننا نقوم بعمل من صميم اللغة، وفي إطارها، في حين لا يرد إلى فكرنا ما ليس في لغتنا؛ لذلك تمثل اللغة الأساس الرئيسي في بناء الإنسان ورؤيته الخاصة على مستوي الوجود المادي فقط، فهي تخلق الإنسان كما يخلقها وهو ينمو من خلالها، ويتلون في إطارها، فلغة الحضري تسهم في تحضره ولغة البدوي تسهم في بداوته، ولعل النظرة الأداتية هي أخطر ما يعاني منه الخطاب التعليمي في بلادنا، حيث يتم التركيز على "الأشياء والمسميات على حساب الاسم، فعلى عكس

1 الرخاوي مراجعات في لغات المعرفة - دار المعارف - القاهرة 1997م ص 40

2 منير حافظ الوعي اللغوي، دار الفرقد 2005 دمشق، ص 7

3 نبيل على، الثقافة العربية وعصر المعلومات، عالم المعرفة، الكويت 2001، ع 265، ص 262

ما يشاع فإن الطفل لا يعرف مجرد كلمات لأشياء أدركها من قبل، والنظرة الحديثة تعد الكلمات مواقف فإذا سميت الحصان في العربية بهذا الاسم، كان هذا موقفاً مختلفاً عن موقف ثانٍ في لغة ترمز إلى الحصان بلفظ آخر¹، ولهذا قال ناصف: "دعنا نهتم باللغة لا بالأشياء، ففي داخل هذا الاهتمام تتجلى القيم والمواقف"².

ولهانز جورج غادامير رأي جدير بالانتباه فيما يخص العلاقة بين اللغة والوعي الذاتي حيث يقول: "إن اللغة ليست إحدى الوسائط التي يعبر الوعي عبرها عن وجوده في العالم، إنها لا تشكل، إلى جانب العلامة والأداة - اللذين ينتميان بالتأكيد إلى الخاصية الأساسية للإنسان - وسيلةً ثالثة. إن اللغة ليست تماماً وسيلة أو أداة؛ فمن خاصية الأداة الأساسية أن نعرف كيف نمتلك استعمالها وهذا يعني أن نأخذها بين أيدينا أو نضعها جانباً عندما ننتهي من استعمالها... أن نعرف كيف نتكلم لا يعني الوصول إلى استعمال أداة موجودة سلفاً لتسمية عالم مستأنس نعرفه، بل يعني الحصول على حميمية ومعرفة العالم نفسه كما يأتي لملاقنتنا"³، إن الإنسان حين ينطق يفكر باللغة ربما دون انفصال، لكنه لا يعيها، فلا أحد يتوفر لديه وعي فعلي بكلامه إلا حينما يستخدم لغة شارحة لما يقول، وعندئذ نقول أنه واع لكلامه، ولعل كثرة الحديث في التراث العربي عن الكلام والصمت والإيجاز ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، والكلمة تملك الإنسان حين ينطق بها وإنه ظن في صمته يملكها... إلخ؛ تصب في هذا الاتجاه من حيث ضرورة تفعيل الوعي اللغوي للفرد صمته وكلاماً، إن ما نقصده هنا يتعلق بكيفية تنمية الوعي اللغوي لدى الفرد، بحيث لا يقتصر على تنمية توجهات لديه تجاه اللغة العربية فيما يخص قواعدها وبلاغتها فقط وهو ضروري، ولكن أيضاً تنمية توجهات لديه لفهم طبيعة اللغة حال اشتغالها في نشاط لغوي ما وأمراضها ومخاطر إهمالها أو إهدارها دون طائل.

واللغة بما تتضمنه من كلمات وتراكيب تمثل الأداة الأولى للوعي ولا يمكن إدراك كيف تقوم الكلمة بوظيفتها كأداة للوعي، إلا إذا قُمنّا بتحليل نافذ وعميق لمعنى الكلمة بوصفها إشارة اجتماعية وعليه تمثل اللغة وسيلة لصبغ الفرد بالصبغة الاجتماعية، وكلما ازداد الفرد توغلاً في عضويته للمجتمع ووثق صلته به زاد دور اللغة، لا في حياته الاجتماعية فحسب، بل في سلوكه وإحساسه وتفكيره أيضاً"⁴، والفرد كما يحصل معاني المفردات من خلال سياقها الاجتماعي، كذا فإن وعيه بالأشياء والحياة عموماً ينمو من خلال الطريق ذاته، والذي به يتحقق كينونته في المجتمع، فاللغة

¹ مصطفى ناصف: اللغة والتفسير والتواصل "عالم المعرفة عدد 193" الكويت 1995 م، ص 131

² مصطفى ناصف: اللغة والتفسير والتواصل، عالم المعرفة عدد 193، الكويت 1995 م، ص 125.

³ ولهانز جورج غادامير: الإنسان واللغة - ترجمة: عبد الحى الزبي، مجلة علامات- عدد 22، المغرب 2004 م، ص 104، 105

⁴ إبراهيم أنيس: اللغة بين القومية والعالمية - دار المعارف - ط 1 مصر 1970 م، ص 34.

هي الأداة الأساسية في عملية التكيف الاجتماعي، وهي التي عن طريقها يشكل المجتمع وعي الفرد ويمتد من خلاله¹.

ولأن اللغة تشتغل بفاعلية على مستوى بناء الوعي من حيث كونه علاقة تفاعلية بين الداخل والخارج، فإن دور الكلام وهو المظهر الفعلي للغة حال اشتغالها يحقق ما يعرف بالعلاج النفسي بدون أدوية، فكثير من الأمراض النفسية لا تجدي معها العقاقير فقط، وهذا ما تؤكد أحدث الأبحاث في مجال العلاج النفسي، فوفقا لما طرحه الانجليزي فونانجي عن دور الكلام في تغيير كيمياء المخ العصبية ومن المسارات، وأكد أن هناك أدلة وبراهين كثيرة تغير حالة المخ إلى الأحسن بعد العلاج بجلسات البوح العلاجي وبالتداعي الحر والطلاق²

وفي المقابل يتولد ما يعرف بـ(الألكسي ثيميا - Alexi thymia) عن عدم القدرة عن التعبير عن النفس أو ما يعرف بالجمود العاطفي، وأصحاب هذا المرض ليسوا بلا مشاعر على الإطلاق، بل يشعرون، ولكنهم غير قادرين على معرفة مشاعرهم على وجه التحديد، وعاجزين عن التعبير عنها، وعلى وجه التحديد تنقصهم مهارة الذكاء العاطفي أي الوعي بالذات، وقد وضّح (سيفنيوس) أسباب هذا المرض وعلاقته بدوائر المخ العصبية وقشرة المخ حيث لا تستطيع الأولى التعرف على المشاعر، ولا التعبير عنها لغويا على الرغم من استجابة الأولى³، فاللغة - واللغة الأم على وجه الخصوص - تمثل حاجة نفسية ضرورية لكل إنسان، ولا يعتقد أحد أن هذا بعيد عن النفسية العربية، بل إن النزعة السلطوية في التربية القائمة على القهر، سواء أكان قهرا بشريا من قبل المعلم أم كان قهرا معرفيا من خلال محتوى تعليمي منفصل عن الحياة؛ تسهم في تكريس التخلف الذهني لدى طلابنا وتولد عددا لا يحصى من المشكلات النفسية يطول مدى تأثيرها، ولعل ما تصوره الرخاوي من أمراض اللغة، وما يترتب عليها من أمراض الوعي يصب في ذات الاتجاه، فأمراض اللغة من مثل: الجمود، الترهل، التذبذب، الغموض، التصادم، التناقض، التناثر يقابلها تشكّل للوعي بصورة عاجزة ومعوقة تظهر في صور أمراض للوعي من مثل: الهلامية، التداخلية، الانغلاق، التسوياتية الصفيرية، والحق أن أمراض كل من اللغة والوعي، وقد تعرض لها الرخاوي⁴ على عجل؛ يمكن أن تتدرج تحت ما نسميه الوعي الزائف، وهي بحاجة لدراسات موسعة تنظيرية وتطبيقية، تكشف عما نعانيه منها، والحق أيضا أن كليهما - أمراض الوعي وأمراض اللغة - له تجلياته في النفس العربية بشكل من الأشكال، فتردد الحديث عن تعالق اللغة بالهوية في خطابنا الفكري واللغوي - مثلا - دون تحوّل ذلك إلى واقع ملموس أو تحوله إلى واقع مضاد لما هو مأمول يكشف كم تعاني تلك النفس من أمراض الوعي وأمراض اللغة معا.

¹ عز الدين إسماعيل، أيديولوجيا اللغة، مجلة فصول م5، ع4، ج2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1982م، ص42

² الأهرام 2011/10/4

³ دانيال جولمان، الذكاء العاطفي، ترجمة ليل الجبالي، عالم المعرفة، عدد 262، الكويت 2000 م، ص79، 80

⁴ الرخاوي، مراجعات في لغات المعرفة، م س، ص53

لاشك أن اللغة أداة أساسية لمعرفة العالم، فهي أكثر مصادر المعرفة، "إن لم تنم لديك لغة فلن يكون لديك - ببساطة - مدخل إلى الجزء الأكبر من التجربة الإنسانية"¹، ولن يكون باستطاعتك أن تفكر بطريقة سوية وحركية اللغة، وتجدها يمثل تجددا لكثير من المجالات المعرفية والفكرية التي تعاني في ثقافتنا العربية، نكتفى على سبيل المثال بموقفنا من تفسير القرآن الكريم والفلسفة، وتوقفهما عند منجز القدماء دون إضافة تذكر. برغم أن تجديد النشاط اللغوي وتحريه من أسر النظرات المسبقة والأفكار المعلبة يمثل أكبر عون على الحرية، واللغة الفعالة ليست شيئا آخر غير البحث عن نمط من الحرية، واللغة العربية في أحد تصنيفاتها تنتمي إلى هذا النمط الحر في رتبته النحوية واشتقاقاته الصرفية.

نستخلص مما سبق أن الرابطة بين الوعي باللغة والوعي بالذات لانتفصم، فالوعي بأهمية الذات وتماسكها هو الوعي بأهمية اللغة التي يتشكل وجود الذات بها ومن خلالها، فما يظهر من هوية الإنسان هو ما يعيه ويستطيع التعبير عنه، فنحن ننمو من خلال اللغة، وعقولنا من بعض النواحي هي لغتنا، حيث لا تتفصل اللغة عن الذهن البشري، فالتفكير نشاط لغوي بالدرجة الأولى، وما كان تأكيد الباحثين على العلاقة بين اللغة والتفكير إلا إدراكا منهم بدور اللغة في الإدراك والتمييز وتشكيل الوعي، وما كان اختلاف الحضارات إلا نتيجة لاختلاف اللغات والألسنة، حيث تصنع كل لغة عالما من المعرفة والثقافة يختلف عن اللغة الأخرى.

فإذا انتقلنا إلى الوعي الجمعي نجد أنه ذو طبيعة تراكمية تتشكل بفعل تلك المشتركات بمعناه العام، ويحمل نوعا من الانعكاس الكلي الذي يشير إلى إسقاط ذات جماعة معينة على الكون والمواضيع والحقائق. وهذا الإسقاط ينطلق من شعور ذاتي جماعي وتصورات ذهنية للجماعة تعكس رؤى الأفراد الذين لهم صلة بالجماعة بشكل عام، وعموماً يستخدم مصطلح الوعي الجمعي في إشارة للمشاعر والتصورات التي تميز جماعة أو شريحة محددة عن جماعة أخرى، وقد تنتظم تلك الجماعة انتظاما فكريا أو ماديا ضمن قطاع أو شريحة أو فئة أو جهة أو موقع جغرافي أو نشاط معين لتمييزها عن غيرها من الانتظامات ضمن مجتمع أوسع. ولأن الوعي عملية انعكاس متبادل بين الإنسان والوسط، فهي تتضمن عمليتين متلازمتين لا يمكن الفصل بينهما : الانعكاس والإسقاط. فالوعي انعكاس وتجسيد للوجود في الذات شكلا ومضمونا، وإسقاط للذات على الوجود عقلا وروحا. بمعنى أن الوعي عملية انعكاس متبادل تترافق مع عملية تشكيل (Formation) للذات الاجتماعية عبر انخفاض متواتر للذات الفردية، فهو لذلك يتضمن أساسا واقعا ماديا وتصورا

¹ نعوم تشومسكي : اللغة ومشكلات المعرفة (محاضرات مانجوا) - ترجمة : حمزة بن قبالان المزيني - دار توبقال - ط1 المغرب 1990م.

ذهنيا عقليا في ذات الوقت، قابلا للتحوّل عبر المراحل الزمنية المختلفة... وبالتالي إذا أردنا تشكيل أو تطوير الوعي الجمعي لأي مجتمع فهذا يعني أن على هذا المجتمع أن يرفع من نسب القراءة للكتب الثقافية العامة حتى يزيد من نسب "المشاركات المعرفية الراقية" خاصته، وبالتالي يتطور وعي - ذلك المجتمع- الجمعي ويصبح أكثر قدرة على إدارة أموره بشكل أفضل وعلى الإبداع والتطور والتنمية ، فإذا تشكّل الوعي الجمعي بالشكل المطلوب" تشكّلت معه "الهوية، وإذا كان المجتمع "غير مثقف" ، وبغض النظر عن مدى انتشار التعليم عنده، فإنه سوف يكون تحت تهديد طغيان وغزو الثقافات الأخرى..! فكما وضحنا سابقا أن الوعي يتميز بالكلية، فإذا كانت "كلياته" المعرفية ضعيفة في عالم متسارع التطور، فإنه -فطريا - سوف يجذب إلى كليات الآخرين وبالتالي يستورد هويات الآخرين. أما البديل الآخر لهذا المجتمع ضعيف المشاركات المعرفية وبالتالي ضعيف الهوية هو البحث في ثقافة الاصلية، حتى يشكل الهوية القوية التي تناسبه. ويصوغ المسدي العلاقة بين اللغة والهوية العربية التي بدونها ما كان يُتصور للعروبة ولا للقومية ولا حتى للإسلام مفهوم خارج حصون اللغة، ولو رما اختزال الظاهرة الكبرى في معادلة صغرى لقلنا إن تاريخ العرب في مصاعده كما في منازلهم يكتب من خلال تاريخ لغتهم مدها وجزرها"¹ فعلاقة الذات بذاتها وبالعالم تتحدد من خلال اللغة، فهي "تشكّل هوية الفرد الذاتية، وإدراك المرء الحسي للعالم يتحدد بواسطة بنية لغته القومية"² . وهنا يأتي دور الثقافة بمحركاتها المتنوعة ومنها اللغة، فهي كفيلة بتحقيق الوعي الجماعي في المجتمع، وليست العلوم المتخصصة، فمثلا أنا وأنت والكثير من العرب نتشارك في اللغة العربية، على أنها مُعلمات موجودة في رأسك وفي رأسي، وبالتالي استطعنا التواصل، وتحقيق موضوع ما ودراسته مع مجتمعنا... هذا وعي عام ناتج لمعلومة مشتركة، وهي اللغة التي يتحوّل بها الأفراد من مجرد جماعة بشرية إلى مجموعة ثقافية"³

فاللغة في نهاية المطاف تشكل صورة المجتمع عن نفسه، وتعكس أولياته وكيفيات تعبيره عن ذاته وطرائق فهمه لعلاقته بأفراده وبالآخرين وبالعالم، بيد أن اللغة لا يتصل معناها الشمولي بالمجتمع وبصورته عن نفسه فحسب، بل يتصل أيضاً بالتطور الثقافي الاجتماعي ووعي هذا المجتمع بذاته ومهامه وأولياته وتوّقه إلى الاتصال بالحضارات الإنسانية الأخرى والتفاعل معها دون التخلي عن الخصوصيات الثقافية لأبنائه.

1 عبد السلام المسدي، الهوية العربية، والأمن اللغوي، دراسة وتوثيق، المركز العربي للأبحاث والدراسات، بيروت 2014، ص 25

2 جون جوزيف، اللغة والهوية (قومية - إثنية- دينية) ، عالم المعرفة عدد 342 الكويت 2007م. ص 86

3 عبد السلام المسدي دراسة في (كتاب اللغة العربية إلى أين)، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - 1426هـ / 2005م

2- الهوية Identity

المتأمل لمناقشات علماء الاجتماع حول مفاهيم الهوية يلاحظ أن النقاش لا ينتهي حول المفاهيم الأساسية الخاصة بها، وبالتالي نجد أن الأسئلة المطروحة حولها يحفها كثير من الغموض، وذلك من جراء التغير الطارئ على البنى المجتمعية، ومن ثم كان من المستحيل تقديم بيانات نهائية أو أحكام مضمونة فيما يخص ما يتخذه الباحث من مواقف وما يتبناه من اختيارات، فالمصطلح محل النقاش شديد الالتباس والمراوغة، لكن ما يعتقده الباحث هو أن مسألة الهوية وأزمتها لا تطرح للنقاش إلا في فترات التآزم والضغط، وهذا ما يذهب إليه Kobena Merker حيث يرى " أن الهوية مسألة مطروحة للنقاش عندما تكون مأزومة، ويتزحزح من مكانه ما كان ثابتا متسقا مستقرا"¹، لكن في الوقت ذاته لا تمثل الهوية أمرا ضارا أو مرفوضا، وهي كاللغة ترتبط بالتحيز المعرفي، فهي حاضرة" بصفتها ثقافة وسياقا إنسانيا واجتماعيا مختلفا، لا أسوارا تفصل الذات عن الآخرين، فالهوية أمر محمود، ولا يعني حضورها انغلاقا، ولكن وعيا وقدرة على نقد الآخرين من دون استلاب أو انبهار بهم أو انغلاق عليهم"² في معاجمنا العربية القديمة لم يرد ذكر للهوية، فلم يذكرها لسان العرب، أو القاموس المحيط، لكن الجرجاني (ت816هـ) في التعريفات عرفها أنها " الحقيقة المطلقة، المشتملة على الحقائق، اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق"³، وهذا المعنى يجعل الهوية كمرادف للحقيقة المطلقة في عالم الغيب وهو يختلف عن المعنى الراجح للكلمة اليوم، وعليه ذهب المترجمون العرب القدامى لتوظيف علم الاشتقاق لمقاربة مفهوم الهوية، فاشتقوا كلمة الهوية من (الهو)، فالمعنى الفلسفي للهوية هو ما يكون الشيء هو نفس، أما الكفوي فيوضح في كليته أن الهوية تطلق على معنى ثلاث: التشخص والشخص نفسه والوجود الخارجي، ويفرق بين الهوية والماهية والحقيقة بقوله " ما يسمى به الشيء هو هو على اعتبار تحققة حقيقة ذاتا، وباعتبار تشخصه يسمى هوية، وإذا أخذ أعم من هذا الاعتبار يسمى ماهية... وقال بعضهم الأمر المتعقل من حيث أنه مقول في جواب (ما هو؟) يسمى ماهية، ومن حيث ثبوته في الخارج يسمى حقيقة، ومن حيث امتيازه عن الأغيار يسمى هوية... واعلم أن الهوية جزئية مكفوفة بالعوارض، فاعلة للصفات الخارجية"⁴.

1 Kobena Merker: welcome to the jungle Jonathan Rutherford(Ed)

Identity Community, Culture, Difference, London Lawrence and Wishart.1990. p4

2 عبد الوهاب المسيري، الهوية والحركة الإسلامية، حوارات3، تحرير سوزان حرفي، دار الفكر، د1 دمشق 2009، ص148

3 الجرجاني(علي بن محمد .علي بن محمد الجرجاني): التعريفات تحقيق ألبراهيم الإيباري دار الريان للتراث، القاهرة.. دت ص320

4 الكفوي (أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني): الكليات، القسم الثاني، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت ط2 1998م ص961

إن أهم ما يستوقفنا في تعريف الكفوي تفرقة بين الهوية والماهية من ناحية، وتأكيد على عرضية الهوية وقابليتها للتغير من حيث كونها جزئية، بخلاف ذلك وبعض إشارات للتهانوي وابن رشد لا نجد اهتماما يذكر بتوضيح معالم المفهوم وأبعاده، فمن الواضح أن خطاب الهوية العربية لم يتبلور بصورة واضحة إلا إبان القرن العشرين مع ظهور حركات القومية العربية، على الرغم من حضور الوعي به وتجذره عبر تاريخ الحضارة العربية ودور اللغة الممتد في ثنايا هذا الخطاب في مختلف مراحلها على النحو الذي أوضح عبد العزيز الدوري بالتفصيل في كتابه عن التكوين التاريخي للأمة العربية، فمن خلال تتبعه التاريخي لمراحل تكوين الهوية العربية التفت إلى دور العربية الرئيسي في تكوين تلك الهوية لحد اعتباره أن اللغة العربية هي التي أعطت التكوين محتواه باعتبار الرسالة العربية رسالة ثقافية¹.

ربما لم تُرصد بعد في ثقافتنا العربية تحولات العلاقة ما بين اللغة العربية والهوية، ومن ثم لم تظهر آثارها في خطابنا اللغوي إلا متأخراً، وبرز في عدد من الكتب والمؤتمرات والمراكز المتخصصة والمواقع الإلكترونية والمجامع اللغوية التي تركز على هذا الأمر وهو وعي لغوي جديد يستحق الإشادة، فكل من اللغة والهوية يتضمن بذور التغير والتطور في إهابه، فكانت النظرة الثبوتية هي السائدة على الجانبين، ونظرنا إلى اللغة القائمة على التقديس، ونظرنا إلى علاقتها بالهوية بمجرد اعتبارها أساساً من أسس بناء الهوية، وهي الهوية القومية غالباً، علماً بأن النظرة إلى الهوية ومفهومها هو الذي يحدد فاعلية هذا المفهوم أو جموده، بل يحدد علاقة المجتمع وموقفه من كثير من القضايا، كتلك التي تتعلق بالذات والآخر والموقف منه، والتراث وعلاقتنا به، والتعليم والمحتوى المطلوب أن تتضمن مناهجه، فنحن إما أمام نظرة تُجمد الهوية باعتبارها معطى أحادي غير قابل للتحويل، وإما أمام نظرة تؤمن بالتعدد والتحول الفاعل والنشط، وكلا الموقفين يرتبط برؤية كل فريق للكون وصيرورة الزمان والمكان، فإما أن ننظر إلى الزمان كصيرورة يفصل فيها حاضر متحرك الماضي عن المستقبل، أو نجعل منه حركة التباعد التي تتخر الحاضر نفسه، وتمنعه من أن "يحضر" ويتطابق، فتمنع بذلك "الذات" أن تمثل لنفسها، وتجعل الهوية حركةً ونشاطاً وفعالية وليس تغنياً بأمجاد ضائعة، والأهم من ذلك أنها تنقل الآخر ليسكن الذات فلا يظل مجرد مهدد خارجي يتصيد لحظات "الغزو" والاكتماس²، فمفهوم الهوية يحتاج إلى مراجعة مستمرة في ضوء المتغيرات المتلاحقة، خاصة مع تغير المشهد الثقافي العالمي بما أفضي إلى إضافة لتصدر العامل اللغوي أمام سائر المقومات المحددة للهوية.

وفي هذا الإطار يكشف عبد الوهاب المسيري عن تبعيتنا الفكرية للغرب حتى في مسألة الهوية، فيرى أن الإدراك الغربي (والإدراك الذي ساد العالم العربي) للهوية يتأرجح بين نقطتين

¹ عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية (دراسة في الهوية والوعي)، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت 1986، ص92
² عبد السلام بنعبد العالي: نحو نشأة مستأنفة، فكر ونقد، عدد 11، سبتمبر 1998م دراسة على موقع الجابري

متناقضتين، الأولى نقطة صلبة تقوم على ثنائية قطبية حادة (أنا مقابل الآخر) كما فعل النازيون والصهاينة في الغرب وبعض السلفيين والقوميين المتعصبين، أما الثانية فهي نقطة سائلة تذوب فيه الحدود والهويات¹، هذه الحدية القطبية تتنافى تماما مع منهج الوسطية الإسلامي وتعد نوعا من التطرف الذي لا يرى الآخر إلا من منظور مادي، لذلك يقترح عبد المسيري أن ننظر إلى الهوية باعتبارها "صورة مجازية لا جوهرًا ثابتًا في إطار فكرة الإنسانية المشتركة"² ولطن خطورة هذه الفكرة تتعلق بخضوعها الدائم للأهواء، وبالتالي يظل الحديث عن دور اللغة في بناء الهوية غير أكيد بل أقرب للحرث في البحر، مادام مفهوم الهوية غير واضح الملامح وأقرب إلى الجمود والتكلس منه إلى الفاعلية والتجدد، خاصة إذا عرفنا أن الهوية في تعريفاتها الحديث صارت أقرب ما تكون لمفاهيم الخطاب والسرد، يقول Bryan S. Turner "الهوية بالنسبة للكثيرين هي القدرة على سرد ذاتك ومجتمعك المحيط بصورة تشبه السرد المتكرر المستمر، مع إعادة صياغته وفقا للمستجد من الظروف"³، فهوية الإنسان وخصوصيته، هي مجموع نشاطات مستمرة متغيرة لا تحتفظ بهويتها النقية المتحجرة، ومن ثم تتماس مباشرة بتحويلات الهوية المبنية على هذا الأداء في كُليته "وفي صميم الأداء يوجد الاحتمال، بل والميل إلى التغيير والاستبدال"⁴، بيد أن الأمر المهم في تلك الأداءات هو الوعي بها، حيث "لم يعد الوعي هو ما يستجيب للواقع، بل غدا الوعي هو ما ينتج الواقع، ولم يعد ثمة واقع منفصل قبل أن تعمل إطارات العقل المفاهيمية على تأطيره في تشكيل محدد ومن ثم معالجته وتحويله إلى حكايات"⁵، والأمر ذاته يؤكد جون جوزيف، إذ تمثل الهوية - وفقا لقوله - في الدراسات الحديثة خطابا أدائيا، حيث أصبح من المؤلف التعامل مع الهويات الجماعية عموما، سواء أكانت قومية أو جنسية أو متعلقة بالأجيال أو ما شئت، هي مطالب جرى التعبير عنها عبر الأداء ويتحقق وجود هوية ما بمقتضى مطالبة الناس بها⁶، وهو ما يرتبط بالأساس بوعيهم بتلك المطالب المؤسسة للهوية، فالوعي الفاعل يسهم في تبلور الهوية وبنائها، وهو ما يعوزه لغة تشكل هذه الوعي وتكسبه وجوده الفاعل.

إن الهوية ليس أقنوما ثابتا لا يعترضه التغيير من بين يديه أو من خلفه، بل إنها مسألة استرجاع واستحضار، لا من أجل الإنغلاق على الذات بالمحافظة والحراسة، بل من أجل إعادة البناء والتشكيل، على سبيل الخلق والتوليد⁷، فالهوية الفعالة هي التي تزدهر مع المراجعة، وهي القادرة على التوسع والانتشار، عبر عمل نقدي فعال، يطال المسلمات والثوابت ويكسر

1 عبد الوهاب المسيري، الهوية والحركة الإسلامية، حوارات3، تحرير سوزان حرفي، دار الفكر، د1 دمشق 2009، ص146

2 المسيري، الهوية والحركة الإسلامية، حوارات3، تحرير سوزان حرفي، دار الفكر، د1 دمشق 2009، ص146

3 Bryan S. Turner : The Cambridge Dictionary of Sociology- Cambridge University Press 2006.p278

4 مارفن كارلسون فن الأداء، مقدمة نقدية، الهيئة المصرية للكتاب، مكتبة الأسرة القاهرة 2010 ص306

5 جيسي مانز، تطور الرواية الحديثة، ت لطيفة الديلمي، دار المدى، ط1 2016، ص299،

6 جون جوزيف: اللغة والهوية (قومية - إثنية- دينية)، عالم المعرفة، عدد 342، الكويت 2007م.ص42

7 على حرب :حديث النهايات فتوحات العولمة ومآزق الهوية - المركز الثقافي العربي ط2 بيروت 2004م.ص186

القوالب والنماذج، بقدر ما يجدد القيم والمعايير أو يولد المفاهيم الخارقة والأفكار الحية"¹، فالخصوصية في الهوية هي خصوصية تاريخية بمعنى قابليتها للتغير والتطور مجتمعيًا وتاريخيًا بتغير وتطور المجتمعات والأوضاع والأحوال والخبرات، وتنامي أشكال الوعي والثقافات والمنجزات والإرادات والقدرات والمصالح المختلفة، وتجميد هذه الهوية وتحويلها إلى نسق أو أنساق ثابتة، هو تهميش للهوية بل طمسها موضوعيًا وإنسانيًا، بل تجميد للمجتمع والتاريخ معاً"²، بل إنها لا تقدم نفسها إلا كحركة لا متناهية للضم والتباعد، أما التطابق فلا يكتفي بأن يضم كل التفردات في كل موحد، بل يلغي أغلبها ويقضي عليه في سبيل إعلاء عنصر على حساب العناصر الأخرى، الوحدة الثانية وحدة تعددية، أما الأولى فهي اختزالية لا تقوم بعمليات جمع وضم، وإنما بعمليات قسمة واختزال"³

من ناحية أخرى لا تتجلى الهوية إلا في ضوء الآخر، فهويتك ليست مجرد مفهوم الفرد للذاته وإنما تتعلق بتصور الآخرين له، وهذا ماوضحه مايكل هشت Michal Hecht في حديثه عن نظرية الاتصال في الهوية، وتفرقت بين الهوية الشخصية أو مفهوم الفرد عن الذات، والهوية المعبر عنها أي في تصور الآخر"⁴، فلا يكون الفرد هوية دون الرجوع ضمناً إلى الآخرين، هم مرآة الذات التي تنعكس عليها الهوية بالمشاركة في التفاعل، إن الوعي بالذات يمر عبر الآخرين"⁵، الهوية "ثمرة جدلية تضعها في مقابل ما يخالفها، أو قل تضعها في مقابل ما تعي أنه يخالفها، فيحصل من وعيها بمخالفتها إياها وعيها بنفسها كماهية - أو هوية- مختلفة. وهكذا لا يكون الآخر آخراً لأن الأنا تراه كذلك (آخراً)، وإنما تكون الأنا أنا لأنها تعي نفسها كذلك (أي أنا) من خلال آخر ينيبها إلى نفسها ويدفعها إلى الشعور بأنيتها أو باختلافها وتمايزها"⁶.

ونحن - العرب- علينا أن نتوقف عند الآخر فيما يخص الهوية، إذ الآخر بالنسبة لنا هو من كان يستعمرنا، ويحاول فرض نماذجه الثقافية الخاصة بالهوية، ويمارس أنواعاً مختلفة من الضغط والإكراه، وذلك من أجل دفع المجتمع المستعمر إلى التكيف مع هوية أخرى مختلفة وإلى تمثل سلوكاً آخر وخصائص شخصية أخرى، هنا تبرز أهمية الإكراه السيكولوجي؛ لتدفع المجتمع قسراً إلى اكتساب هوية سلبية تتعرض لعملية تبخيس دائم، وبالتالي تطرح هوية المستعمر نفسها كنموذج للهوية المثالية، ومن ثم تتولد ثقافة مشوهة تنطلق من معيارين متناقضين: التراث (الثقافة الأهلية) والمعاصرة (ثقافة المستعمر) تطرح نفسها في كل المجالات الاجتماعية والاقتصادية والدينية

1 على حرب حديث النهايات فتوحات العولمة ومآزق الهوية ، ص 24.

2 محمود أمين العالم : الفكر العربي بين الخصوصية والكونية، دار المستقبل العربي، القاهرة 1996م، ص 16

3 عبد السلام بنعبد العالي : ضد الزهن، دار توبقال للنشر، ط1 المغرب 2005م، ص 18

4 جون جوزيف : اللغة والهوية (قومية - إثنية- دينية)، عالم المعرفة، عدد 342، الكويت 2007م.

5 عادل بن الحاج رحومة: تنشئة الهويات الفردية عند الشباب عبر الفضاءات الاتصالية والمعلوماتية، إضاءات،

مركز دراسات الوحدة العربية- 9ع- بيروت 2010م، ص 137

6 عبد الإله بلقزيز: الآخر والأنا في الوعي العربي المعاصر، التسامح، عدد 18 سلطنة عمان، ربيع 2007م، ص 63

واللغوية أيضا، هذا ما ذكره أليكس ميكشيل¹، وواضح أن الأمر لا يحتاج إلى تفكير عميق لنعرف طبيعة الاستلاب الذي تعيشه الهوية العربية على مدى قرن من الزمان، وإن زادت حدة هذا الاستلاب في ظل العولمة، وما نتج عنها من هيمنة أمريكية ثقافية وسياسية واقتصادية وإعلامية سمحت بالانتشار السريع للغة الإنجليزية، فيما يعرف بالإمبريالية اللغوية *linguistic imperialism* وفقا لما طرحه روبرت فليبسون Robert philipson في كتابه الشهير، إذ صارت اللغة الإنجليزية في نظر الكثيرين ذلك الطرف المذنب في القتل اللغوي أو حتى الإبادة اللغوية. على حد قول سكوت ل مونتجمري²، إن المفردات السابقة تكشف بما لا يحتمل الشك خطورة أمر اللغة والأبعاد السياسية والقومية والأخلاقية التي تطرحها، وكل هذا يؤكد على أهمية وجود وعي لغوي فاعل، يدرك طبيعة العلاقة بين اللغة والهوية التي قد تصل إلى حد التطابق،" فقد يحدث انسجام بين اللغة والهوية، فتغدو لغة الهوية مشبعة بهوية اللغة، وتصبح هوية اللغة علامة بارزة لهذه اللغة، وكلتاها سيدتان ومسودتان، فصحيح أن الإنسان هو الذي يصنع اللغة، إلا أنه أسير لها ولا يخرج عن قوانينها... والهوية هي التي تنقل اللغة من مرحلة القوة إلى مرحلة الفعل؛ أي من حروف وكلمات وجمل إلى تعبير عن الذات تجاه الذات، والذات تجاه الآخر. فاللغة كالهوية، وكلاهما يحمل بذور تغيره وتطويره، بل إن تحولات مفهوم الهوية في الفكر الغربي ارتبطت في مراحل الكبرى وتحولاته من المركزية إلى التفاعلية باللغوية وتحولات دراستها، فيرى ستوربات هول أن ثمة خمس محاولات مركزية ثم خلالها نزع المركزية عن ذات (التنوير) صاحبة الهوية الثابتة والمستقرة، وتحولها إلى هويات مفتوحة ومتناقضة وغير مكتملة ومفتتة وعائدة إلى ذات ما بعد الحداثة بدءا من لاكان وصولا إلى الحركات الاجتماعية النسوية مروراً بفرويد، ودو سوسير، وديدا وفوكو³، أما كلود دوبار، فيفرق بين مفهومين للهوية الأول جوهرية، والآخر اسمانية، الأول يميل إلى الثبات والسكون يطلق على هذا الفارق النوعي المتصور كجوهر مشترك لجميع الكائنات المتماثلة معه في هذا الجوهر نفسه...، والهوية وفقا للمفهوم الثاني مفهوم وجودي تاريخي يتولد نتيجة عملية لغوية مزدوجة: المفاضلة والتعميم. الأولى هي العملية التي تهدف إلى تعريف الفارق أي الاختلاف، والثانية هي العملية التي تحاول تعريف المشترك في فئة من العناصر، أي الانتماء المشترك⁴، وفي أحدث تطورات علم اللغة الاجتماعي وتحليل الخطاب نُظر إلى الهوية

¹ أليكس ماكشيلي: الهوية، ترجمة على وطيفة، دار الوسم دمشق 1993. ص 148

² سكوت ل مونتجمري، هل يحتاج العالم للغة عالمية، عالم المعرفة، ع 419 الكويت 2014، ص 39

³ ستوربات هول، حول الهوية الثقافية ترجمة: بول طبر - مجلة إضافات، مركز دراسات الوحدة العربية- ع 26 ربيع 2008 بيروت. ص 150

⁴ كلود دوبار: أزمة الهويات، ترجمة: رندا بعث، إضافات، مركز دراسات الوحدة العربية ع 7 صيف 2009- بيروت، ص 36 وما بعدها.

بوصفها مسألة لغوية في جذورها¹ ، والتفكير في العلاقة بينهما من شأنه أن يحسن فهمنا لماهيتنا في أعيننا وفي أعين الآخرين وبناء على ذلك يجب أن يعمق فهمنا للتفاعل الاجتماعي " ² وفي النهاية نقول أنه برغم الغبار المحيط بمصطلح الهوية وطبيعة علاقتها باللغة، فإن ثمة ما يشبه الإجماع على أمور ثلاثة :

- دور اللغة الحاسم والأساسي في بناء الهوية.
- الهوية شكل من أشكال الوعي بالذات والوعي بالآخر
- ديناميكية الهوية وتغيرها، ومجافاتها للثبات .

فالهوية نوع من الإدراك الذهني الذي لا بد أن ينعكس على سلوك الفرد والجماعة³، واللغة- منظورا إليها من زاوية الهوية- ليست مجرد أداة تواصلية محايدة وسلبية، بل هي كائن إيجابي وفاعل في إعادة إنتاج ذات الهوية، وتطويرها أو - على العكس من ذلك تدهورها وتحللها⁴ ، مع ملاحظة أن التماهي بين الهوية واللغة لم يبلغ تمامه الأقصى في الثقافات الإنسانية كما بلغه عند العرب بكل اطراد تاريخي وبكل تواتر فكري واجتماعي ونفسي⁵، وهذا التماهي يتطلب الوعي بطرفي المعادلة الحاكمة للوجود العربي، فيما أعتقد ومدى تفاعلها بحيث أن كل واحد من الطرفين أساسي لوجود الآخر يغذيه ويعطيه من نسغه كل قدرة على التجدد، والوعي بخطورة إهمال أحدهما بقصد أو بدون قصد. ومن ثم نصل إلى ما يشبه الحقيقة أنه لاهوية دون وعي ولا وعي دون لغة، وهو ما يتطلب خطابا لغويا مخلصا للخطابات السائدة التي تقوم على التبعية ومنافحتها في دورة جدلية لا تنتهي، ولا تخرج بالعربية من مأزقها المعاصر، إذ إن ما يستجد من قضايا مثل العولمة والهوية والتواصل بأشكاله لا يكن طرحها بعيدا عن اللغة بحال.

¹ جون جوزيف: اللغة والهوية (قومية - إثنية- دينية)، عالم المعرفة، عدد 342، الكويت 2007م. ص31

² جون جوزيف: اللغة والهوية (قومية - إثنية- دينية)، عالم المعرفة، عدد 342، الكويت 2007م. ص34

³ محمد أمارة: اللغة العربية في إسرائيل (سياقات وتحديات)، المركز العربي للتحقق والسياسات- 1010م. ص26

⁴ محمد جبرون انشقاق الهوية جدل الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى من منظور تاريخي من كتاب اللغة والهوية بالوطن العربي إشكاليات تاريخي وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت 2013، ص52

⁵ عبد السلام المسدي، العولمة والعولمة المضادة، كتاب سطور، القاهرة 1999م، ص389.

الفصل الرابع : الوعي اللغوي العربي مستوياته وإشكالياته

- المبحث الأول مستويات الوعي اللغوي
- المبحث الثاني إشكاليات الوعي اللغوي العربي

من المفترض أن للوعي اللغوي - كأى نوع من أنواع الوعي - بنية متسقة قوامها الخبرة الانفعالية والرؤية، حيث تلعب الخبرة الانفعالية دورا بارزا في تشكيل الوعي اللغوي، وهو ما يتأتى من خلال محتوى يحرك ويكوّن في الوقت نفسه تلك الخبرة الانفعالية لدى المتلقى، وذلك بالحديث عن الموضوع في كليته قبل أجزائه، وكما تقول الجاشطلت إن الكل أكبر من مجموع الأجزاء، هذه الخبرة يترتب عليها العنصر الثاني للوعي اللغوي، وهو الرؤية بما يطور من دلالتها ويوجهها بما يشكل قناعات الشخصية واختياراتها الحياتية وهذا ما يُعبر عنه في بحثنا الحالي بموقع الفرد من إشكالية اللغة الأم ومعاركها المختلفة، ويزيد ارتباط الوعي اللغوي في هذا النوع من اللغات المرتبطة بالعقيدة الدينية كاللغة العربية.

وكما ذكرنا فإن الوعي اللغوي يمثل عملية انعكاسية تنتقل فيها الذات من دراسة اللغة ومكوناتها الداخلية، إلى فاعليتها التي هي فاعلية الذات، حيث تصف اللغة ذاتها بذاتها وتجعل من ذاتها مرآة لها، فالوعي اللغوي في أوضح صورة، يتماس بدون موارد مع الوظيفة الميتالغوية أو الفوق لغوية التي تحدث عنها ياكبسون في ترسيمته الشهيرة، بدءاً من التفات طفل إلى كلامه، وسؤاله عن معنى كلمة ما حتى الوصول إلى مستويات تتسع دوائرها مواكبة لما يطرأ في البيئة اللغوية من تغيرات متوالية، ومن ثم يؤدي الوعي اللغوي دورا معرفيا ووجوديا، على مستوى إدراك الإنسان للغة وطبيعته وإشكاليته، وعلى مستوى تأكيد حضوره الفاعل بصورة يتبلور على أثرها موقفه ورؤيته تأملية نقدية للغة من حيث كونها فعل تأمل ونقد لذاته بالأساس؛ لذا يتعين أن يؤسس الوعي اللغوي على إقرار بات يتعشق حريتين، حرية اللغة وحرية المبدع¹، ويترتب على هذا الوعي عدة خطوات إجرائية يتم وضعها في إطار التخطيط والسياسة اللغوية، بوصفها عملة تتضمن عدة محاور منها الاختيار لها بوصفها لغة رسمية، والتدوين وفق أطر وقواعد كتابية متعارف عليها والتطبيق بوضعها موضع التنفيذ في المؤسسات المختلفة.

والمتمثل للمشهد اللغوي العربي يلاحظ انحسار الفصحى في الإعلام وقاعات الدرس بصورة تكشف عن غياب تام للوعي اللغوي، بل تغيب على مستوى الخطاب الثقافي عموماً، وكما يقول المسدي تخوض الفصحى معركة من أجل البقاء التداولي تجري على ساحات ثلاثة متوالجة... دائرة الثقافة، والإعلام والتعليم، في دائرة الثقافة يحضر الوعي اللغوي، كلما تعلق الخطاب الثقافي بالمكتوب المقروء، ويغيب كلما تحول الأمر إلى التواصل الشفاهي وتداول تلقائي حتى بين المتخصصي الفصحاء المهرة، كذلك في الإعلام لا يظهر الوعي اللغوي إلا في نشرات الأخبار

¹ منير الحافظ، الوعي اللغوي، م س، ص 62

المكتوبة، ويغيب في البث المباشر، والأمر ينطبق على التعليم حتى تعليم اللغة ذاتها¹، وهو ما عاد المسدي ليؤكد في كتاب آخر، حيث يقول: "إن قضيتنا المستعصية نحن العرب اليوم هي أن الوعي اللغوي لدينا ينبري حاضرا ما دام الأمر متعلقا بمستوى المعرفة التي يحملها الحرف المكتوب، فإذا غاب النص والمتن والخط غاب بغيابها وعينا بوزن اللغة، ووعينا بخطر اللغة ووعينا بأن اللغة سلاح حضاري في أيدينا"²، أضف إلى ذلك مختلف معطيات المشهد اللغوي من أسماء الأطفال والمحال والشركات وشتى أشكال المعاملات الاقتصادية، بصورة تركز لما يشاع عن العربية أنها غير تواصلية، في المقابل تفرض دولاً مثل فرنسا على معلمي المواد الأخرى مثل الرياضيات والعلوم أن تدرس باللغة الفرنسية الأساسية. كذا نجد مع انتشار الأمية - وهي عامل أساسي في إشكالية الازدواجية اللغوية - جعل السامع وسيلة أساسية، ومن ثم أفضى لمزيد من تكريس العامية على حساب تهميش الفصحى، فلو سألنا أنفسنا ما أنواع الخطاب الفصيح الذي يستمع إليه عامة الشعوب العربية؟ نجد أنه يتمثل في الجانب الدين كخطبة الجمعة وبرامج دينية بعينها أو الغناء - إن كان الغناء فصيحاً - أو خطب سياسية أو مسلسلات دينية فصيحة اللغة، أو برامج أطفال مما تقدمه قنوات عدة، فإذا كانت العامية ضربت بأطنابها في مفاصل كل هذه الخطابات، فلا عجب أن نجد هذه الموقف من الفصحى وانعزالها حياتيا ورقميا، ولم يبق من مساحات لها على مستوى السماع اللهم إلا القرآن الكريم، والحديث النبوي وما يروى في بعض البرامج الثقافية، وهذا الغياب على مستوى المسموع يدانيه غياب على مستوى المقروء حتى بين فئات القراء وقليل ما هم، إذ نجد مزاحمة من اللغات الأخرى، واللهجات التي صارت سادت في الإعلام وما تستخدمه مواقع التواصل الاجتماعي، مثل الفرنكو، والعرتيني والعربي³ وغيرها من اللغات المنتشرة بين الجيل الرقمي الجديد والتي تمثل نقلة أساسية في طرائق التواصل اللغوي.

لذلك تحتاج اللغة العربية جهدا إضافيا لاستعادة كثيرا من أرضيتها التي فقدتها بفعل عوامل عديدة اجتماعية وثقافية وسياسية، وذلك لكثرة الإشكالات المحيطة بها من ازدواج لغوي وتغريب وتخلف علمي وتعليمي وأممية مستشرية، فكل هذا يفرض المزيد من العمل لتنمية الوعي اللغوي وبنه في النفوس، مع التأكيد على أن الحكومات ومؤسسات المجتمع هي المنوطة بالدور الأهم في ذلك. ولن يتحقق الوعي اللغوي إلا بالكشف عن عظمة هذه اللغة - بعيدا عن العنتريات الجوفاء أو الشوفونية الزائفة - فجوانب العظمة لا بد أن تكون منطقية قائمة على الحجة والبرهان، فلا يعنى حفظ القرآن الكريم حفظ اللغة العربية من التدهور والانحطاط، لأن قوة اللغة من قوة أهلها وقوة

1 المسدي، العولمة والعولمة المضادة، كتاب سطور، القاهرة 1999، ص 412

2 عبد السلام المسدي، الهوية العربية، والأمن اللغوي، دراسة وتوثيق، م س، ص 205

♦ العرتيني Arabtin، كلمة منحوتة تعني العربية واللأينية والعربي Arab-ez كلمة منحوتة تعني العربية والإنجليزية،

مشاركتهم في صنع الحضارة، واللغة العربية أكثر اللغات على ظهر الأرض ارتباطاً بالثقافة، ووجود القرآن الكريم بين ظهرانينا يتلا آناء الليل وأطراف النهار يعطى فرصة لربط بين الوعي الدينى والوعي القرآنى، فهما متلازمان، والوعي الصحيح يتحول في مرحلة من مراحلها العليا إلى عقيدة راسخة، وبناء على ذلك نجد أن الوعي اللغوي يتشكل في مستويات عدة، ولن نجنح إلى التقسيم السائد القائم على مهارات تعلم اللغة ونمائها كالوعي الصرفي والصوتي والنحوي الذي درج كثير من التربويين على تربيته، إنما سننطلق من تمييز علماء علم اللغة الاجتماعي، بين مستويين أساسيين من مستويات اللغة:

1- اللغويات الوظيفية النظامية (SFL) Systemic Functional Linguistics :

وتعرف بأنها "نهج تحليل اللغة لا سيما الأكثر ارتباطاً بعمل. فاللغويات الوظيفية النظامية على حد سواء هي نظرية اللغة إلى طريقة التفكير في سبب وجود اللغة كما هي، وهي مجموعة معقدة من الأدوات لتحليل النصوص الفعلية. الفرضية الأساسية من اللغويات الوظيفية النظامية هي أن اللغة وظيفية، هذا المصدر يضع المعنى الذي تطوّر لتلبية الاحتياجات البشرية؛ ولذلك يركز تحليل اللغة كما هي مستخدمة في سياقها الاجتماعي. تطوّرت الفئات التحليلية الرئيسية التي يتم تنفيذها واستعمالها Register في مختلف Genre جوانب هذا النشاط؛ لأنها تؤثر في استخدام اللغة: الحقل (الموضوع Field)، والمغزى Tenor العلاقة بين مستخدم اللغة، مثل الرسمية أو غير الرسمية، والوضع Mode مكتوب Written، منطوق Spoken، بصري Visual يركز تحليل النصوص اللغوية على نظم الاختيار المتاحة من اللغة، على سبيل المثال: اختيار المبنى للمعلوم بدلاً من المبنى للمجهول Passive Voice في العبارة.¹ فهذا المستوى من اللغة يمثل مستوى من الوعي القديم الملاصق باللغة، في بناء أدواتها التحليلية صرفاً ونحواً وتركيباً.

2 - اللغة العليا (الفوقية) Metalanguage

"ويُشار إليها بلغة تتحدث عن لغة أخرى، أي أن لغة ما تُستخدم لوصف هيئة أو الجوانب المختلفة للغة أخرى. إن اللغة الفوقية قد يكون لها عدة أنواع. وهناك مثال على نوع متطور واحد من أنواع اللغة الفوقية التي تنتمي للغويات، وهو اللغويات الوظيفية النظامية Systemic Functional Linguistics معظم المدخلات في هذا المعجم هي عبارة عن أمثلة عن مختلف أنواع اللغة الفوقية، ومن هذه اللغة العليا أو ما وراء اللغة ينبثق مصطلح آخر هو اللغويات العليا: Metalinguistics، والفارق بينهما أن الأول أكثر عمومية، أم الثاني فهو ميسر الصلة بالوعي اللغوي حيث يمكن إيجاد تلك اللغويات، " في الجمل التي تحتوي على الوعي اللغوي الفوقي Metalinguistic Awareness (والمعرفة باللغويات العليا، Metalinguistic

¹ جون سوان وآخرون، معجم اللغويات الاجتماعية، م س، ص 386

Knowledge والمهارات للغة العاليا Metalinguistic Skills ،... إلخ. وهذه المسميات تساعد في الإشارة إلى قدرة المتحدث/ الكاتب على التفكير حول ماهية اللغة، وبالتالي فإنها مشابهة للوعي اللغوي Language Awareness أو لمعرفة حول اللغة Knowledge About Language، ما عدا ذلك، فإن المعرفة اللغوية في العادة تشير إلى المعرفة التي تُعَلَّم (بما معناه أن تُعَلَّم واضحة في المدارس¹، وفي هذا السياق نلاحظ أن كثيرا من الباحثين يرادف بين الوعي اللغوي وما وراء المعرفة metacognition في العموم² وهو ما يكشف عن خطورته وسعته ولذا أطلقنا عليه الوعي الأساس.

المبحث الأول مستويات الوعي اللغوي*

بناء على العرض السابق يمكننا القول إن الوعي اللغوي في حالة صيرورة مستمرة مع عملية تعلم اللغة، في المؤسسات التربوية والاجتماعية، وتمتد مكوناته لتشمل الوعي النحوي والوعي الصرفي والوعي الصوتي والوعي الدلالي والوعي الخطابي... إلخ، فهو يمتد من أصغر جزء في البناء اللغوي ليمتد اتساعا ليشمل قضايا اللغة العالقة وإشكاليات الخطاب اللغوي في المجتمع، وبناء على ذلك يمكننا تقسيم الوعي اللغوي إلى مستويات ثلاث تشكل دوائر تتسع شيئا فشيئا:

المستوى الأول:

و يبرز من خلال النشاط اللغوي الممارس في درجته التواصلية العادية سواء أكان تواصل شفاهيا أو كتابيا أو الكترونيا، حيث يمثل هذا النوع من النشاط المستوى الأول من الوعي حيث لا ينفصل الوعي عن الذات لحظة الكلام، وربما يظهر مع الطفل منذ بداية تعرفه على الأصوات وتمييزها وترديدها، وإن كان هذا المستوى لا يتأسس إلا بعد التفات النفس إلى كلامها بعد تحققه، وفي هذا المستوى تبرز الالامعات التراثية المعروفة عن الكلام والصمت و خطورة الكلمة، يمكن تعريف هذا المستوى الوعي اللغوي في أبسط مستوياته، أنه القدرة على التفكير في استخدام اللغة. كذلك يتمثل هذا المستوى من الوعي اللغوي لدى الأطفال بالاعتراف بأن التصريحات قد يكون لها المعنى الحرفي والمعنى الضمني. كما يتجلى في الإفادة بشكل أكثر تواترا وتطورا من التشبيهات والاستعارات، ومعظم الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 6 و 8 يبدأ وعيهم اللغوي باستقرار في مفاهيم السخرية والتهمك. تلك المفاهيم التي تتطلب زيادة في فهم سياق الكلام الاجتماعي والثقافي .

1 جون سوان وآخرون، معجم اللغويات الاجتماعية، م س 254، 255

2 Elizabeth M. Ellis : Language awareness and its relevance to Tesol. University of Sydney Papers in TESOL2012, 7, 1-23.

* تنوعت مقترحات كثير من الدارسين حول مستويات الوعي، فهناك من ذهب إلى أنواع وفقا لفروع اللغة ومهاراتها: وعي صوتي وعي نحوي، وعي بلاغي وعي قرآني... إلخ، وهو السائد، فيما ذهب البعض إلى أنواع ثلاثة من الوعي: لاوعي، وعي متلق، وعي مبادر، انظر دراسة منى بنت إبراهيم المديش، وعي شباب الخليج العربي بقضايا اللغة العربية المعاصرة- دراسة ميدانية، دراسة ضمن كتاب القيمة المعنوية للغة العربية لدى الشباب في دول مجلس التعاون الخليجي، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط1 الرياض 2015

وهذا النوع من الوعي اللغوي فطري في جانب ومصطنع في جانب آخر، حيث يولد ويتطور مع تعلم الطفل للغة وإدراكه لوظائفها الإشارية والدلالية والتواصلية، لذلك هو أكثر تعلقاً بالسلوك الفردي، والشعوب تختلف فيما بينها في هذا الأمر، وتحكمه عوامل مختلفة ثقافية واجتماعية وفكرية، وما يقال عنه البصمة اللغوية يتعلق بهذا الأمر، فليس الأمر اختلاف نبرات صوت أو تعبير وجه فقط، بل الأمر يتعلق بالاختيارات اللفظية وسياقاتها، وإلى هذا المستوى ننسب ما كتبه ياكوبسون عن مرض الحبسة في ارتباط بالاستعارة والكناية. والوعي في هذا المستوى اعتيادي يمارسه كل إنسان من أجل تواصل أدق، ويتماس هذا المستوى من الوعي في جانبه الموجه مع ما يعرف بالمستوى الثالث وهو "التخطيط لاكتساب اللغوي فهو معنيّ بالجهود المنظمة لنشر اللُّغة من خلال النظام التعليمي، كما يشير إلى ذلك كوبر (فتخطيط الكتساب اللُّغوي يُعنى بوضع اللُّغة أو اللُّغات في النظام التعليمي، وعلى أي أساس يكون اختيار لغة ما لتكون لغة التعليم، وآلية تعليم اللُّغة، والقرارات التي يتم اتخاذها لتعليم لغات أخرى في النظام التعليمي"¹

المستوى الثاني :

هذا المستوى من الوعي يرتبط بما يعرف "بتخطيط المتن اللغوي داخل بنية اللغة وممتنها، وهو قائم في المقام الأول على جهود اللغويين المتخصصين بخلاف تخطيط الوضع اللغوي الذي يُبنى عادة على جهود المؤسسات الرسمية وشبه الرسمية والأفراد المهتمين بالتخطيط اللغوي"²، حيث يبرز هذا الوعي فيما يمارسه النحاة واللغويون وأعضاء المجامع اللغوية، فهو نوع من التطبيق المعياري على الأنشطة اللغوية الفصيحة في الكتابة والإعلام، ومظهره ما ينتج من كتب وبرامج في التدقيق اللغوي و تصويب الأخطاء، وتتبع اللحن في الأصوات أو الصيغ أو تركيب الجملة أو حركة الإعراب، لذا نجد أنه مفهومه الإجرائي المعتاد، هو القدرة على تحديد الأخطاء اللغوية في النصوص المكتوبة، والمسموعة، وتصحيحها الكتابة السليمة، والنطق اللغوي الصحيح وفق أنظمة اللغة، أي الوعي بمختلف مهارات اللغة نطقاً وكتابة، والنظر فيما يستحدث من ألفاظ ومدى تطابقها مع الأقيسة العربية، وهو وعي لغوي ظهر مبكراً في الفكر اللغوي العربي مع شيوع اللحن بعد أن اتسعت رقعة الدولة العربية، ودخل تحت مظلتها من لا يمتلك اللسان العربي، فظهرت كتب لحن العامة، وتقييم اللسان على النحو الذي نراه في كتب، إصلاح المنطق لابن السكيت، تقويم اللسان لابن الجوزي ودرة الغواص للحريزي وتصحيح التصحيف للصفدي... إلخ ، وتواصل نشاطها في جهود المعاصرين في تقويم اللسان العربي على يد كثير من اللغويين الكبار أمثال اليازجي و خليل داغر وأنيس فريحة ومازن مبارك و مصطفى جواد ومحمد العناني

1 محمود بن عبد الله المحمود، مجلة التخطيط والسياسة اللغوية، م س، ص 15

2 محمود بن عبد الله المحمود، السابق، ص 15

وأحمد مختار عمر وشوقي ضيف ... إلخ ، وهذا المستوى على أهميته وانتشاره لن يتأتى له الرقي باللغة إلا في نطاق نخبوى محدود، وليس من شأنه أن يمهد لوعي لغوي فاعل يتغلغل حتى يصبح تيارا عاما في مجتمع ويرجع ذلك في رأينا للأسباب الآتية :-

1. المحدودية: فهو وعي يتجلى في العناية بالصحة اللغوية نحوا وصرفا ودلالة، معنيا بتصويب الأخطاء الشائعة، وأقصى ما يلتفت إليه الخطأ على مستوى اللفظ أو العبارة المفردة، دون تطويره، ليتجاوز ذلك المستوى إلى الخطاب، وسعته، وتنوع أشكاله وسلطته، وخداعه أحيانا، وهو الأمر الذي من شأنه الكشف عن إشكاليات الذهنية العربية والجوانب السلبية في التفكير العربي مثل الأحادية واليقينية، الاستغراق في التفاصيل، الاقتصار على رد الفعل، والتوفيقية ... إلى آخره من عيوب تسيطر على التفكير العربي، وتحجزه وتعيق تطوره¹، وهذه المحدودية جزء من إشكالية تعامل العرب عموما مع الظاهرة اللغوية.

2. النخبوية: " هذا المستوى من الوعي برغم شيوعه لا يعني سوى أهل الاختصاص من اللغويين أو الإعلاميين، ولا يمكن تعميمه لأسباب عديدة من أهمها انتشار الأمية، وانحسار البيئة اللغوية التي تفعل فيها اللغة الفصحى. ويفيد من هذا المستوى المعنيون بشأن اللغة، وهي فئات محدودة من قبيل الباحثين والمعلمين والإعلاميين، بل إن جل هذه الفئات انصرف عن الاهتمام بتقويم لسانه، ومن النادر أن نعالج اللغة بوصفها قضية سياسية بالأساس رغم أن السياسي مندمغ في اللغوي، ومن توهم أن الخيارات السياسية تستقيم في معزل عن الخيار اللغوي فقد ظلم السياسة وظلم اللغة وظلم نفسه، إن المسألة اللغوية قائمة في جوهر التصور السياسي ... واللغة ملازمة للسياسة، إنها العنصر المحايث لها بالفعل أو بالقوة² إن كل ما يقيد الإنسان يقيد المعرفة، يقيد اللغة، سواء كانت القيود داخلية أم خارجية، ذاتية أم موضوعية. فلا يسوغ، في نظرنا، البحث في أحوال اللغة بمعزل عن أحوال من يتكلمونها، وهنا تتبدى خطورة مسألة اللغة، وخطورة اعتبار اللغة أداة أو وسيلة، سواء للتواصل والتعارف والتبادل والتناقص والتخاطب والتبليغ.. أو للتعبير والوصف والتسجيل والتقريب والإبداع الأدبي والفني والجمالي، أو اعتبارها آلة للعقل والمنطق، أو أداة للسلطة ووسيلة من وسائلها. فهي من حيث مستوياتها الصوتية والتركيبية والدلالية سلطة بذاتها، هي سلطة المعرفة، تتضمن رؤية للعالم، لا أداة سلطة وتسلط على النفوس والعقول، أو أداة سوس وسياسة. فإن

1 نبيل علي العقل العربي ومجتمع المعرفة عالم المعرفة ، عدد 370 لكويت 2010م، ج 2، ص 21
2 عبد السلام المسدي، الهوية العربية، والأمن اللغوي، دراسة وتوثيق، م س، ص 205 ص 199

اعتبار اللغة أداة أو وسيلة لا يستبعد اعتبار الإنسان نفسه أداة ووسيلة، على نحو ما تنظر السلطات المستبدة إلى رعاياها، وعلى نحو ما تعاملهم. معرفة السلطة¹ وكل سلطة لها لغتها الخاصة في كل زمان ومكان. نستدل على ذلك بنشوء اللغات القومية، في العصر الحديث، واقترانها بالثورة الديمقراطية، في الغرب. كما نستدل عليها بتشكّل اللغة العربية الفصحى، لغة قريش، واقترانها بالسلطتين: السياسية والدينية، وبالمرئية الإثنية-الذكورية والمركزية السياسية، وتشكل ثقافة مركزية تنبذ كل ما عداها إلى الهامش، لذلك لا تنفك جدلية المعرفة والسلطة ولا تنفصل عن جدلية المتن والهامش وآليات الاصطفاء الاجتماعي-السياسي، ولا عن جدلية الثقافة الرفيعة الموسومة بالكتابة والثقافة الشفوية، أو ثقافة العامة والدهماء والرعاع.. أو بين الثقافة المكرسة والثقافة غير المكرسة واللغة المكرسة واللغة غير المكرسة²

3. الانعزالية: يقف هذا النوع من الوعي عن أشكال محددة من النشاط اللغوي بصورة تؤكد على انعزالية اللغة وانقطاعها عن المجتمع إذ لا تقترب من اللغة في إطارها التداولي، كما أن الحاكمة فيه لسلطة النحاة دون تجديد يذكر، بل ربما كان أحد أسباب التوجس من استخدام الفصحى واللجوء إلى التسكين فقالوا سَكَّنْ تسلم، إذ لا يحاسب المتكلم على الخطأ في العامية كما يحاسب على الخطأ في الفصحى، علما بأنه لا أحد يمتلك اللغة بالكلية بحكم تعاليها إذ لا يبتكر الإنسان (الفرد) لغته. وتكريسا لتلك الانعزالية نجد كثيراً من المعلمين ممن لم يختاروا أقسام اللغة العربية حبا فيها، لا يستخدمون الفصحى في شرح دروسهم ويستبدلون بها العامية .

4. ارتباط الوعي اللغوي عند جمهرة المثقفين والمتعلمين بالنص المكتوب " فإذا غاب النص والمتن والخط غاب بغيابها وعينا بوزن اللغة ووعينا بخطر اللغة، ووعينا بأن اللغة سلاح حضاري بأيدينا³، وما كان ذلك إلا نتاج سياسات تعليمية خاطئة سجنّت اللغة في الكتب ولم تخرجها للهواء الطلق ليتنفس الناس جمالياتها وبلاغتها.

لا يعني ذلك الانتقاص من هذا النوع من النشاط الواعي، فهو نشاط له أهميته وضرورته في تتبع النشاط اللغوي المكتوب، والتوسع في الأقيسة وتتبع الجديد من الألفاظ مما لم يخرج عن حدود الصحة اللغوية، وبث روح التجديد والتطوير في نسغ اللغة ومعجمها وأساليبها، وهذا يتوقف اتجاهات اللغويين ورؤيتهم لمفهوم التجديد اللغوي. ونظير هذا النشاط ما تقوم به الجامعات اللغوية من أنشطة

¹ جابر الكرمي الجباعي اللغة والمعرفة والتقدير للحرية، مجلة الجديد، لندن، ع 12، ص 42

² جابر الكرمي الجباعي، السابق، ص 42

³ عبد السلام المسدي، العولمة والعولمة المضادة، م س، ص 407 وما بعدها

لغوية مختلفة، ويعاب على هذه المجامع رغم جهودها الطيبة إنها ذات طابع نخبوي فلم تستطع فيما أرى أن تخرج بقضايا اللغة عن هذا الإطار النخبوي إلى آفاق واسطعة من النخب والشعوب على حد سواء، ولذا كثيرا ما يضرب بقراراتها عرض الحائط، " لقد حكمت الظروف التاريخية على مجامعنا اللغوية بأن تكون على هامش الإرادة السياسية لا جزءا من متنها؛ وبناء على القطيعة التي نشأت بين المؤسسة الجمعية والواقع اللغوي لازت المجامع بما يسمى أضعف الإيمان"¹

المستوى الثالث :

وهو أكثر اتساعا من سابقه إذ يرتبط بتحليل الخطاب اللغوي في عمومه، متجاوزا حد الكلمة أو العبارة إلى مختلف مظاهر النشاط اللغوي، كتابة وشفاهة وتلايح اللغات وانقراضها، ومشكلات اللغة من ترجمة وتعريب وازدواجية وثنائية، وهو المستوى الذي نوليه اهتمامنا، حيث ينصب الاهتمام على اللغة بمفهومها العام وأبعادها التواصلية الاجتماعية، وهذا المستوى يمكنه - في رأي الباحث- أن يؤكد على الهوية ببعديها الفردي والجمعي، ومن شأنه أن يؤثر في التوجه لما يسبقه من مستويات، فلن نستطيع أن نتحدث عن تقويم اللسان نحويا وصرفيا ومعجميا إلا من خلال وعي شامل متعال يلفت لضرورة ذلك وأهميته، إذ يتنبه الوعي لخطورة اللغة في أبعادها الكلية، دورها الاجتماعي وما يطرأ عليها من تغير، وما يحاصرها من أخطار، لذلك يعد الباحث هذا النوع هو الأقرب لما يقصده بالوعي اللغوي دون الانتقاص من المستويات الأخرى لكنها تأتي في مرتبة تالية، حيث إن وعي الشيء يعني - إجرائيا- إدراك ماهيته كما يعني بيان ما له وما عليه من خلال النقد الذاتي، وذلك لمعرفة قدرته على الاستمرار في الحياة، وعلى مواجهة التحديات المفروضة على طبيعة الأشياء في مختلف الميادين، يضاف إلى ذلك أن وعي الشيء يعني فيما يعنيه الوقوف على حقيقة مشاكله، لوضع الحلول الناجعة لمعالجتها، كما يعني إدراك أهميته في حياتنا وشخصياتنا فرديا واجتماعيا ودينيا وحضاريا وسياسيا، مما يفضي إلي استشعارنا لحقيقة انتمائنا للشيء الذي نعيه مدركين ما يترتب على هذا الانتماء من الإحساس العالي بالمسؤولية تجاهه، وما يترتب على هذا الانتماء من المبادرة إلى فعل كل ما من شأنه صيانة ما نعيه، وكل ما من شأنه العمل على الإفصاح في المجال له ليقوم بدوره في مختلف جوانب حياتنا، وتوفير السبل الميسرة لتأديته دوره والتمكين له، وبناء على ذلك لا يقتصر الوعي اللغوي على إدراكنا لما يحيط بلغتنا الأم من مخاطر، بل بقدر إدراكنا لحاجة تلك اللغة للتطور بما يزيد قدراتنا الحياتية على التواصل مع الآخر والتوافق مع الذات. وبناء على ما سبق يمكن أن يتجلى هذا الوعي فيما يطلق عليه (تخطيط المكانة اللغوية)، "وبشكل مجمل يستهدف هذا

¹ عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي، المركز العربي للأبحاث والدراسات، بيروت 2013، ص 116

النوع من التخطيط اللغوي الصورة النمطية للغة في أذهان الأفراد ودراستها والتأثير فيها بما يخدم واقع اللغة ومستقبلها، وتجدر الإشارة إلى أن هذا النوع من التخطيط لم يلق الاهتمام الذي يستحقه من الباحثين وعادة ما تكون الصورة، النمطية، والمواقف والاتجاهات نحو اللغة مؤثرة بشكل كبير في واقع اللغة، ومن أمثلة تخطيط المكانة اللغوية: تعزيز (من خلالها قراءة مستقبلها) صورة معينة حيال اللغة في الإعلام، وفي التعليم. وعلى سبيل المثال: حظيت اللغة العبرية بتخطيط كبير لمكانتها اللغوية، أثمر وجود صورة نمطية إيجابية لدى الناطقين بها، وعن قدرتها على مواكبة العصر، واستخدامها في كل الأغراض، والالتفاف حولها كمكون وطني ورمز ثقافي لليهود¹

وفي هذا المستوى من الوعي تتخطى مسؤولية اللساني واللغوي مجرد النقاش حول الأقيسة والأوزان والتصويبات اللغوية على مستوى الكلمة أو العبارة إلى توصيف الواقع اللغوي الثقافي بصدقته، بإيجابياته وسلبياته، فهو الذي يرصد المعطيات ويحلل ويستنتج، " لكن مكانم الخلل تبدو في وعينا المجتزأ للمسألتيين اللغوية والثقافية، وفي الأهمية المعطاة لهما في مؤسسات العائلة والمدرسة والجامعة والعمل"²، وكذلك يشمل الوعي بمخاطر التي تتعرض لها اللغة العربية، ومنها اللغة الأجنبية عندما يرافقها لدى التلميذ في مراحل التعليم العام، والشعور بأنها هي القادرة على حمل أعباء المعرفة العلمية، وبأن اللغة العربية تظل قاصرة عن أداء تلك الوظيفة، وهذا الإحساس كثيرا ما يُزودج، ويظل ازدواجه مغمورا في منطقة اللاوعي، فهو في واجهته الأمامية يخصّ جدول الألفاظ بحكم الوهم المتصل بافتقار العربية للمصطلحات القادرة على أداء الدلالات الفنيّة الدقيقة، وهو في الواجهة الخلفية يوئد الوهم بأن اللغة العربية تعجز عن صياغة الخطاب العلمي الذي يضاهي الخطاب الغربي أو يضاهيه.

والوعي اللغوي في هذا المستوى يتطلب إشراك القوى الفاعلة والحية في المجتمع للوصول إلى حلول معقولة ومقبولة تحفظ لساننا العربي، ومن ثم هويتنا القومية، فهو مسؤولية مجتمعية بالدرجة الأولى. فلاشك أن هذا الوعي اللغوي يتجلى في قمة حضوره إذا تحول من وعي نخبوي إلى وعي جمعي، وإذا كان حاضرا في البيت والشارع حضوره في المؤسسات التعليمية، كما تؤكد أنواع الوظائف التي يتغياها المتعلمون، من تعلم اللغة، ومن مشكلات الوعي اللغوي النظرة القاصرة إلى اللغة، ووظائفها، وأهداف تعليمها، وهذه النظرة تؤثر على المنهج ومحتوياته وطريقة تقديمه، وهو ما ينعكس رأسا على العوية .

1 محمود بن عبد الله المحمود، التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية، تأصيل نظري، مجلة التخطيط والسياسة اللغوية، م س، ص 16

2 نادر سراج، تجاذبات اللغة والثقافة والانتها: التسامح عدد 5، سلطنة عمان شتاء 2004م

وبداهة لن يحقق الوعي اللغوي بمستوياته أهدافه المنشودة، إذا لم يشمل التيار العام من فئات المجتمع، ولن يُؤتي أكله بدون قوة اجتماعية فاعلة ودافعة، ويتحول إلى الانغلاق (الدائرية المغلقة)، وهو انغلاق دائرة الوعي، ذلك أن المعلومات التي تصل إليه واللغة التي تحاول أن تحاوره، تدور حوله؛ أكثر من أنها تعيد تشكيله، وهذا ما يحدث في كثير من مناقشاتنا حول اللغة ومشكلاتها، فالداء معروف، ولكن الدواء فيما يبدو شديد المرارة.

وكلنا يذكر - على سبيل المثال - فشل المجمع اللغوي المصري في أداء دوره في مسألة تعريب أسماء المحال والشركات، والمشكلات اللغوية في الجزائر. وألخل اللغوي الناجم عن خلل ديموغرافي في بعض بلدان الخليج، في المقابل المضاد بالضبط تتوافر للعبيرية قوة دافعة سمحت للبعض بالتقدم لمحو العربية كلغة رسمية، ومن ثم تتبلور أكثر صور العنصرية اللغوية والتمييز اللغوي، وترفض فرنسا ممثلة في مجلس شيوخها وأكاديميتها الشهيرة 2008/6/18 الاعتراف باللغات الهجوية¹، معتبرة ذلك تهديدا للوحدة الوطنية، في الوقت الذي تتباكى على التمييز اللغوي ضد الفرنسية في دول المغرب العربي...!!!، إن اللغة في عصر العولمة ساحة صراع وحرب ضروس لأنها انتماء أولا وأخيرا، ومع ذلك لم ينل الصراع اللغوي في وطننا العربي الاهتمام الذي يتناسب مع حجم هذا الصراع، ومخاطر الخسران الكارثية فيه على المدى البعيد. والمنهج الواسطي وقيام أخلاقيات لغوية من شأنه أن يعالج إشكاليات التعصب اللغوي وكثيرا من أشكال الإمبريالية اللغوية.

ولعل طرح هذه القضية على التلاميذ يثير لديهم استقهما أساسيا حول ضرورة دراستهم للغة الأجنبية، وهو ما يتطلب توضيح أهمية دراستها وبيان أهدافها، والحق أن تعميم دراسة اللغات الأجنبية بما يتضمن ذلك من تكاليف باهظة تمثل استقهما كبيرا لدى كثير من الباحثين ممن أشاروا لخطورة تعلم الأطفال لغة أخرى بجوار اللغة الأم، خاصة في المرحلة الأولى من التعليم، مما لم ينل اهتمام القائمين على الأمر بل اتسعت رقعة الاهتمام بتدريس اللغات الأجنبية طولا وعرضا، فتم التأكيد بتدريسها، وتم تعميمها على شتى أنواع المدارس، وجعلها لغة إلزامية على جميع الطلاب، بدءًا من سنوات الحاقهم بالتعليم، وهنا يبرز التساؤل ما جدوى تعميمها ألسنا بحاجة إلى عدد محدود لتعلم اللغات الأخرى؟، وهل كل الطلاب سوف يحتكون بهذه اللغة أو بأهلها؟ الواقع يقول إن هدرا كبيرا يقع بتعميم تعليم اللغات الأخرى على الطلاب؛ لأن أكثرهم يفقدها بعد عدة سنوات ولا يتبقى من الملمين بها إلا من يواصل دراستها في المراحل التالية. ولا يعني هذا أننا ضد العناية باللغات الرئيسية في بناء العلوم والمعارف، بقدر ما نعني ضرورة التخطيط لتعليمها وسياستها وفقا لأهداف واضحة دون إزاحة مستمرة للغة الأم خاصة في مجالات العلوم والتقنية.

1 عثمان سعدي، التعريب في المغرب العربي في مواجهة الفرنكوفونية، الدستور الأردنية ملحق اللغة والهوية موقع الجريدة 2010

ونشير هنا إلى بعد مهم في الفرق بين اللغة الأم واللغات الأخرى من خلال تجربة ألبرت كوستافي إبريل 2014 قام الطبيب النفساني ألبرت كوستا بتجربتين مع فريق عمله، وأعلن نتائج التجريبتين في مجلة (Plos one) العلمية، خلاصة ما توصل إليه هو علاقة اتخاذ القرارات الأخلاقية باللغة، إذ إن استخدام مثل هذه القرارات بلغة غير اللغة الأم من شأنه أن يجعل القرار المتخذ أقرب للنفعية منه لو استخدم لغته الأم في اتخاذ هذا القرار، فملايين من البشر يتخذون قرارات أخلاقية بلغة ليست لغتهم الأم، البعض منهم يعمل في الأمم المتحدة، الاتحاد الأوروبي، قوات حفظ السلام أو في شركات متعددة الجنسيات، بحسب تجربة كوستا، فهم أكثر ميلا لاتخاذ قرارات نفعية، " وخلاصة التجربة هي طرح سؤال على عينة من مجموعة من الأشخاص، مفاده لو أنك تخيلت قطارا ما يتحرك بسرعة عالية دون توقف متجها نحو خمسة أشخاص. والقطار إذا استمر في حركته سيقتل هؤلاء الأشخاص، مع وجود احتمال واحد فقط لإنقاذهم، وهو أن نرمي شخصا ضخما أمام القطار لإيقاف القطار. والسؤال هنا هل ستقوم بفعل ذلك وترمي الرجل أمام القطار؟"¹.

وقد جاءت إجابات العينة مثيرة بناء على معيار اللغة التي طرحت بها التجربة، واللغة التي يجيب بها أفراد العينة، دون الاعتماد على أخلاقهم، فمن تحدث بلغته الأم أجاب غالبا بعدم رمي الرجل أمام القطار لإنقاذ بقية الأشخاص، في حين كانت إجابة أشخاص بلغة أجنبية ترجح أن التضحية بالرجل هي الطريقة الأفضل لحل المشكلة، وكأن اللغة الأجنبية بالنسبة للإنسان كالملايس التي تضي عليه مظهرا خارجيا وشكلا جديدا، والشحنة العاطفية للكلام باللغة الأم يختلف عنه باللغات الأجنبية، إذ إن الأولى لها حمولات ثقافية وفكرية ممتدة تشغل حيزا كبيرا من الذاكرة لا بوصفها مجرد كلمات، وإنما بوصفها معبرة عن أفعال حياتية لمسها الشخص وأثرت فيه من قبل فهي ذات تأثير فعلي في حياة المرء أكثر مما سواها في اللغات الأخرى، وأحسب أن لفظ الموت أكثر تأثيرا من الناحية العاطفية من لفظة *the death* في الإنجليزية، أو *La mort* في الفرنسية، لمن يتقن أي من اللغتين بجوار العربية والعكس بالعكس، بل إن الشحنة العاطفية للكلمة - وهذا مثل ثان - ذات وشيجة رابطة بمفهوم اللذة في اللقاءات الحميمة والعلاقات العاطفية. وربما كان في ذلك تفسير لحرص الدول على لغاتها وعلى اجتلاب الكوادر المتميزة من غيرها لتضمن لا التحيز إليها أخلاقيا، بقدر ما تضمن نوعا من النفعية فيما لو تحدثت وفكرت بلغة تلك الدول، ولعل الفرق بين اللغة الأم واللغات الأجنبية المكتسبة هو فارق في السن، بناء عليه تكون اللغة الأم لغة لصيقة بنا من قبل الوعي، ومن ثم كان تعلمها ملتصقا بعلاقتنا الطفولية الأوديبية التي

1 أدم الفرزعي، موقع العلوم الحقيقية، تأثير اللغة على القرارات الأخلاقية، <https://real-sciences.com>

شكلتنا؛ ولهذا السبب نرتبط بهذه اللغة إلى هذا الحد، ولهذا تبقى بالنسبة إلينا موضوع ولاء وتنسك، أو قل هوية يتأسس بها كثير من خياراتنا الحياتية النفعية والعاطفية.

المبحث الثاني من إشكاليات الوعي اللغوي العربي :

في الصفحات التالية نعرض لأهم مظاهر قصور الوعي اللغوي في الخطاب التعليمي العربي فيما يتعلق باللغة ودورها ووظيفتها ومردود ذلك على الهوية القومية، وإشكاليات الوعي اللغوي لا تنفصل بحال عن إشكاليات الوعي بمفهومه العام والكفاءة اللغوية، فتشكيل وعي لغوي سليم يتطلب حضوراً لغوياً فاعلاً يسمح بذلك، ولأن الوعي عموماً لا يعرف الثبات أو الاستقرار، فإن المحافظة على توتره وتيقظه تحتاج إلى رعاية دائمة، وإلا من السهل تزييفه أو تغييبه¹، وإشكاليات الوعي اللغوي العربي من الكثرة بما يصعب حصرها أو استقصاؤها في هذا البحث؛ لذا سنركز على أهم تلك الإشكاليات من خلال عملية استقرائية لحال اللغة في المدرسة والمجتمع، ومخاطر ذلك على الهوية العربية وتجدها، فهو في حديثه عن إشكاليات الوعي اللغوي لا ينفصل عن إشكالات الهوية العربية، لأن اللغة هي الاستحضار الدائم والمستمر للهوية²، وجملة القول إن غياب الوعي اللغوي على خطورته جزءٌ من حالة الغياب الشاملة التي تعانيها الذات العربية : الغياب الحضاري والعلمي، والسياسي والثقافي، والاقتصادي. وخطورة هذه الإشكاليات أنها أسهمت في إنتاج الخطابات اللغوية المتكلسة التي أشرنا إليها في الفصل الأول، بصورة جعلت الوعي اللغوي ذاته نوعاً من غياب الوعي.

وفي الصفحات التالية نتوقف عند ثلاث إشكاليات من إشكاليات الوعي اللغوي العربي في مستواه الثالث، وهي تضاف إلى إشكاليات المستوى الثاني ولا تنفصل عنه إلا في إتساع زوايا الرؤية، فلا تقصر النظر إلى بنية كلمة أو تركيب عبارة من الداخل، بل تتوسع للتعامل معها كظاهرة بشرية عامة، تنظر إليها من الخارج، بوصفها معرفة في حد ذاتها، إلى جوار أنها أداة إنتاج المعارف الأخرى، وترتبط كل ذلك بحال اللغة العربية في التعليم والمجتمع:-

1. النظرة الوعائية

2. الانفصامية

3. الأدلجة

1 عبد الكريم بكار: تجديد الوعي، دار القلم، دمشق ط1 2000م. ص11

2 على حرب: حديث النهايات فتوحات العولمة ومأذق الهوية - المركز الثقافي العربي، ط2 بيروت 2004م. ص186

أولاً: النظرة الوعائية

دائماً ما يكون الوعي عرضة للتزييف أو التغييب؛ وذلك بسبب هشاشة عناصره وتعرضها للتغير، نظراً لارتباط الوعي الوثيق بواقع ما، يرسم الوعي صورة ذهنية تتمثل في مجموعة المعتقدات والمعارف التي يحتفظ بها الفرد عن البشر والنظم والموضوعات المختلفة وفقاً لنظام معين، هذا الصورة من أهم وسائل الوعي في تنظيم الخبرة والتعامل مع الوجود الخارجي ومكوناته، وسائله في ذلك " الحدس والخيال واللجوء إلى التعميم أحياناً والاستقراء الناقص أحياناً، وحاجة الوعي ماسة للصورة الذهنية تجعله يشكل صوراً مبسطة لما يرغب في التعامل معه، وتلك الصور كثيراً ما تكون قاصرة أو زائفة أو مشوهة، مما يحولها في أحيان كثيرة من أداة تعين الوعي إلى حُجب تحول بينه وبين رؤية الأشياء على ما هي عليه"¹.

واللغات عموماً في حالة فوران دائم، إنها تشبه في حركتها الأرض في دورانها، لا تشعر بها إنما تدرك تأثيرها؛ لذلك يتمثل أخطر ما ينتج الوعي الزائف ثبوت النظرة إلى اللغة مفهوماً ووظائف، وهو الأمر الذي ترتبت عليه أمور جد خطيرة فيما يتعلق بمحتوى مناهجنا التعليمية، إذ غلبت الوظيفة الوعائية على اللغة، والتعامل معها بوصفها أداة محايدة أو شفافة، تلك النظرة تتبع من نظرتنا للكلمات باعتبارها معطى ثابتاً أو دوال سابقة التجهيز لمدلولات سبق أن أدركناها، كل ما علينا أن نعيد تداولها، هذه النظرة الوعائية نجدها تتردد في مختلف الخطابات اللغوية التقليدية التي تجتر ذات النظرة المتكررة للغة، بدءاً من فكر المعلم الذي يقوم بتدريس اللغة في إطار تلك النظرة وصولاً إلى الوثائق التي تصدر عن الهيئات والمراكز المعنية بشأن اللغة ووصف حالتها وتطوير دورها²، لندرك ما في هذه النظرة من خطورة.

إن القول " بأن لغتنا العربية هي وعاء المعرفة، إنما هو - في التحليل العلمي العميق - استتقاص لها وإزراء؛ إذ فيه حكم عليها بالتلقي والقصور، وفيه غمط لحقها في أن تكون المعرفة وعاء لها لا أن تكون هي وعاء المعرفة، وهذا مبحث من طينة أخرى، ومن أفق معرفي مباين للسائد المشاع بين أهل التدبير السياسي ومن يحيطونه بالرأي والمشورة وبتحرير الخطب والبيانات"²، إذ تظل اللغة بأنظمتها الترمزية والتمثيلية أبعد غوراً، وأشد أثراً من ذلك، إن التفكير الحديث يرى أن الكلمة ليست مجرد بطاقة توضع على أصناف سابقة من المرئيات والمدركات، بل تعد الكلمات مواقف، فحين نستعمل كلمة الرجل نكون أو نخلق مفهوماً معيناً لم يكن تقرر من قبل. الكلمات هي حياتنا والشيء المشار إليه لا ينفصل عن موقف ولغة ومتكلم، ونحن لا نسمي

¹ عبد الكريم بكار، تجديد الوعي، دار القلم، دمشق ط 1-2000م، ص 12

² انظر على سبيل المثال لوثيقة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الأيسو) 2010 الخاصة بمشروع النهوض باللغة العربية وعنوانها: تعليم العلوم والتكنولوجيا باللغة العربية وأثره في التنمية الاقتصادية والاجتماعية وفي التوجه نحو الاقتصاد القائم على المعرفة من إعداد د محمد ميراياتي.

² عبد السلام المسدي الهوية العربية، والأمن اللغوي، م س، ص 95

الأشياء على التدقيق بل نفكر فيها، كلمة التسمية موهمة وكلمة نفكر تعنى أننا نضيف ونحذف ونكون ونركب"¹

فهل يحق لنا أن نقول إننا لا ندخل معترك اللغة مرتين أو أن اللغة تخلو من التكرار؟ إن اللغة لا تحمل مضمونا فقط، بل هي مضمون بحد ذاتها، اللغة هي الواقع وأداة تعزيره، وفي التعامل مع اللغة بوصفها مادة دراسية يتم اختزال اللغة ومعاملتها بوصفها منهجا دراسيا منفصلا وقائما بذاته : منفصلا عن غيره من المواد العلمية والإنساني، ومنفصلا عن مجتمعه في آن، ولن يشفع للغة استخدمها كوعاء حامل للمواد العلمية والإنسانية في المدارس الحكومية؛ بسبب انتشار العامية في الشرح وبسبب نظام التقويم، أما المدارس التجريبية أو الدولية أو المستقلة- أيا كان المسمى - ممن تستخدم اللغة العربية كمادة دراسية فقط بذاتها لذاتها- فقد حزمت أمرها مبكرا بالقضاء على الهوية اللغوية وتأكيد التبعية في أبشع صورها. فهذه النظرة تشككت أسس الخطاب اللغوي المقدم لطلابنا من خلالها، علما بأن "تحرر اللغة العربية من وضعية الرف الحامل للأشياء النافعة إلى كائن نافع أو منتج نافع، سيبعث فيها من جديد روح الحياة والإضافة التي كانت تتمتع بها إبان مرحلة التأسيس والازدهار"²

ومن صور الوعي الزائف مما يصب في ذات النظرة الوعائية تمييزها اللغة العربية في الدرجات أو أدوات التقييم، هذا التمييز غير مجدٍ حيث تخرج بالتعليم كله عن جادة الصواب وتكرس للنظرة الإشهادية، حيث لا يقدم سوى مزيدا من الاختزالية وتأكيد انفصال اللغة عن الواقع، في حين أن اللغة إذا ما أحسن التنظير لها معجميا وتعليميا تحولت إلى نهج معرفي وقاطرة للنهضة بوصفها مصدرا للإلهام المعرفي المتجدد، لا أقول إن هذا يتبدى من خلال بعثها والنطق بها، أو استبدالنا لفظا أجنبيا بأخر عربي فهذا أبسط مراحل الوعي؛ لكن من خلال قدرتها على استيعاب حركية الوعي الإنساني الخلاق، بل إن الفضل كل الفضل للغة ما، لا يكون إلا من خلال قدرتها على استيعاب الخبرات الإنسانية المتجددة بتراكيب جديدة في سياقات جديدة، بل بألفاظ جديدة، أو بألفاظ قديمة قادرة على احتواء مضامين جديدة، وهذا وحده هو الذي يعطى أي لغة حقها في الحياة فضلا عن أنها بدورها تعطى الحياة قدرتها على التحديد والتسجيل والتواصل³

فطبيعة اللغة وتعليمها - بلا شك - تختلف عن المعارف الأخرى، وتعلم اللغة" يمتاز عن سواه بضرورة ممارسة ما يتم تعلمه؛ لأن التعلم اللغوي ليس رزمة من المعارف مثلما هي الحال في المعلومات الجغرافية أو التاريخية أو البيولوجية، فالمعول عليه في تعليم اللغة هو كيف يقال

1 مصطفى ناصف : اللغة والتفسير والتواصل، عالم المعرفة عدد 193، الكويت 1995 م، ص131.

2 رفيق لبوحسيني، الأبعاد الرابطة بين اللغة العربية والتواصل، دراسة في كتاب التواصل نظريات وتطبيقات بإشراف محمد عابد الجابري، الكتاب الثالث، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت 2010، ص77

3 الرخاوي، مراجعات في لغات المعرفة، م س، ص32

ما نتعلمه، وكيف يُكتب وكيف يحدث التواصل¹، وإذا كان دأب الباحثين هو تأكيد العلاقة الرابطة بين اللغة العربية والهوية اعتماداً على ذات الطبيعة الوعائية للغة باعتبارها سجلّ تاريخ الشعوب العربية وحضارتها، وبكونها حافظة الإرث بكل أمجاده وتحولاته، وصانعة المستقبل بكل أمانيه وتطلّعاته، إذا كان ذلك كذلك فإن هذا الربط ربما يقصر فاعلية اللغة في تشكيل الهوية القومية العربية، دون أن تعنى بدور اللغة في تشكيل وبناء الهوية الذاتية، فلا يقتصر دور اللغة على المستوى الجمعي، وهو دور أصيل، ولكن دورها على مستوى الذات لا يقل دورها خطورة، فيما يخص اتساق الفرد مع ذاته، ومع جماعته نفسياً وفكرياً واجتماعياً.

كذلك نرى أن النظرة الوعائية للغة- وهي أساسية فيها بحكم جهازها الترميزي والإشاري - تُهدر الطاقات الفعالة للغة على حساب أدوارها الأخرى الذهنية والتواصلية والوجدانية والإبداعية، ففي ظل التعليم التلقيني يذهب الوعاء بما وعى سدى، أيًا كان المحتوى، حيث يتم التركيز على المضمون لا حامله أي الوعي بالمحتوى دون الوعي بالوعاء، كما أن صعوبة المحتوى أحياناً تنسب إلى اللغة لا الموضوع ذاته، حيث لا تنفصل اللغة عن طبيعة الوعائية البتة، فتلك وظيفة أساسية لها، ولها دورها المهم في تشكيل الهوية وتأكيداتها وفي تماسك بنيتها ومكوناتها، فالعربية هي الوعاء الناقل لذاكرة الأمة، والربط بين أفرادها وشعوبها، والناقل إرثها الحضاري، وحامية ثوابتها القومية والحضارية، لكن ذات النظرة تحتاج إلى وعي مدرك لأبعاد أحادية تلك النظرة واعتبارها الأساس الوحيد في تنمية الوعي بالهوية، وتكمن مخاطر أحادية تلك النظرة في الآتي:

1. النظرة الوعائية مشبعة بالإيديولوجية التي تخدم السلطة، فلا ينتظر أن تقدم مضامين تتوائها أو لا تخدمها. وهذ النظرة ترتبط بتسييس التعليم، وهو يختلف عن سياسة التعليم، حيث تمثل العملية التعليمية جزءاً من سياسة الدولة، واللغة العربية في هذا الإطار مجال حيوي للمزايدة والاستقطاب الحزبي والطائفي.

2. النظرة الوعائية تكريس لخطاب لغوي غير وسطي بما يتضمنه من مواد مجهزة سلفاً لا يشارك فيها الطالب، إذ دائماً ما تقتضي فترات الازدهار اللغوي الفاعلية والانفتاح الواثق مع الآخر، من أجل تحقيق "مزاوجة تكاملية قوية ومنتجة بين بناء ثقافي وفكري ذي إشعاع عالمي... وبين انفتاح مبهر على نتاج الحضارات والثقافات المختلفة، وهو عين الوسطية اللغوية التي ندعو إليها؛ لتصبح العربية لغة الروح والعقل والعلم والأدب وكل فروع المعرفة".²

3. في النظم التعليمية القائم على التلقين، يكون الاهتمام الرئيسي لدى الطالب والمعلم على السواء منصباً على المضمون لا حامله شرحاً وتقييماً، في حين تبقى اللغة على

1 محمد الصاوي ، 20 مبدأ في تعلم اللغة وتعلمها، مجلة المعرفة العدد 192، الرياض 2011 م ص88
2- رفيق لبحسني، الأبعاد ارابطة بين اللغة العربية والتواصل، م س، ص 77

الهامش، وتقف عند مرادف أو مضاد أو صورة بلاغية، وفي ذلك مزيداً من التمرکز حول المفرد اللغوي.

4. غالباً ما تحال صعوبة المحتوى إلى الوعاء، وكثير من الاتهامات التي تنسب إلى العربية مرجعها- في رأي الباحث - أحادية تلك النظرة التي لها دور واضح في نفور الطالب من لغته الأم نتيجة لغلبة التراثي على الحديث في المناهج، وبالتالي "نجدّه يعزف عنها ولا يدرك كيف يدمجها في صلب حياته اليومية، ويوظفها في ممارساته العملية"¹. وكما ذكرنا، ربما كانت فكرة تيسير النحو سبباً في فكرة الصعوبة ذاتها، أو فكرة إحياء النحو، إنها تلقي في روع المتلقي تلقائياً أن ثمة ميّتا ينبغي بعثه، لذا كان من الضروري حسن اختيار للمصطلحات فلا يتم تشويه النحو أو بناء أفكار مشوهة حوله من خلال من يحملون راية الدفاع عنه.

5. تتناقض أحادية النظرة الوعائية مع المفاهيم الحديثة للتعليم والتعلم معاً، وأهمية تنمية مهارات التفكير الناقد والعصف الذهني وغير ذلك من مهارات، فالتعليم - وفقاً لقول تشومسكي ليس ملء كأسٍ من الماء، بل مساعدة وردة على أن تنمو بنفسها.

6. غياب اللغة العربية عن المضامين العلمية والرياضية الراقية يكرس لوجهة النظر القائلة بتخلف العربية عن تلبية مطالب العصر، وعدم دخولها ساحة العلوم والتقانة. وعلينا أن نتأمل جيداً نتائج الدراسات التي عقدت حول اتجاهات الشباب نحو استخدام اللغتين العربية والإنجليزية في التعليم، فقد ذكرت ريماء الجرف أن 96% من طلاب الكليات العلمية في الجامعة الأردنية و82% من طالبات كلية اللغات والترجمة بجامعة الملك سعود يعتقدون أن اللغة العربية تصلح للعلوم الدينية وللتخصصات الأدبي مثل التاريخ والأدب العربي والتربية. وذكروا أن اللغة العربية لغة شعر وعواطف. أما اللغة الإنجليزية فهي الأصلح لتدريس التخصصات العلمية كالطب والهندسة والصيدلة والحاسب كما وضحت من استقراء استجابات الطلاب مدى، الحرص شبابنا الشديد على تعلم اللغة الإنجليزية وتعليمها لأبنائهم، ونظرة الإجلال والانبهار باللغة الإنجليزية، والنظرة الدونية للغة العربية²

7. تأكيد الهوية من خلال تلك النظرة إذا لم يعضد بأدوار ووسائل أخرى تكمن أيضاً في اللغة وطبيعتها؛ يمثل نوعاً من التأكيد السلبي الذي نادراً ما يجد صدى فاعلاً لدى المتلقي، في حين يظل البديل القابل لأن تتمظهر فيه الهوية بكل مرتكزاتها أمّاناً وهو اللغة.

1 نبيل علي، الفجوة الرقمية رؤية عربية لمجتمع المعرفة، عالم المعرفة ع318، الكويت 2005م ص372

2 ريماء سعد الجرف، اتجاهات الشباب نحو استخدام اللغتين العربية والإنجليزية في التعليم الجامعي 2004، موقع ديوان العرب 1 آذار (مارس) 2004

8. خلو تلك المضامين مما يتصل بظاهرة اللغة في كليتها، وفي أبعادها الاجتماعية والنفسية المتنوعة، أي غياب علم اللغة الاجتماعي والنفسية تماما عن مناهج اللغة.
9. في النظرة الوعائية للغة تهمل وسائل التعليم الأخرى، ويقف الكتاب وحيدا لتقديم مضامين لا تنتهي، ومن ثم تضخمت المادة التعليمية مما زاد من نفور الطلاب منها مقارنة بالمواد الأخرى.
10. غلبة المفاهيم التعليمية التقليدية أو ما يطلق عليه بيداغوجيا تعليم ما قبل الصناعة، القائم بصورة أساسية على "انتقاء المادة التعليمية وطرق تقديمها ووسائله وشاع الحديث عن المناهج والمنهجيات وتأهيل المعلمين"¹، وهو ما يختلف تماما عن مفهوم التعليم في عصر المعلومات ومقوماته ووسائله وغاياته.
11. تركز النظرة الوعائية لأداتية اللغة، أي النظر للغة باعتبارها أداة أو مجرد وسيلة، والأصوب أن العلاقة بين اللغة ومتحدثها تتجاوز هذا الإطار الضيق للعلاقة إلى مراتب من التماس تجعل خصائص الأمة من خصائص اللغة التي تتكلمها، إذ لا يمكننا أن ندرك العالم من حولنا إلا عبر اللغة، وعبر منظرها، "فاللغة إذن، ليست أداة وحسب ولا محتوى وحسب، بل هي بمعنى ما من المعاني القالب الذي تفصل المعرفة على أساسه تماما كما يفصل الخياط الثوب على أساس القالب"².

ثانيا الأدلجة

اللغة بناء اجتماعي يشكل ذواتنا وعلاقتنا الاجتماعية، وتتأسس في نظم المعرفة والعقائد ومن ثم فهو لا يخلو من الأدلجة؛ ولذا وجدنا مفكرا مثل بيشوه يذهب إلى أن اللغة شكل مادي بالغ الأهمية من أشكال الأيديولوجيا، ولا أقول في هذا الإطار أن "أنماطا معينة من الخطاب تتسم بقيم سياسية أو أيديولوجية، بل أقول إن مختلف أنماط الخطاب في مجالات اجتماعية مختلفة أو في أطر مؤسسية معينة مشحونة سياسيا أو أيديولوجيا بطرائق محددة"³. إن الأيديولوجيا لا تنفصل عن الوعي اليتية، فما هي إلا "وعي جماعة أو طبقة سواء تم التعبير عنه بشكل مباشر في نسق إيديولوجي أم لا، يمثل أساس الممارسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية لأعضاء الجماعة بطريقة تدرك بواسطتها (الجماعة أو الطبقة) مصالحها نموذجيا ومبدئيا"⁴، ويقدم لنا فان دايك تعريفا للأيديولوجيا في إطار تحليل الخطاب مفاده أنها "إطار إدراكي معقد يسيطر على تكوين الإدراكات الاجتماعية الأخرى، وتحولها وتطبيقها مثل المعارف والآراء

1 نبيل علي، الفجوة الرقمية رؤية عربية لمجتمع المعرفة، عالم المعرفة ع318، الكويت 2005م ص374

2 محمد عبد الجباري، تكوين العقل العربي، ط9 بيروت 2009، مركز دراسات الوحدة العربية، ص77

3 نورمان فيركلف، الخطاب والتغير الاجتماعي، ت محمد عناني، المركز القومي للترجمة، ط1 القاهرة 2015، ص91

4 توين فان دايك، الخطاب والسلطة، ت غيداء العلي، المركز القومي للترجمة، ط القاهرة 2014، ص89

والاتجاهات والتمثيلات الاجتماعية الأخرى بما في ذلك الانحياز الاجتماعي؛ إذ يتكون هذا الإطار الأيديولوجي نفسه من معايير وقيم، وأهداف مرتبطة اجتماعياً تُختار وتُؤدّ جنباً إلى جنب وتُطبق بطريقة تفضل من بين الإدراكات الحسية والتفسيرات والأعمال في الممارسات الاجتماعية ما يخدم مصالح الجماعة¹، ووفقاً لهذا التعريف يمكننا تحليل وتفسير كثير من الممارسات اللغوية والسلوكيات اللسانية من فئات مجتمعية مختلفة عن وعي فعلي أو وعي زائف، فمن الوجهة الأيديولوجية نجد أن طابع التحريف الملازم للتصورات الشعبية عن الأبنية اللغوية واستعمالاتها إنما يقترن في الغالب بالفهم المستهجن للإيديولوجيا عموماً، وللإيديولوجيات اللغوية خاصة ضمن المنظور النقدي لها. إذ يجري تصوّرها على أنها اعتقادات وآراء ونظريات ذاتية واهمة تحجب الوعي اللغوي عن إدراك المدى الحقيقي للظواهر اللغوية إمّا بسبب ما تنطوي عليه من الأخطاء المعرفية أو بسبب خصائصها الوظيفية أو بسبب خصائصها التكوينية. وهي في جميع الحالات نوع من الوعي الزائف يجهل القوى الحقيقية التي تحركه أو يتواطؤ معها ليسوّغ أشكالاً من الهيمنة اللغوية والاجتماعية وغالباً ما تُساق أمثلة هذا التسويغ من الإيديولوجيات الكامنة وراء السياسات اللغوية التي تنتهجها الدول في المجتمعات متعددة اللغات، ومن برامج الإصلاح اللغوي وتخطيط المتن².

وفي إطار الربط بين الأيديولوجيا والممارسات اللغوية وُلد مصطلح الإيديولوجية اللغوية Language Ideology الذي "يتخذ من الاعتقادات والمشاعر والمفاهيم حول بنية اللغة واستعمالاتها وأشكال الوعي المقترنة بها مادة له"³، وقد صُك هذا المصطلح بقصد دراسة تمثيل إيديولوجيات اللغة بوصفها معتقدات حول اللغة، وكمفهوم صُمم للمساعدة في دراسة تلك المعتقدات التي "تعكس تصورات مجموعة اجتماعية أو ثقافية معينة حول اللغة، إن مفاهيم العضو فيها حول ما هو حقيقي أو أخلاقي أو جمالي من اللغة والخطاب يرتكز على التجربة الاجتماعية والتي ترتبط ارتباطاً واضحاً بالمصالح السياسية والاقتصادية لتلك الجماعة"⁴، لذا يشير المصطلح في معناه الواسع "إلى مجموعة من المواقف والمعتقدات المشتركة حول اللغة، مدعومة بقيم اجتماعية أو ثقافية معينة. وغالباً ما تعمل الأيديولوجيات اللغوية على ترشيد العلاقات القائمة بين الهياكل الاجتماعية والعادات اللغوية المهيمنة؛ على سبيل المثال التقييس / التّقنين Standardisation يتحدث بها الطبقة العليا من المجتمع، وهي علامة على التّعليم العالي، كما أنها مؤشّر على مستوى من الأدب، في حين يُعتبر المتحدّثون بغير اللّغة القياسية شعبيين، وعاجزين عن التّعبير"

1 توين فان داك، الخطاب والسلطة، م س، ص 91

2 منصور بن مبارك مبرغي، عقيل بن حامد الزماي الشمري التصورات الشعبية عن اللغة في الأدبيات اللسانية المعاصرة، م س، ص 57

3 Paul Kroskrity: Language ideologies: Evolving perspectives 2010 - P.192

<https://www.researchgate.net/publication/285809637>

4 Paul Kroskrity: Language ideologies: Evolving perspectives p.195

¹ ، كما تتسم تلك الإيديولوجية اللغوية أنها عادة ما تكون ضمنية " متعددة بسبب تعددية الانقسامات الاجتماعية ذات المغزى (الطبقة ، والجنس ، والعشيرة ، والنخب ، والأجيال .. إلخ) داخل المجموعات الاجتماعية والثقافية التي لديها القدرة على إنتاج وجهات نظر متباينة مُعبّرًا عنها كمؤشرات للانتساب لعضوية المجموعة. وبالتالي فإن إيديولوجيات اللغة تتأصل فيها تجربة اجتماعية لا يتم توزيعها بشكل موحد أبدًا ... كذا نجد أن بناء إيديولوجيات اللغة يتيح لمستخدميه أن يظهروا تأثير وعيهم في اختيارهم المميزة لكل من الأنظمة اللغوية والاجتماعية التي تميزها² ومن ثم تضطلع تلك الإيديولوجية بدور رئيس في بناء الهويات الاجتماعية والعرقية والقومية. ربما لم يكن غريبا أن يولد عددٌ كبير من العلوم، ومنها علوم اللسانيات تحت المظلة الأوروبية إبان المد الاستعماري، والحركة الاستشراقية، حيث يمثل " فقه اللغة حالة من حالات الحدائث والانتماء الأوربي، لأنه لا يمكن لأي من هاتين المقولتين معنى حقيقي إلا إذا ارتبطتا بثقافة أجنبية سابقة وفترة زمنية سابقة"³، ومما ترتب على ذلك ظهوره مغمسا بالأيديولوجيا دون سند علمي، بل تركت آثارها لدى الطرف الآخر المستعمر فيما يخص ثقافته ولغته وحضارته، لذا يقول إدوارد سعيد عن لغوي مثل رينان أنه قام " بتطويع الاستشراق حتى يلائم فقه اللغة، وتطويعها معا حتى يلائم الثقافة الفكرية لعصره، وهو الذي مكن الأبنية الاستشراقية من الاستمرار فكريا وزاد من إبرازها للعيان"⁴ .

كان أرنست رينان مثالا للغوي المؤدلج الذي يرى في اللغات معيارا أخلاقيا وبيولوجيا يتغيا إبراز تفوق جنس على جنس أو تطور شعب مقارنة بشعب آخر، ولا تكمن الإشكالية في رينان ذاته بل في رعيه وتابعيه من بني العرب ممن استمروا في تبني أفكاره ردحا من الزمن، رغم تهافتها ودحض علم اللغة الحديث لجلها. وهكذا وجدنا أن " المبادئ الأيديولوجية لفقه اللغة كانت تشجع اختزال اللغة بإرجاعها إلى جذورها، وبعدها يتمكن فقيه اللغة من ربط هذه الجذور اللغوية، على نحو ما فعل رينان وغيره بالانتماء العنصري، وبالعقل والشخصية والمزاج النفسي على مستوى الجذور"⁵ ، وإبراز العلم بوصفه أداة فعالة في قهر المستعمر نفسيا وفكريا إضافة لقهره عسكريا وسياسيا، وتكريس التفاوت وتبرير الاستعمار والهيمنة، حيث اتخذ كثير من المستشرقين من اللغة خطابا عنصريا مؤدلجا يبرز إيجابيات جماعة لغوية ويغض من أخرى بطرائق خطابية متعددة. ومن هنا برز الوعي الزائف لدى مجموعة من تابعيه بصورة تقوهم للعمل ضد مصالح

1 جون سوان وآخرون، معجم اللغويات الاجتماعية، ت فواز محمد راشد، عبد الرحمن حسني، مركز الملك عبد الله بن عبد الملك الدولي لخدمة اللغة العربية، الرياض 2019، ص 214

2 Paul Kroskrity: Language ideologies: Evolving perspectives.p.197

3 إدوارد سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ت محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، ط القاهرة 2006، ص 224

4 إدوارد سعيد، السابق، ص 221

5 إدوارد سعيد، الاستشراق، ص 248

المجتمع الرئيسية. ولعل أبسط مثال لذلك استعارة كثير من الفئات للغات أخرى داخل لغتهم الأم وتطعيمها بألفاظ غير عربية باعتبارها ترتقي بهم على السلم الاجتماعي أو شعور بالدونية والتفاوت الطبقي واللسان أحد تجلياته، بما يتضمنه ذلك من تصورات اجتماعية ونفسية ترتبط بطبيعة تصوراتهم للغتهم الأم ولغات التي يطعمون بها ألسنتهم.

وإذا كانت اللغة لا تنفصل عن الإيديولوجيا فإن الخطاب اللغوي حاول من خلال المناهج الوصفية أن يتجرد منها، ولكن ظلت بعض الأفكار العالقة به مشبعة بالإيديوجيا، متأثرة ببدايات علوم اللسانيات وبيئتها العلمية التي ولدت فيها، وما كانت أفكار تابعي المستشرقين أو دعاة اللاتينية أو إبراز العلاقة بين العربية ولهجاتها في صورة تنافر وتعارك، ومحاولات إزاحتها لصالح أخرى مخالفة أو محكية، كل هذا له أيديولوجيته المضرة حيناً والمعلنة حيناً آخر.

ثالثاً : الفصامية

هل يمكننا تعميم ما يعانيه مريض الفصام في علاقته مع اللغة إنتاجاً وفهماً لأسباب تتعلق بعدم القدرة على الضبط الذاتي استراتيجية إنتاج الكلام والفشل في توجيهها، وتشئت الانتباه، والتصلب العقلي، واضطراب الذاكرة، والتناقض واضطرابت اللغة، إلى غير ذلك من أسباب فصلها جمعة يوسف في كتابه عن سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، على ما يعانيه خطابنا اللغوي؟. يشير أدولف ماير *adolf mayer* إلى أن الفصام ليس مرضاً، بل هو نمط من الأوجاع التي تنمو في الشخصية نتيجة لمجابهة عدد من الصعوبات خلال التوافق، والتراكم الناتج من هذه الأشكال السيئة من التوافق والأوجاع المرضية يؤدي إلى نمو عادات متدهورة هي مظاهر المرض التي تأخذ أشكالاً عدة " 1.

هذا السؤال انفتاً في ذهني، وأنا أحصي عدد المؤتمرات التي عقدت ومازلت تعقد من أجل اللغة العربية وتعليمها وقضاياها الملحة، حتى أن واحداً من تلك المؤتمرات جعل من أسباب أزمة اللغة العربية؛ كثرة توصيات المؤتمرات الخاصة بالنهوض باللغة العربية، وعدم الجدية في تنفيذها وعند مقارنة ذلك بما هو حاصل في الواقع اللغوي وطنياً وقومياً، تظهر للعيان الهوة الشاسعة بين القول والعمل والتنظير والتطبيق. فالمنجز الفعلي في طريق تحديث اللغة العربية وتفعيل دورها باعتبارها مدخلاً أساسياً للارتقاء الثقافي والاقتصادي والسياسي لا يذكر، إذ تظل القضايا اللغة أسيرة خلف أسوار المجامع اللغوية والقاعات الجامعية والبحثية، وهو ما يعكس أهمية السؤال السابق. ولعل كثيراً من الاضطرابات التي يعاني منها وعينا اللغوي تشبه إلى حد كبير ما

1 جمعة سيد يوسف : سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، عالم المعرفة، ع 145 الكويت 1990. ص 215

يعتري المريض بالفصام، وهو الآخر يعاني من اضطرابات لغوية على عدة مستويات، فمن ذلك نجد التفكير والمغالاة والتمادي واضطراب الفكر، وعدم وضوح الهدف والبيغائية والتشتت، كلها تجعل كلام الفصامي غير واضح، فهل من الممكن أن نصف بها وعينا اللغوي العربي في ظل حالة التبدل الشديد حيال إشكالية لغتنا العربية على كافة المستويات وتبعثر الجهود وتفككها والتمادي إلى درجات تصل أحيانا إلى إيذاء الذات وهو ما يحدث منا بصورة واضحة، قبل أن يحيط بنا من يريد بنا سوءاً؟

يطرح معجم اللغويات الاجتماعية مصطلحا قريبا مما نعنيه هنا وهو الانفصام اللغوي Schizoglossia وهو عبارة عن استعارة طبية لوصف المواقف التي يكون فيها المتحدثون على دراية بوجود معيارين Norms أو متغيين Variants لغويين Linguistics عادة أحدهما قياسي Standard، والآخر غير قياسي Non-Standard ولكنهم غير واثقين من أيما صحيح في سياق معين¹

إن فجوة استخدام العربية وكفاءتها على المستوى الفردي والجمعي، لا تنفصل البتة عن أزمة عامة تضرب في أعماق الفكر العربي منذ وعى الآخر وتقدمه، ومنذ جعل على رأس أولوياته ضرورة اللحاق بذلك الآخر اقتصاديا وثقافيا وسياسيا، فالآخر يمثل مشكلة تتحدى الوعي الذاتي العربي، إضافة لتمزق هذه الوعي ذاته بين صورتين: تنهل الأولى من الشعور الأقصى بالدونية، وتقلب إلى رفض للذات واحتقارها وتدميرها أحيانا، وتنهل الثانية من الشعور المناقض من التفوق والأسبقية الحضارية والروحية حتى أصبحت العنتريات قيم ذاتية ومنهجا فكريا، والنشاط اللغوي هو أحد مظاهر هذه الأزمة التي يعانيتها الفكر العربي عموما، إذ تولد من انقسام الوعي في علاقته مع ذاته وعلاقته مع الآخر؛ نوعان من الوعي الثقافي العربي - الذي من مكوناته اللغة أو هو اللغة ذاتها - يتجاذبه قطبان يغلب عليهما الحديثة بصورة تظهر مدى الانفصام والشرح الذي هو نتاج تعليم يدشن للقطيعة ويتجاهل أبسط ملامح المشترك الإنساني، فيرى جابر عصفور أن الوعي الثقافي العربي ينقسم إلى نمطين: وعي ماضوي تقليدي، والثاني وعي مستقبلي استشرافي²، وهو ما يتشكل في خطابين شديدي التباين يطلان برأسيهما علينا دائما، ويبلغان درجة عالية من الاستقطاب تترك آثارها في اتجاهات تعليم اللغة وأهداف تعلمها، فكل صراع حول اللغة في جوهره هو صراع حول نوعية المجتمع الذي نريده: مجتمعا متجددا أم مجتمعا محافظا³، وهو ما يظهر جليا في مختلف الإشكاليات الفكرية والثقافية والاجتماعية، حيث نجد دائما طرفان الحداثي والأصولي وبينهما مهمة صعب ومفازة قاحلة.

1 جون سوان وآخرون، معجم اللغويات الاجتماعية، م س، ص 239

2 - جابر عصفور، حوار الحضارات والثقافات - اليونسكو - كتاب في جريدة-101ع، 2007م ص 6

3 محمد أمارة: اللغة العربية في إسرائيل (سياقات وتحديات).المركز العربي لحقوق والسياسات، دار الفكر، الأردن 2010م.ص 26

ومن مظاهر ذلك ما نراه من "انفصام حاد قد قام في الواقع العربي بين حضور الوعي العام في السياسة والاقتصاد والمعرفة وغياب الوعي الخاص بالمسألة اللغوية"¹، وهذه الفصامية على مستوى العامة والنخب والسياسة لا فرق بينهم، فغياب الوعي اللغوي طال الجميع، بل إن غياب هذا الوعي اختلط بنوع من الوعي الزائف على النحو الذي سنراه في خطابات الغلو والتقديس أو التبعية والتقليد. فرغم كثير من التوصيات والقرارات والمؤتمرات والدساتير التي تضع المسألة اللغوية في مكانة معتبرة من التقدير والاهتمام، إلا من مظاهر الفصامية في هذا هو أن أصحاب القرار الذين يتبنون حول المسألة اللغوية خطابا يستوفي كل أشرط الوعي الحضاري، ثم يأتون سلوكا يجسم الفجوة المفزعة بين الذي يفعلونه والذي قالوه"²، فعلاقتنا باللغة يحكمها وعي ماضوي يستند إلى اللغة ذاتها بما فيها من مراوغة، وتزييف بيد أن الواقع الفعلي يثبت عكس تصوراتنا عن حالنا اللغوي.

وإشكاليات اللغة العربية كثيرة ومتشعبة والحديث فيها معاد ومكرور، يضاف إليها ما يستجد بفعل التطور المتسارع، واللغة العربية في هذا الأمر ليست بدعا بين اللغات، فالازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية، والأقليات اللغوية، والتعريب، وغيرها من القضايا التي تطرح في مختلف المجتمعات ولكن بصورة متعددة تتفاوت طرق مناقشتها ووسائل علاجها، وهي لا تمثل في الحقيقة مجرد ظواهر لغوية، بل إن مجرد اعتبارها ظواهر لغوية لا يمكن من فهمها؛ فهذه التحولات إنما هي تعبير لغوي عن حركات اجتماعية أكثر عمقا"³، وتكرار الحديث عنها في مجتمعنا العربي دون التقدم خطوة واحدة في مجابتهها بأسلوب نقدي وعلمي فاعل، وألخروج من عشرات المؤتمرات ومئات الأبحاث والدراسات بتطبيق واحد يتم تعجيله، كل ذلك يؤكد صفة الفصامية على الوعي اللغوي الحاضر الغائب في شكل نخبوي تكراري دائري لا يخرج عن مداره قيد أنملة، ومحصلة كل ذلك مزيد من التراكم والهدر اللغوي والتفكك الاجتماعي وبالتالي تخثر الوعي وتراجع.

ولنتوقف أمام عدة قضايا لنرى كيف عالجهما وعينا اللغوي وآثار ذلك الوعي المتختم بكل الإشكاليات السابقة في تقاقمها واتجاهها مزيد من التعقيد:

1- الازدواجية اللغوية

يعرف فرجسون الازدواجية اللغوية بأنها "موقف لغوي يتسم بالثبات النسبي، يوجد فيه إلى جانب اللهجات الرئيسية للغة) التي قد تتضمن معياراً أو معايير إقليمية (تنوع لغوي أو مستوى

1 عبد السلام المسدي الهوية العربية، والأمن اللغوي، دراسة وتوثيق، المركز العربي للأبحاث والدراسات، بيروت 2014، ص 261

2 عبد السلام المسدي الهوية العربية، والأمن اللغوي، السابق، ص 261

3 ولبس جان كلفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، المنظمة العربية للترجمة، حسن حمزة، بيروت 2008، ص 26

من مستويات اللُّغة فوقي مفروض، شديد التباين بالنسبة إلى المستويات الأخرى، وعالي التشفير (يكون في الغالب أكثر تعقيداً على المستوى النحوي)، هو الحامل لقدر كبير ومبجّل من التراث المكتوب، وهو إما أن يُعزى إلى حقبة مبكرة، وإما إلى جماعة كلامية أخرى. هذا المستوى اللُّغوي يجري تعلّمه في أغلب الأحيان من خلال مؤسسات التعليم الرسمية، ويُستخدم لمعظم أغراض الكلام الرسمي والكتابة، لكن لا تستخدمه أي شريحة من المجتمع في محادثات الحياة اليومية¹ فيما عرّف فيشمان Fishman الازدواجية تعريفاً آخر مفاده أنها "تكون في موقف تبقى فيه أدوار كلّ من التتويعين منفصلة. وتكون هناك حدود واضحة تفصل كل مجموعة من اللُّغات أو التتويعات اللُّغوية. ويكون إدراك التتويع العالي أو اللُّغة مقيّداً عادةً بالنسبة إلى مَنْ لا ينتمون إلى الجماعة اللُّغوية"²

رغم اختلاف أقطار الوطن العربي فيما يخص تلك القضية، يلاحظ أن تعاملنا مع الازدواجية اللُّغوية، جاء أبعد ما يكون عن الوسطية، ومع كل طرح يطرحه لساني أو مهتم بهذا الأمر، نجد الانقسام ذاته بين وجهتي نظر متباعتين، ويتحول الخطاب حولها إلى سجال عقيم متكرر ما بين من يدعون إلى استبدال العامية بالفصحى، ويتهمون المتشبهين بها بالتخلف والجمود وعدم فهم ظاهرة التطور اللُّغوي، وما تمسكهم إلا نزعة ماضوية، أما المدافعون عن الفصحى فينظرون إلى الدعوة إلى استخدام العامية على أنها ضرب من التآمر والخيانة والتنازل عن الهوية والتسول الثقافي واجترار المقولات الاستشراقية³، في المقابل وبرغم تأكيد غير باحث على أهمية المصالحة بين الفصحى والعامية، عن طريق التقريب بينهما وفهم معطيات كل منهما ودوره التواصلي والفكري دون وضع حدية مطلقة وثابتة، فيما بينهما خاصة أن اللهجات متعددة حتى في الوطن الواحد وكذلك الفصحى، ولا شك أن ثمة فرقا بين وعي المتخصصين بالازدواجية وتعدد مستويات اللغة التي تتجاوز تلك الثنائية الحدية إلى مستويات تختلف عدداً وفقاً لرؤية كل باحث؛ ووعي العامة ممن يتداولون اللغة بمختلف مستوياتها، "فقد يرى اللُّغويون وأدواتهم وأجهزتهم الخاصة أن كلّ تتويع قومي هو لغة مميزة منفصلة. أما أبناء العربية فهم على وعي بوجود كيان أكبر يوحدهم، وهو العربية الفصحى. يعطي التتويع العالي من الازدواجية اللُّغوية العربية أي العربية الفصحى المتعلمين بعض الأدوات التي يحتاجون إليها لفهم التتويعات الأخرى"⁴، كما إن اللسان العربي ليس هو الفصحى، فقط فمن الخطأ في نظرنا إذن أن نعتبر الدارجات المحليّة ناتجة عن انحلال لسان مثاليّ التشكّل. فليست العربية إذن محصورة في لهجة

1 ريم بسيوني، علم اللغة الاجتماعي، محاور ونظريات، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، الرياض 2018، ص 11

2 ريم بسيوني، السابق، ص 12

3 نبيل علي، الفجوة الرقمية رؤية عربية لمجتمع المعرفة، عالم المعرفة ع318، الكويت 2005م ص 364

4 ريم بسيوني، علم اللغة الاجتماعي، م س، ص 24

أو دارجة واحدة. فهذا معارض لما أسمّيه ب «الوقع اللساني»¹. ورغم كل ذلك نجد الموضوع برمته تتكرر بنفس زوايا الرؤية والأسباب والمقترحات، والمحصلة أبحاث تتراكم وكتب تطبع، أما تفاعل المجتمع معها أو اتخاذ إجراءات فعلية لتطبيق ما تتوصل إليه تلك الأبحاث، فهو نوع من "التسوياتية الصفرية حيث إن الوعي يتشكل بما يحافظ على ثباته، فحركته توجي بالنشاط، لكنه نشاط زائف محكوم عليه أن يظل في النهاية كما هو دون تغيير؛ لأن كل ما يضاف إليه، ليعيد صياغته، يعامل من خلال المعلومات الحاضرة القادرة على تمبيع الموقف حتى تسكينه"². وهذا ما يؤكد سعيد بنكراد بقوله "نحن نعيش في مجتمع "مهزوز"، فهو لا يحتكم إلى ثوابت حقيقية إلا في الظاهر، ولم يحسم في اختياراته الثقافية والسياسية والاقتصادية واللغوية. فالثوابت موجودة خارج تفاصيل اليومي، إنها في الكتب أو في الطقوس الاستثنائية، لا في ردود أفعال الناس وسلوكهم"³.

إن الازدواجية فيما أرى مسألة طبيعية يجب أن تعالج بشكل علمي بعيدا عن التعصب؛ لأنها ازدواجية في الدرجة لا النوع، بيد أن لها حدودا يجب ألا تتخطاها. فالعامية بمستوياتها لها دور ووظيفة تؤديهما إلى جانب الفصحى، ولا ضير من بقائها ملتزمة بوظيفتها، والفصحى بمستوياتها التراثية والمعاصرة لها "دور ضروري في الحياة الاجتماعية الراقية يجب أن تؤديه، ولا تؤديه إلا إذا بقيت فصحى، ولا تبقى فصحى بدون نحو وقواعد. والتيسير يكون من الفصحى لخدمة الفصحى، وليس القضاء عليها وجعلها عامية أو استبدال العامية بها، فهذا هو الخطأ والخطر الذي يهدد الفصحى في وقتنا الحاضر"⁴، كذلك لا يجب التخفي تحت ستار الحيادية العلمية من أجل الترويج للهجات على حساب الفصحى، وهو ما يحدث بقصد كثيرا وبدون قصد ونادرا من المستشرقين وأتباعهم وهنا مكنم الخطورة. وليست اللغة العربية بدعا بين اللغات، فكل لغات العالم تتضمن هذا النوع من الازدواجية بدرجات متفاوتة، ويتم التعامل معها بجدية عن طريق تقييمها وردها إلى أصولها، بحيث لا تشكل خطرا على اللغة الأصلية، ومن ثم فإن تقاعسنا في علاج هذه المشكلات، وتوقفنا بين الجمود والتساهل هو الخطر الحقيقي، فكثيرا ما ينظر للمحاولات الإصلاح بعين الريبة، وكثيرا ما تفتقد تلك المحاولات الأساس العلمي الصحيح. ولذا يمكننا القول بأن إشكالية الازدواجية اللغوية أخذ الخطاب اللغوي حولها عدة أشكال هي:

- خطاب التبعية والمقارنة وسبق أن تحدثنا عنه ومن نماذجه سلامة موسى وعبد العزيز فهمي وسعيد عقل.

1 محمد صلاح الدين الشريف، صورة العربية في التصورات الشائعة، وما تنبئه من قضايا منهجية، ضمن كتاب التصورات الشعبية عن اللغة العربية، مفاهيم، وقضايا، وحالات، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الموالي لخدمة اللغة العربية، الرياض 2017، ص 69: 116

2 مجي الرخاوي- مراجعات في لغات المعرفة - دار المعارف - القاهرة 1997م. ص 54

3 نقلا عن، موقع د/سعيد بنكراد

4 أحمد بن نعان: واقع اللغة العربية في أجهزة الإعلام (كتاب اللغة العربية إلى أين) منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - 1426هـ / 2005م

- خطاب عاطفي لا يقوم على أساس علمي تحركه أفكار أبعد ما تكون عن الواقع اللغوي
- خطاب علمي وهو خطاب توخى دراسة الظاهرة، بوصفها ظاهرة علمية وجسر الهوة بينهما وتبيان مستوياتها المختلفة المتصلة المنفصلة.

ولعل دراسة إبراهيم صالح الفلاي تعد الأولى في مناقشتها لهذه الظاهرة مناقشة علمية اعتمد فيها على دراسة أهم النظريات المطروحة في هذا الشأن، بدءاً من فرجسون 1959 وما تلاها من نظريات حاولت أن تدرس أبعاد هذه الظاهرة وخصائصها مثل نظريات فيشمن وفاسولد¹، والتحليل العلمي للظاهرة يثبت أنها لا تأخذ الطابع الإشكالي في مجتمع ما إلا في حالات خاصة منها، إذا انتشر التعليم وعم الرخاء الاقتصادي في ذلك المجتمع في هذه الحالة يبدو أن ذلك المجتمع يسير نحو توحيد الشكليين اللغويين، ومحاولة تقريب الفجوة الموجودة بينهما، وقد تصبح ازدواجية اللغة مشكلة أيضاً متى ما تطلب الوضع زيادة الاتصال بين أفراد المجتمع الواحد ذي اللهجات المتعددة... والوضع الأخير الذي أصبح فيه ازدواجية اللغة مشكلة للمجتمع، هو متى ما أراد أفراد المجتمع اتباع لهجة معيارية موحدة كدليل على الاستقلال والوحدة فيما بينهم. ومتى حدث مثل هذا التصادم بين الشكليين اللغويين الأعلى والأدنى، نجد أن هناك أفراداً في المجتمع يساندون الشكل اللغوي الأعلى ويطالبون بالاستغناء عن الشكل اللغوي الأدنى، ومجموعة أخرى تتنادي بعكس هذا الاتجاه وتطالب بالشكل الأدنى، أما البقية الباقية فإنها تطالب بظهور مزيج من الشكليين²

ويشير سعيد بنكراد لخطورة أخرى، رابطاً بين الازدواجية والعنف والتطرف واستمرار هذه البون الواسع بين "اللغتين، فيرى أنه" سيعمق بالتأكيد انفصال العربية عن محيطها الحيوي، وسيدفع بها خارج مساحات الفضاء العمومي (بكل واجهاته الاجتماعية والاقتصادية والمعرفية) وستزداد غربتها عن الأشياء. وسيؤدي في النهاية إلى خلق مساحات موحشة داخل الذات، وهي مساحات قد تكون مرتعا لكل شيء، وقد تعوق النمو النفسي السليم وتقف حاجزا أمام تواصل اجتماعي فعال ستكون لانعدامه أو قصوره نتائج قد لا تخطر على بال أكثر المراقبين تشاؤماً. إن المساحات التي تنسحب منها اللغة يستوطنها العنف، فاللغة لا تُستبدل، إنها تترك مكانها لأشكال تواصلية قريبة من "الحس"، قد تستطيع تغطية بعض الحاجات الأولية ولكنها لن تنتج بالتأكيد معرفة³.

من الواضح أن قضية العامية والفصحى ترتبط بالأمية ومستوى الثقافة، فكما ارتقت الثقافة اختصرت المسافة بينهما، حتى نصل إلى مستوى الفصحى المعاصرة، وهذا الأمر يستلزم الربط

1 إبراهيم صالح الفلاي، ازدواجية اللغة النظرية والتطبيق، مكتبة فهد الوطنية، 1996، ط1 الرياض

2 إبراهيم صالح الفلاي، السابق، ص62

3 موقع د/ سعيد بنكراد

بين الفصحى والعامية بوسائل تعليمية فاعلة، نحاول من خلالها تحديد خصائصها مما يساعد على تصحيحها وردها إلى الفصحى، خاصة أن الألفاظ العامية أكثرها إما قرشي وإما صحيح في لهجات العرب، وإما محرف تحريفاً قريباً يقصد به التسهيل، وذلك على النحو الذي نراه في بعض كتب رد العامية إلى الفصحى، وهذا ما فعله على سبيل المثال أحمد رضا في قاموس رد العامي إلى الفصحى. فالربط بين الفصحى والعامية أو المحكية ضروري لتحقيق أمرين :

- فض الاشتباك بين اللغتين في أذهان الطلاب، وتجاوز النظرة الدونية للعامية. خاصة " الحياة اللغوية لم تخل يوماً من هذا الازدواجية، ولأن الازدواجية نفسها لم تقف عائقاً أما التألق الحضاري للأمة العربية"¹
- ربط الفصحى بالحياة ليعرف الطلاب أن لغتهم ليست منعزلة، وأن ما ينطقونه ويستخدمونه في حياتهم أكثره فصيح، ولكن اعتراه التحوير والتغيير لأسباب عدة. ومعرفة الطالب لأصل الكلمة العامية الفصحى يدعوه لاستخدمه، خاصة أن الفصحى بها من الذوق العالي والرهافة ما لانراه في العامية.

لكن ما يدعو إلى العجب أن يكون مناقشة قضية لغوية لها مظاهرها في شتى اللغات الإنسانية؛ مدخلا لدم اللغة العربية والعقل العربي برمته، إذ نجد أن عددا كبيرا من الباحثين بالغ في الحديث عن المشكلات التي تورثها الازدواجية نفسياً واجتماعياً واقتصادياً وتربوياً. وبالغ بعضهم وخاصة اليهود منهم بانعكاسات الازدواجية على النفسية العربية والعقل العربي، إذ ربطها الكاتب اليهودي رفائيل باتاي (Patai) في كتابه عن العقل العربي بالهامشية وانفصام الشخصية. وقد أشرنا إلى تهافت نسبية وورف وسابير من قبل، وعلينا أن نفند مثل هذا الآراء عملياً، فهي رغم تهافتها تجد من البعض آذاناً مصغية.

2- الثنائية اللغوية

إذا نظرنا للقضية الشائكة الثانية وهي الثنائية اللغوية في التعليم العربي، نجد كل ما يدل على التناقض الذي نراه في الفصامي، فنحن نستطيع أن نفهم أهمية تعليم لغة أجنبية إذا كان المجتمع ثنائي اللغة وفيه عرقيات عديدة والحاجة ملحة لتوحيد تلك العرقيات تحت مظلة لغوية واحدة هي تمثل المعنى الثقافي للدولة السياسية وذلك نحو ما نراه في الهند، إذ من الخطر انتصار الدولة للغة عرق على لغة عرق آخر ومن ثم اقتضت واقع المجتمع الهندي معرفة اللغة الهندية أو الانجليزية على الجميع أو حين يكون المجتمع ثنائي اللغة وفيه لغتان رسميتان مثل سويسرا².

1 سمر روجي الفيصل، قضايا اللغة العربية في العصر الحديث، م س، ص 13

2 إبراهيم عبد العزيز أبو حميد: السن المناسبة لتعليم اللغات الأجنبية، مجلة الدراسات اللغوية، مج 2/ع 3 الرياض 2000م، ص 217

والجدل حول سن تعليم اللغات الأجنبية لا ينقطع، وإن كانت الدراسات اللغوية تميل إلى تأخير تدريس اللغة الأجنبية في المرحلة الأولى من التعليم، إذ لا يستطيع المرء أن يحصل في آن واحد على تربية ذات لسانين، والواقع الدولي يقول ذلك فلا توجد دولة من الدول المتقدمة تعلم اللغة الأجنبية في المرحلة الأولى من التعليم¹.

وإذا كانت الازدواجية اللغوية تمس عنصر الوحدة والرابطة القومية بشكل مباشر؛ فإن قضية الثنائية اللغوية ذات بعد اجتماعي يتعلق بما يمكن أن نطلق عليه الطبقة اللغوية في وطننا العربية و التوجهات السياسية والفكرية للنخبة الحاكمة والمتنفة في بلادنا، فالطبقة اللغوية هي المرأة العاكسة للطبقة الاجتماعية والسياسية، وقد بين أحمد عكاشة أن التعدد اللغوي في الطفولة قد يسبب اضطرابات نطقية ونفسية وعقلية، وأن الأطفال العرب الذين يتلقون تعليمهم في مدارس أجنبية يميلون إلى الشعور بالنقص واحتقار الأهل والإحساس بالاغتراب الثقافي في بلدانهم، وهذا من أهم أسباب هجرة الأدمغة²، وعليك أن تسأل نفسك ما موقف النخبة الحاكمة في كثير من الدول العربية من شعوبها عند توليها المسؤولية وكلها تلقى تعليمه بالطريقة ذاتها؟، ولنتذكر رولان بارت الذي يقر بوجود علاقة وثيقة بين الانقسام الطبقي والانقسام اللغوي: يولد تقسم العمل تقسيما في المعجم اللفظي³.

إن قضية التعريب ضرورة ملحة تمس قضية ديمقراطية التعليم في الصميم، ويرى مصطفى حجازي أن التعليم باللغة الفصحى ضرورة من أجل إدخال القوالب العلمية على هذه اللغة، وبدونها يظل العلم غريبا عن عالمهم وحياتهم، حتى يشكل في أحسن الحالات قشرة لا تتجاوز السطح، وبالتالي نرسخ استمرارية التخلف الذهني عند القطاع الأكبر من المواطنين...فأسلوب الاستجابات والمواقف في مجتمع من المجتمعات يرتبط ارتباطا وثيقا باللغة والفكر، والبناء اللساني الذي يتلقاه الفرد من محيطه مسؤول أساسا عن الطريقة التي ينظم بها نظرتة إلى العالم، العلم بلغة شعب تطوير له وحياته ولهذه اللغة على حد سواء⁴، كذلك ترتبط الثنائية اللغوية بما هو معروف عن التبعية الثقافية، لقد خرج الرجل الأبيض من بلادنا وترك لنا الرجل الأسود من بني جلدتنا يحدث عنه بالنيابة وينتمي له سياسيا واجتماعيا وثقافي، واللغة هي القاسم المشترك والمحرك الفاعل في تلك التبعية. هذا ما حدث من الفرانكوفونيين في الجزائر، إذ يحملهم عبد الله ركيبي "مسؤولية فشل مشروع التعريب في الجزائر مفضلين الوقوف بجانب الفرنسية دفاعا عن موقعهم في السلطة، ومكانتهم الاجتماعية والثقافية والسياسية، وعن فائدتهم المادية ومنها تولدت النزعة الاستعلانية أو الطبقة حيال كل ما هو عربي، حتى ترسخ الشعور بأن الفرنسية لغة الحياة،

1 أحمد موسى الخطيب، اكتساب الطفل العربي للغة الأم في زمن العولمة، وقائع ندوتي: الهوية اللغوية والعولمة، واللغة العربية والهوية القومية الأردن 2005م، ص 104

2 محمد المزالي، تعلم العلوم بالعربية، مجلة الحياة الفكرية، الهيئة السورية للكتاب، ج 2- 2009م ص 170

3 رولان بارت: هسهسة اللغة - ترجمة ك منذر عياشي - مركز الإنماء الحضاري- دار كنعان - ط1 دمشق 1999م.ص146

4 مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي (مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي بيروت ط9 2005. ص 80، 81

والعربية لغة الدار الآخرة وشعر المعرب أنه أضعاف فرصة في سلم الارتقاء الاجتماعي إلى غير ذلك من تفاصيل تطرح شجنا¹.

إن الثنائية اللغوية مفيدة إذا لم تكن متوحشة أو أعشوائية أو غير متوازنة، أي إذا لم تجز اللغة الأجنبية وثقافتها على اللغة القومية ولم تزاخماها في المجالات التي من المفترض أن تكون خاصة بها، وإلا فإنها تصبح ثنائية إفقار لا ثنائية إثراء وإنعاش. أما المسألة التي تطرح بصدد صلاحية اللغة العربية أو عدم صلاحيتها فهذه مسألة زائفة، فجميع لغات العالم صالحة لأهلها. ليس هناك لغة أفضل من لغة في هذا الجانب، هناك فقط معرفة جيدة أو ناقصة بهذه اللغة أو تلك. ليست العبرية ولا الصينية ولا اليابانية أفضل ولا أسهل ولا أكثر قابلية للحياة من العربية. أهل اللغة هم الذي يمكن وصفهم بمثل هذه الأوصاف²، وقد حرص مؤتمر الأيسيسيكو في دمشق 2008 على التأكيد على أهمية تعلم اللغات الأجنبية، ولكن دون أن يكون ذلك على حساب اللغة العربية، وأكد على أهمية فصل إتقان اللغات الأجنبية عن مسألة التعلم بها³، لكن ثمة فرقا بين تعليم اللغات الأجنبية والتعلم بها، هو الفارق بين التحديث والتغريب⁴، وما أخطر تحول عربيتنا الأم من خلال طرق التدريس وانحسارها وتراجعها أمام المد اللغوي الانجليزي والفرنسي من عنصر وحدة لتحقيق السلام الاجتماعي داخل الوطن الواحد وتوفير التفاعل النشط البناء على المستوى القومي؛ إلى "إشكال اجتماعي بدأ يحيل طبقات اجتماعية متباينة طبقيا إلى ثقافات متباينة ينتج عنها خلاف حضاري على مستوى الوطن الواحد، وهذا الأخير يحولنا إلى أكثر من شعب في البلد نفسه. نحن نؤسس بأيدينا لأن تصبح خلافاتنا في المستقبل حرب ثقافات⁵

إن من وظائف الوعي الرئيسية في علم النفس المعاصر: المراقبة والتوجيه، فالوعي يراقب الذات والمحيط ويضبط الفكر والسلوك، فوظيفة المراقبة في السلوك أشبه ما تكون بكاميرا تمسح المحيط، وترصد المدركات والأفكار والمشاعر والأهداف وحلول المشكلات، ووظيفة التوجيه ترتبط بالغائية إذ تسمح للشخص أن يبدأ أو ينهي أفكارا وسلوكيات للوصول إلى الهدف، وهو ما يتناقض مع الفصامية التي يعانها وعينا الزائف، الذي لا يسعى لغاية أو لتحقيق أهداف بل هي شبكة من العلاقات المتناقضة والرسائل المتداخلة ينقض بعضها بعضا، وفي الوعي اللغوي العربي ما يشبه ذلك ونضيف هنا الأمثلة التالية:

1 انظر تفاصيل القضية عبد الله ركي، الفرانكوفونية مشرقا ومغربا، دار الكتاب العربي الجديد- الجزائر 2009م

2 محمد عابد الجابري، فكر وشد، عدد 24، ديسمبر 1999م

3 الألكسو، السياسات اللغوية، تونس 2010م، ص 21

4 سعيد إسماعيل علي، الفكر العربي التربوي الحديث، عالم المعرفة، عدد 119، الكويت، مايو 1987م. ص 161

5 عزمي بشارة، أن تكون عربيا في أيامنا- مركز دراسات الوحدة العربية - ط 1 بيروت 2009م ص 52، ونشير هنا إلى مشروع المعجم التاريخي للغة العربية في كل من قطر والإمارات العربية، فعلى خطورة هذين المشروعين وأهميتهما العظيمة، نرى أن توحيد الجهد وتضافره كان أجدى نفعاً.

1- على المستوى السياسي لا يكاد يخلو دستور من دساتير أوطاننا العربية من النص على مركزية اللغة العربية بوصفها اللغة الرسمية والدينية والثقافية للأمة العربية، أي أنها لغة التعليم والثقافة والإبداع ، في مقابل ذلك نجد التوسع في التعليم باللغات الأجنبية على أشده في مختلف البلدان العربية، إما الفرنسية في دول المغرب وإما الإنجليزية في دول المشرق، فالوطن العربي مرتع خصب للمدارس والمشروعات التعليمية الخاصة من مختلف اللغات، وإزاحة اللغة من التعليم والتعلم وقصرها في حدود المادة الدراسية، في الوقت الذي تتاح الفرصة لتلقي العلوم والرياضيات والاتصالات بلغة أجنبية بما يتضمن إقرارا بدونية اللغة وعدم قدرتها على حمل مشعل العلم لأبنائها . ولاشك أن لهذه التوسع أبعاد سياسية، اجتماعية واقتصادية، لكن ما يعيننا في هذا المقام هو البعد الثاني، فقد صار التعلم باللغة الانجليزية أو الفرنسية حلمَ مختلف طبقات المجتمع العربي، ولم يعد قاصرا على النخبة أو الطموحين من أبناء الطبقة المتوسطة، بل صار تيارا عاما ، إضافة للتمكين لذلك إعلاميا واقتصاديا من خلال المعاملات الاقتصادية والإعلامية والاشتراطات التوظيفية، وقد بينت الدراسات والبحوث الميدانية أن تعلق المتعلم العربي بلغته القومية، في الأقطار التي تهيمن فيها اللغة الأجنبية، تتناقص كلما تقدم في سني الدراسة، وإدراك أن اللغة العربية ليست هي لغة النجاح الاقتصادي والترقي الاجتماعي¹. وهو ما يتناقض تماما مع وظائف الوعي المشار إليها.

3- التعريب

مثال آخر يخص درس اللساني ويتعلق بتعريب المصطلحات، وقوام إشكالياتها في الوطن العربي عدم القدرة على توحيدها، والقصور عن مجازاة الانفجار المعرفي والطلب الاصطلاحي. رغم خطورة دور المصطلح في تمثل المعرفة ونقلها. في الإشكالية الأولى تحول المصطلح لعامل من عوامل التفرقة، وفي الثانية غبن للغة العربية ومقومات تطورها وتجدها وإمكاناتها البنوية من اشتقاق ونحت وبنية صرفية متماسكة يمكن البناء عليها، يدخل المصطلح خاصة في العلوم الإنسانية، و يقتصر في استخدامها على مدلولها السطحي الذي اكتسبته من الكلمة الغربية، هذه العملية ستحكم علينا بتبعية دائمة للغرب وتقف سدا منيعا ضد أي إبداع عربي حقيقي في مجال العلوم الإنسانية، فالإشكالية لا تقتصر على إيجاد المقابل العربي لمصطلحات أجنبية تعبر عن مفاهيم وافدة، بل تكمن في ضرورة إنشاء المصطلحات من الصفر بأن نؤسس لها من خلال ميتالغة ترجع للمجالات المعرفية التي تخصنا كما فعل الخليل بن أحمد قديما في تأسيسه لميتالغة لوصف الشعر، وفعالها حديثا مصطفى الزلمي مع أصول الفقه² ، والواقع أن الجهد المبذول في

¹ الألكسو، تونس 2010 مشروع النهوض باللغة العربية

² نبيل علي العقل العربي ومجمع المعرفة، عالم المعرفة، عدد 370 الكويت 2010م، ج2، ص101

هذا الاتجاه يتسم بالفردية برغم وجود مؤسسات من قبيل مكتب تنسيق التعريب الذي انبثق من مؤتمر التعريب الأول بالرباط 1961م ودوره لا ينكر في التعريب والاهتمام بتوحيد المصطلحات العلمية في العلوم المختلفة، لكنه لم يستمر بنفس القوة التي بدأ بها، وهو الأمر الذي جعلنا نعاني من فوضى مصطلحية على عدة مستويات، ولم نستفد من أبسط طرق تعامل القرآن الكريم مع المفردات الأعجمية على نحو ما ذكرنا.

إن المصطلح العلمي عموما يمثل ميتالغوية خاصة تقوم على المواضعة القصدية، لبنا دال لمفهوم، على خلاف المواضعة الاعتبائية للمفردة اللغوية العادية، فهو "مواضعة مضاعفة إذ يتحول إلى اصطلاح في صلب الاصطلاح. فهو نظام إبلاغي مزروع في حنايا النظام التواصلية الأول، هو بصورة تعبيرية أخرى علامات مشتقة من جهاز علامي أوسع منه كمًّا وأضيق دقة"¹ وهذا الأمر يأخذنا إلى أن المصطلح ساحة رئيسة للتحكم البشري والضبط المحكم إذا تضافرت الجهود، وهو وحدة للفهم لها قيمة تواصلية سياقية ترتبط بسياقات خاصة. بيد أن تعريب المصطلح في ثقافتنا العربية يسير بخطو السلحفاة في زمن الثورة الرقمية، مئات المصطلحات تدخل ثقافتنا العربية ويتم تداولها قبل أن يفكر أولو الشأن في تعريبها، حتى صار الأمر في كثير من الأحيان موضع تندر على نحو ما نسمع عنه من تعريبات غريبة غير متداولة قامت بها المجامع اللغوية دون أن يكتب لها الشيوخ أو الانتشار خارج ردهات المتخصصين.

لا تقلت قضايا تعريب المصطلحات من الأدلجة، فمن يملك المصطلح يملك العلوم ومفاهيمها، وتلعب الاصطلاح دورا خطيرا في تغيير المواقف والتمويه والخداع، ويجري على المصطلحات كل ما يجري على الخطابات من انحرافات، وكلنا يرى ما يتم ترويجه من مصطلحات حول الإسلام والمسلمين ودورها في تكوين وتكريس صورة سلبية عنهما، ومثال ذلك ما كان من "عبث مقصود عند بعض المغرضين للمصطلح الشرعي والفكري؛ رغبة في الإيهام الذي قد يطال المفهوم الشرعي والفكري للمصطلح، ومن ذلك مفهوم الجهاد مثلا، الذي تحول في الكتابات الأجنبية بصيغته العربية جهاد Jihād إلى مفهوم سلبي أو كاد، وتبعها بعض الكتاب العرب، كما جرى حصره وقصره على القتال الذي هو أحد مفهوماته الثلاثة عشرة التي أوردها ابن القيم في كتابه زاد المعاد"²

4- الأقلية اللغوية

ومن مظاهر الفصامية والتناقض الغاص بالأدلجة الذي سيطر على الوعي اللغوي العربي؛ طرق تعملنا مع الأقلية اللغوية في وطننا العربي كالكردية في العراق والأمازيغية في الجزائر

1 عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات، م س، ص 45
2 علي بن إبراهيم النخلة، إشكالية المصطلح في الفكر العربي، الاضطرابات في النقل المعاصر للمفاهيم، بيسان، الرياض 2010، ص 26

والمغرب، ففي الوقت الذي ننعي فيه على أمريكا سعيها الدؤوب لفرض النموذج الأمريكي الاستهلاكي لغة وثقافة واقتصادا، وسعي فرنسا لمزيد من التمكن لها وللغتها في المغرب العربي، قمنا نحن خاصة في مرحلة المد القومي بعملية إقصاء لكثير من الأقليات اللغوية، والإقصاء ضد الوسطية، وكان الجدل هادئا حيننا وصاخبا أحيانا أخرى، ولعز الدين مناصرة آراء مفصلة نراها سديد في كيفية التعامل مع تلك الإشكاليات بأقل الخسائر، على رأسها الديمقراطية إذ من المفترض أن الدولة الديمقراطية تشجع بل وتعمل على إحياء الهويات المقهورة وتعمل على تطوير لغتها في إطار وطني بعيدا عن الهيمنة الاستعمارية، ويرى أن الحل الأمثل لن يكتب لها النجاح، وكان يجب أن تتحول من الإيديولوجي السياسي بإيحاءاته السلبية إلى الحقل المعرفي الخالص، لتحقيق تعدد لغوية معتدلة¹، لكننا لم ندرك أن منطق الهوية في المجال السياسي والاجتماعي يختلف عنه في إطاره المنطقي الصوري (أ هي أ)؛ لأن مجال المجتمع هو مجال التاريخي، أي مجال التطور والتحول والسيروية. وحتى من الزاوية الفلسفية فإنه لم يعد ينظر إلى الهوية كتطابق تام وتماه كلي. بل إن الهوية ذاتها يخترقها الاختلاف وينخرها التباين والتغاير أو بمعنى إن مقولة الهوية اليوم من الزاوية الفلسفية تتيح القبول بالتعدد والتنوع والمغايرة. فالهوية لم تعد تعني الصهر والسحق وتذويب الفروق وإبادة النتوءات، بل هي تعدد في الوحدة ووحدة في التعدد، ومن ثم ضرورة التخلي عن منطق الإبادة والإقصاء، وسلوكنا هذا أيا كانت نواياه يخرج عن الوسطية اللغوية التي ننادي بها، فليس من المنطقي أن نشكو من ضغط اللغات الأخرى على مجتمعاتنا ثم نمارس نحن نفس الضغط مع من هم منا، وليس من المنطقي أن نمارس الإقصاء اللغوي لكل أقلية تشاركنا في أوطاننا، في مقابل التمكين لآخر قصي يحاول إعلاء مبدأ الوحدة اللغوية، وربما كان أمر اللفظ الأعجمي في القرآن الذي سبقت الإشارة إليه يقع في هذا التوجه، في قبول الآخر، " فالديمقراطية - وفقا لقول بشارة- ليست مولودا عضويا موحدا، بل نتاج تفاعل التعددية والاختلاف في إطار سياسي واحد ذي سيادة وجهها الآخر هو المواطنة"²، وهو ما يتفق مع دعوة عبد الوهاب المسيري لما يطلق عليه الوحدة غير العضوية أو " الوحدة الفضفاضة " التي تقسح المجال أمام كل الجماعات الإثنية والدينية أن تعبر عن هويتها، طالما أن هذا التعبير لا يفت في عضد سيادة هذه الدولة، فالنظام التعليمي - مثلا- ينبغي أن يقبل بالتعددية، والوحدة الفضفاضة هذه تسمح لكل دولة أن تدخل في إطار الوحدة العربية دون أن تفقد ما يميزها. فالمغرب -على سبيل المثال- بلد عربي إسلامي، يتسع لجماعات أخرى مثل الجماعات الأمازيغية. والعراق بلد عربي إسلامي يتسع للسنة والشيعية والأكراد والتركمان.

¹ انظر عز الدين المناصرة: الهويات والتعددية اللغوية - دار مجدلاوي -الأردن 2004م.

² عزمي بشارة، أن تكون عربيا في أيامنا، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 بيروت 2009م، ص 51

ويعتقد المسيرى أن مصر نموذج جيد لهذه الوحدة الفضفاضة، فرغم كل الأحداث (الأخيرة)، يظل أقباط مصر لهم عقيدتهم وهويتهم، ويظلون جزءاً من المجتمع المصري، ويكمل المسيرى قائلاً إن فرض مفهوم الوحدة العضوية يؤدي إلى العنف والصراع، أما مفهوم الوحدة الفضفاضة فسيخلق لكل جماعة فضاءها الحضاري الخاص بها، وسيندرج الجميع داخل إطار التشكيل الحضاري العربي. ولعل ما حققته الدول الأوربية من خلال الاتحاد الأوربي قد يكون نموذجاً نسترشد به¹.

وفي هذا الإطار يرى الباحث أن الوعي بالوسطية اللغوية هو الحل لكثير من مشكلات حياتنا اللغوية، فهو وحده القادر على التغيير وتحويل الواقع سواء أكان فردياً أو جماعياً إلى مشكلة تتطلب الالتفات إليها والتفكير فيها واتخاذ اجراءات حلها، إذا يتميز بقدرته على التوجيه والضبط ليس فيما هو روتيني أو اعتيادي، بل أيضاً في الخيارات الفردية والجمعية المهمة والفاصلة. وهنا يأتي السؤال عن تعليمنا وكيف يمكنه أن يضطلع بهذه المهمة؟

1 - عن موقع المفكر عبد الوهاب المسيري، 2008

الفصل الخامس الوعي اللغوي والتعليم:

المبحث الأول: الوعي اللغوي في مناهجنا التعليمية

المبحث الثاني: الوعي اللغوي والبحث عن محتوى تعليمي

المبحث الأول الوعي اللغوي في مناهجنا التعليمية

لنبدأ بهذا السؤال فيما يتعلق باللغة ومناهج تعليمها في بلادنا، هل ثمة من أثر لتنمية الوعي اللغوي أو العمل على بناء وعي لغوي سليم خارج إطار الخطابات المفرغة من مضامينها في تعليمنا العربي؟

إن للوعي اللغوي دوراً أساسياً في تشكيل الهوية وقد وضحتنا طبيعة العلاقة بينهما، ومن ثم كانت الدعوة الملحة من الباحث على ضرورة تنمية هذا الوعي لدى طلابنا، وليبدأ العمل على تنميته على أقصى تقدير من طلابنا في المرحلة الثانوية، بهدف غرس هذا النوع من الوعي في عقول وقلوب طلابنا حيال لغتهم الأم، ومدى إدراكهم لطبيعة اللغة إشكالياتها من الخارج، وما يحيط بها من عوائق قديمة، ومستحدثة، فرضتها متغيرات عصر دائب الحركة ودائم التغير، ومن ثم يقترح الباحث في فصل تال محتوى تعليمياً موازياً للمحتوى التقليدي السائد في تعليم اللغة الأم، هذا المحتوى يتلمس طريقاً جديداً لإثارة نزعة الهوية، وتجديدها، وتحريك رакدها لدى الطالب، ومن خلاله يصور الواقع اللغوي الذي نعيشه، بهدف خلق قنوات جديدة حيال اللغة العربية، وتعديل وجهات نظر وانطباعات كانت مستقرة، وتنمية قيم ورؤى تسهم في الخروج من أزمة الفجوة اللغوية التي نعانيها على مستويات عدة، تربوية وتعليمية وإعلامية.

إننا بحاجة إلى جعل اللغة موضوعاً للتأمل والتفكير، ومحتوى قائماً بذاته يهتم به طلابنا ويتجاوز ما اعتدنا عليه من قصر الاهتمام باللغة على المجمعين، وأكاديميي أقسام اللغة العربية وواضعي المناهج ومدرسيها، إن هموم اللغة العربية من السعة بمكان، لتتحول في ذاتها موضوعاً لا أداة أو وعاءً حاملاً لموضوعات حياتية أخرى تضيع في ثناياها المقاصد اللغة وتتحول إلى مفردات وأساليب لا يستعملها الطالب في حياته، وينصبُّ جُلَّ اهتمام الطلاب على ما تحويه وتقدمه من محتوى، علينا إذن ألا نركز فقط على ما يمكن أن نطلق عليه النظرة الوعائية للغة، أو على البعد الأداتي لها فقط، إذ من الضروري تفعيل شتى وظائف اللغة، التواصلية، والأدائية، والوعائية، والنفسية، والذهنية... إلخ، بما يبعث الروح في اللغة الفصحى ويخرجها من المكتوب إلى المنطوق ومن النخبوي التعليمي إلى العام الاجتماعي.

كذلك يعد رَأْبُ فجوة العقل اللغوي العربي ضرورة ملحة باعتبارها الفجوة الأساس؛ من أجل بعث الحياة في أوصال آلة إنتاجنا المعرفي التي أصابها الشلل، وهي القادرة على إشعال فتيل الثورة المعرفية لكونها واسطة العقد في خريطة المعرفة الإنسانية الشاملة، فهي - أي اللغة - الفرع المعرفي الوحيد الذي ينفرد بشبكة من العلاقات الوثيقة تربطه مع جميع فروع المعرفة من دون

استثناء¹ ، وهي الدعامة الأساسية في بناء الحضارة إذ لا حضارة بغير لسان، ولا إبداع بغير عطاء لغة غائرة في الوعي، مختلطة باللحم والدم، والعلاقة شرطية بين موت اللغة وموت الحضارة، " إن اللغات تصبح مهددة عندما يكف الناس عن التحدث بها، وهي لا تموت فعليا؛ فهي ليست مخلوقات حية أو نوعا ثقافيا أو ما شابه ذلك، لكنها نظم تواصل يمكن التخلي عنها أو استبدالها أو رميها في الحفظ الأرشيفي"²، فما بادت حضارة قوم إلا بادت لغتهم، أو ذابت في لغة السادة لتعيش بعضا من حياة، أو تحورت إلى رطانة شائثة هجينة، لا تكاد تبين"³ ، ولا تعليم ناجع بدون وعي وإدراك لهذه اللغة، وفهم لطبيعتها وأبعادها الاجتماعية والعلمية والإبداعية، لأنها ليست مجرد منهج دراسي، وإنما هي عاطفة وحب، ومن لم يرتبط بها عاطفيا فلن تنفعه مناهج بحث ولا طرق تدريس.

وحيثما نجد أن 65.1% من طلاب المرحلة الثانوية ترفض تعلم مواد العلوم والرياضيات وسائر المواد في الثانوية باللغة العربية؛ فإن هذه النسبة كما أشار المسدي لها دلالتها على ما قد ترسب في أغوار البنية النفسية لدى الناشئة العربية من أن لغة الضاد ليست أهلا لأداء دلالات العلم الدقيق ومقاصده، وفي هذا تكمن جواهر الداء الثقافي، فليس الحرج في أن تدرس العلوم الطبيعية وما إليها بلغة أخرى غير العربية، إذا كنا على يقين أن كل الألسنة البشرية متساوية الكفاءات في المطلق، وإنما القلق الوجودي أن يتوهم التلميذ بأن لغته العربية مقصاة أصلا من الكفاءة الأدائية التي تتمتع بها سائر الألسنة الطبيعية"⁴، يضاف إلى ذلك ما تشي به هذه النسبة من اعتقاد لدى الطلاب عن اللغات الأخرى وأهميتها في حياته وتعليمه، وارتباطه بها، ورؤيته أن اللغة التي يتعلم بها تتفصل تماما عن لغة حديثه اليومي، وهذا ما يؤكد أهمية الجانب العاطفي في تعلم اللغة.

أذكر في هذا الصدد أن الفيلسوف الفرنسي رولان بارت تساءل في كتابه (درس السيمولوجيا) عن السبب في عدم تدريس الأسئلة الكبرى المتعلقة باللغة لطلاب المرحلة الثانوية، فاللغة بنية ذهنية، ونحن حين نفقدها لا نفقد أدوات للتعبير فقط، وإنما نفقد تلك البنية الذهنية... علينا - والكلام لبارت - التجرؤ على طرح المسائل الكبرى : متى تبدأ لغة من اللغات ؟ ما يعني الابتداء بالنسبة للغة ؟ متى يظهر جنس من الأجناس الأدبية ؟⁵، لذلك نعى بارت على المناهج الفرنسية انفصالها عن الواقع، والتركيز على اللغة المكتوبة لا المنطوقة أو المستعملة، وفي الوقت الذي يرى ديفيد كريستال اللغوي البريطاني الشهير أن إدخال موضوع موت اللغات وانقراضها في سن 16 لطلاب المملكة المتحدة فيه كثير من التأخير، وأنه من الممكن لفت انتباه الأطفال إليه قبل

1 نبيل علي، العقل العربي ومجتمع المعرفة عالم المعرفة، الكويت 2009 عدد 370 (ج2) ، ص 220

2 سكوت ل موتجمري، هل يحتاج العالم للغة عالمية، عالم المعرفة، ع419 الكويت 2014، ص 88

3 رءوف أبو سعدة، من إعجاز القرآن، دار الهلال، ج1، 1994، ص 52

4 عبد السلام المسدي، الهوية العربية، والأمن اللغوي، دراسة وتوثيق، م س، ص 203

5 رولان بارت، درس السيمولوجيا، ت ع بنعبد العالي، دار توفال، ط3 المغرب 1993، ص 75 وما بعدها

هذا السن بكثير، وفي الوقت الذي يؤكد على ضرورة مناقشة قضايا اللغة في البيت مع الأطفال من خلال: الإنترنت والفنون والمنزل؛ نجد أن تعليمنا ومجتمعنا ينصرف تماما عن هذا النوع من القضايا، إذ نتخذ في تعليمنا للغة نظاما مقلوبا، يبدأ من الكلمة ثم الجملة ثم الفقرة، متناسين أن الكلمات وليدة سياقات متنوعة، وربما كان الأجدى أن ندرس طبيعة تلك السياقات وتأثيراتها؛ لذا كان وضع مسافة ذهنية بيننا وبين اللغة أمرا من شأنه أن يتيح لنا فرصة اكتشاف أهم مشكلاتها والوعي بقضاياها الملحة، فاللغة العربية على عكس ما يتصور الكثيرون لا تعاني من إشكاليات قديمة فقط، يعرفها الفاصي والداني، مثل، التعريب والازدواجية، والقصور المعجمي، بل إنها تعاني في عصر المعلومات والتقانة من انفصامها شبه التام عن اقتصاد المعرفة، والصناعات الرقمية والترجمة الآلية والبرمجيات... إلخ.

ويمكن القول إن استمرار المناهج السائدة بصورتها الموضوعية، والقائمة على الحشو والتلقين في دراسة اللغة من الداخل نحو وصرفا وبلاغة.... إلخ، واستغراقها في البنية الداخلية للغة دون النظر إلى اللغة من الخارج - وهو تعبير مجازي لأنه يتم باللغة - ليس مجديا على الدوام، فلا بد من توازن بين دراسة اللغة من الداخل ودراستها من الخارج أي بين اللغة الواصفة واللغة الشارحة، وهذا ما يحاول الباحث أن يكشف عن أهميته في بحثه . وتنمية هذا النوع من الوعي لن تتأتى من مجرد دراسة نماذج من الأدب قديمه وحديثه، أو دراسة قواعد النحو عبر مراحل الدرس المختلفة تصاعديا من البساطة إلى التعقيد، نعم هذا الجانب مهم وضروري فيما يتعلق بوظائف اللغة المعروفة من حيث كونها تمثيلا Representation للكون وللواقع الخارجي وأداة للتواصل ووعاء للفكر، وهو أمر لا غبار عليه مع اعترافنا أن ثمة مشكلات واضحة في طبيعة هذا النوع من المناهج، لكننا حين ننظر للوظائف الأخرى للغة فيما يتعلق بدورها في بناء الهوية الشخصية وبوصفها دعامة أساسية في قوة النسيج الاجتماعي، فإن زاوية الرؤية للغة وعلومها لا بد أن تختلف، حيث يتحول منطوق المتكلم من طور اللفظ والمعنى اللغوي إلى أبعاد أخرى تتعلق بحقائق حول المتكلم ذاته وأصوله الجغرافية وأبعادها الاجتماعية وبالأحرى هويته، أما المناهج الموضوعية بإغراقها في النماذج الصورية البعيدة عن الاستخدام الفعلي للغة؛ فتعاني فيما يتعلق بهذا الأمر من انفصام تام بين اللغة ومتكلميها ومتلقيها والسياق الذي تتم فيه عملية الكلام، وهو ما يبعدها بصورة واضحة عن جوهر اللغة ودورها في تشكيل الهوية وإثراء التفكير بمختلف أنماطه، وغيرها من الموضوعات مما لم يطرح للدرس والمناقشة في مختلف المراحل التعليمية، ومن ثم يظل السؤال الملح، لماذا لا نشرك طلابنا في همومنا اللغوية ؟

والواقع أنه لا حديث عن حادثة عربية بدون وعي لغوي فاعل تبدأ الحادثة بوعي اللغة، لا من حيث هي وسيلة أداء، بل من حيث هي منظور رؤية، أو مادة طبيعية- ميتافيزيقية، كالحجر،

والشجر، والروح . تبدأ الحداثة بتنامي وعي لغوي إلى الأوج يحيل اللغة إلى فاعل من الفواعل في العالم¹.

ولا شك أن جانبا مهما من جوانب إشكالياتنا اللغوية - وغير اللغوية أيضا - يرتبط بعدم إدراك إشكالية اللغة وأبعادها في حياتنا، وقد اعتبر كثير من العلماء أن مشاكلنا النفسية والاجتماعية والسياسية وبالطبع التربوية والإعلامية، هي في الأساس مشاكل لغوية بالدرجة الأولى، وهذا الأمر يؤكد بصورة واضحة أن إشكالية اللغة من الخطورة بمكان، بحيث يكون اضطلاع فئة واحدة من فئات المجتمع بها ضرباً من العبث لا جدوى منه ولا طائل، وليس المقصد من البحث إنكاء مشاعر الانتماء أو إظهار التعلق باللغة الأم، فحب الإنسان للغته الأم وتعلقه بها وشعوره بعبقريتها من الأمور البديهية، لكن الهدف الأساسي هو كيفية تحول تلك المشاعر الطبيعية للمتكلم حيال لغته الأم إلى قوة فاعلة وثابتة، في سبيل تفعيلها وتجديد فضاءاتها المعرفية والتواصلية .

إن قوة أي لغة من اللغات لا تقاس إلا بمدى فاعليتها في المشهد اللغوي في المجتمع، هذا المشهد الذي يشمل جميع الأشياء اللغوية التي تُبرز معالم الحياة العامة، وتشمل لافتات الطرق وأسماء المواقع والشوارع والبنائيات والأماكن والمؤسسات، وأيضا لوحات الإعلانات والإعلانات التجارية، وحتى بطاقات الزيارة الشخصية، وتكون بعض هذه من قبل مؤسسات الدولة والبعض الآخر من قبل المجتمعات المحلية، وأخرى من قبل الشركات والهيئات والأفراد، ومن ثم يقدم معلما مميزا للمشهد اللغوي في لبلد أو منطقة ما²، كما لا تقاس قوة اللغات بعدد ناطقيها فقط، إذ لا يكفي جماعة لغوية حجمها لتأكيد بقائها؛ بل تقاس بعدد صفحات هذه اللغة على الشبكة العنكبوتية، وبما يستحدثها ناطقوها من برمجيات ووسائط تعليمية حديثة ترغب في الإقبال عليها والتواصل بها ، وبقدرتها على إشباع ناطقيها نفسيا واجتماعيا وثقافيا، وهو الأمر الذي يتطلب نوعا من الوعي اللغوي المتجدد، الذي يصعب أن تضطلع به مجموعة محدودة من التربويين أوثة من واضعي مناهج اللغة في بلادنا.

وفي ظل العولمة وقضاياها المتشابكة كان من هال للغة على علم بخطورتها ودورها في الاختراق النفسي للأمم والمجتمعات، خاصة بعد انحسار موجة الاستعمار التقليدي، ولم يكن عجا ما كشفت عنه البريطانية (فرانيسيس سوندرز) في كتابها الشهير (من الذي دفع أجر العازف، دور المخابرات الأمريكية في الثورة الثقافية)، والذي ترجم للعربية بعنوان الحرب الباردة الثقافية، من خلال هذا الكتاب فضحت سوندرز دور المخابرات الأمريكية في تمويل الأنشطة الثقافية في شتى أنحاء العالم، وقيامها من خلال الجامعات الأمريكية بجذب شباب الدارسين واللغويين من البلدان

¹ كمال أبو ديب : اللغة مكونة من الوعي الحدائي (لغة النص ورؤياه) نزوي- عدد 59 يوليو/2009م.

Landry, R. And Bourhis, R.Y: Linguistic- Landscape and Ethnolinguistic Vitality An Empirical Study. Journal of 2 Language and Social Psychology-1997,p23 :49

المختلفة وتوجيههم نحو كتابة أطروحاتهم حول لغاتهم الأصلية ولهجاتهم وفي النهاية "تصب هذه الأطروحات والدراسات المتخصصة في مراكز المعلومات المعنية في جهاز المخابرات للاستفادة منها في دراسة تلك اللغات، ومن ثم في تسهيل عمليات الاختراق للثقافات القومية في شتى أنحاء العالم"¹، إن اللغة هي السلاح الثقافي الماضي الذي يسعى لاقتلاع الهوية العربية والإسلامية، وهذا القول ليس نوعاً من العصبية القومية أو التوجه الإيديولوجي الضيق، إنما هو حقيقة تقرها أحداث التاريخ وحالات زوال الأمم ومحو الحضارات.

ويرى الباحث أن تركيز فيما يخص تنمية الوعي اللغوي ودمج محتواه في مناهجنا؛ يجب أن يبدأ على أقصى تقدير من المرحلة الثانوية، وهم يمثلون الفئة السنية من 14: 17، لما لهذه المرحلة من أهمية تتعلق بعوامل نفسية واجتماعية وفسولوجية في مرحلة المراهقة، حيث تبدأ بذور الرجولة في النمو، وتكوّن ميول المراهق واتجاهاته الحياتية، وفيها يكتمل بناؤه اللغوي، من تميز نبرة الصوت وامتلاك لأدواته اللغوية شفاهة وكتابية، يضاف إلى ما سبق أن هذه الفئة تمثل والشريحة الأكثر حساسية للمتغيرات المتسارعة من حولها، والأكثر استهدافاً من قبل الانفجار المعلوماتي والإعلامي وأسواق الاستهلاك، فهذه الفئة باختصار في قلب دوامة الأحداث المتسارعة التي تحملها العولمة والأكثر تأثراً بانعكاساتها²، كما أنهم بذائقهم اللغوية الاستهلاكية، ووعيهم التقني المتقدم، وإحاطتهم بمستجدات العالم الرقمي يشكلون الشريحة الطليعية الأقدر على تذوق وانتقاء التعبير السهل، المفيد وتثبيته³، ففي قضايا اللغة "تظل الطفولة هي المصدر اللغوي الأكثر حسماً"⁴، بحكم اختيارات الأسر اللغوية، ومن هنا تتبدى خطورة مرحلة التعليم الثانوي، فإذا كان التعليم قبل الثانوي منوط بوضع البذور، وكانت الجامعة هي قاطرة التعلم؛ فإن التعليم الثانوي وإصلاحه يقع في قلب مجتمع التعلم، وإن لم يضيف التعليم الثانوي مرحلة قوية وفعالة في حياة الفرد التعليمية، فلا جدوى من الحديث عن مواصلة التعليم⁵، إن المرحلة الثانوية من التعليم هي أولى عتبات الإبداع الذي هو مجدد اللغة وباعث نهضتها، لذا كان المراهق أولى الناس بالرعاية وتنمية الوعي اللغوي بحيث تكون اللغة - وهي لا تتفصل عنه مطلقاً - في صدر اهتماماته العقلية وخبراته الانفعالية، فللوعي جناحان لا ينفصلان الأول عقلي مدرك يمكن الإنسان من الإلمام بالذات والآخر والوجود، والثاني شعوري انفعالي، يقوم الأول بتوجيهه ويطوره بصورة تكشف عن اتجاهات الإنسان واختياراته الحياتية. يضاف إلى ما سبق ارتباط تلك المرحلة بما يعرف في علم

1 انظر تفاصيل ذلك في كتاب ف. س. سوندرز: من الذي دفع للزمالحرب الباردة الثقافية، ت طلعت الشايب، المجلس القومي للترجمة 2002م، المرايا المقرة لعبد العزيز حمودة عالم المعرفة، 2726 الكويت 2001، ص 74 وما بعدها

2 مصطفى حمادي، الإنسان المهدور (دراسة تحليلية نفسية اجتماعية)، المركز الثقافي العربي، ط1 المغرب 2005، ص 203

3 نادر سراج: تجاذبات اللغة والثقافة والالتواء: التسامح عدد 5، سلطنة عمان شتاء 2004م.

4 سكوت ل مونتجومري، هل يحج العالم للغة عالمية، عالم المعرفة، ع419 الكويت 2014، ص 90

5 نبيل علي، الفجوة الرقمية رؤية عربية لمجتمع المعرفة (بالمشاركة)، عالم المعرفة عدد 318، الكويت، 2005م، ص 303

الاجتماع بنمو هوية الأنا Ego Identity، حيث تبدأ عملية تشكل هوية الأنا بظهور الأزمة المتمثلة في درجة من الاضطراب المختلط المرتبط بمحاولة المراهق بتحديد معنى لوجوده في الحياة، وذلك من خلال محاولته اكتشاف ما يناسبه، من مبادئ ومعتقدات وأهداف وأدوار وعلاقات اجتماعية ذات معنى، أو قيمة على المستوى الشخصي والاجتماعي، وتنتهي الأزمة بانتهاء هذا الاضطراب، وتحقيق المراهق للإحساس القوي بالذات، ممثلاً في إحساسه بتفرده ووحدته الكلية وتمائل واستمرارية ماضيه وحاضره ومستقبله، ومن هنا يتضح الدور الحيوي الذي تلعبه مرحلة التعليم الثانوي التي تحتل موقعا هاما في السلم التعليمي، حيث تعد العمود الفقري في العملية التعليمية، لأنها تعنى بشريحة هامة من المتعلمين وهموم الشباب الذين تتبلور شخصيتهم وتكتمل في هذه الفترة، وهي الفترة التي يتحدد في ضوء خبراتها مسار نموهم النفسي والاجتماعي والاقتصادي، ويتخذون فيها قرارات مصيرية تتعلق بمستقبلهم، لذلك يمكن القول إن تعليم اللغة في تلك المرحلة لا بد أن يضطلع بعدة مهمة وحاسمة ومتكاملة في أن :

- 1- تصحيح وتقويم ما يمكن أن يحصل في المرحلة السابقة، أي تحسين مستوى التلميذ ومعالجة كل نقص أو ضعف ترتب عن المرحلة الابتدائية الإعدادية.
- 2- مكين الطالب من تطوير كفاءته وتنمية مهاراته اللغوية والعلمية، ارتقاء بما سبق أن تعلمه في المرحلة السابقة.
- 3- " إعداد التلميذ لمواجهة التعليم الجامعي العالي بالحد المطلوب من الإمكانيات والملكات التي تمكنه من تعميق معارفه وتطويرها في الجامعة"¹
- 4- بلورة اتجاهات وسطية في فكر الطلاب حيال اللغة من أجل علاقة أكثر حبا وصدقا وتنمية اتجاهات إيجابية نحو اللغة بوصفها مؤسسة للهوية، وتكوين وعي لغوي بإشكاليات اللغة العربية المعاصرة، من خلال محتوى منهجي يقدم أهم ما يجابه اللغة العربية من مشكلات واقتراحات حلولها.

وخلاصة القول إن الحديث عن مستقبل اللغة العربية ومن ثم الهوية العربية، على اعتبار أن اللغة هي الهوية في أوضح صورها، هذا الحديث يرتبط بتصورنا للتعليم وتحدده مشاريعنا التربوية ومنزلة المدرسة الحديثة منها، ومناهج دراسة اللغة وقدرتها على تعليم أناس قادرين عن اتخاذ مواقف جديدة حيال قضاياهم الأساسية، وتلك المشاريع تحتاج إلى ترجيح كفة الجانب التواصلية على كفة التعليم الموسوعي المرتبط بالرغبة الجامحة في الحصول على الشهادات العلمية دون

1 عبد الجليل هوش : ملاحظات حول تعليم اللغة العربية في المرحلة الثانوية(اللغة العربي إلى أين) منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) 1426هـ / 2005م.

الاحتقال بتكوين الذات اللغوية، كما يؤمن بأن تطور نظرة المتعلم العربي إلى مقاصد تعليم اللغة الأم، وإلى المعنى الكامن وراء هذا التعليم هو في نظرنا أحد المداخل الأساسية إلى صياغة نظرة مستقبلية، وإلى بناء أولى لبنات التفكير المستقبلي في استراتيجيات التعليم العربي والثقافة العربية عامة .

المبحث الثاني الوعي اللغوي والبحث عن محتوى تعليمي

العملية التربوية والتعليمية هي المشروع الحضاري والثقافي الإنساني والتنموي الأساسي لأي مجتمع كان، فكلّ جهاز تربويّ - تعليمي يعمل على تحقيق ثلاثة أهداف؛ الأول: تنشئة جيل المستقبل، مُعتمداً في سبيل ذلك على الموروث التاريخي والحضاري والثقافي للهوية والانتماء إلى الدين والأمة والوطن، مع فتح فرصة لإمكانية التغيير والتكيف وفق المنظومة القيمية المتعارف عليها. الهدف الثاني: تمكين المتعلمين من ممارسة حقهم في بناء شخصياتهم ومساعدتهم على الترشّد الذاتي، بهدف تنشئتهم على الفضيلة والأخلاق الحسنة، ليكونوا مُسليحين بقيم الاعتدال والتسامح، بحيث يتمكنون من أخذ دورهم ومكانتهم الاجتماعيين، فلا شك أن خطابنا التعليمي - التربوي لا يقوم بدوره المنشود، ويعاني هذا الخطاب من عدم الرؤية أو القدرة على وضع سياسات تعليمية محددة توضح الموقف من قضايا أساسية:

1. دور اللغة في بناء الهوية القومية.
 2. دور اللغة في الخطاب التعليمي ذاته.
 3. أبعاد الظاهرة اللغوية العربية في عصر المعلومات، الاجتماعية والسياسية والإقتصادية.
- وبناء على ما سبق طرحه من انحرافات في خطابنا اللغوي وانحرافات أعمق في وعينا اللغوي يكتسب البحث أهميته من خلال طرحه محتوى تعليمي مواز لما هو كائن في المناهج التعليمية التقليدية، يراه الباحث ضرورياً من أجل الخروج من مأزقنا التربوي الراهن فيما يخص بناء الهوية وتعميق الوعي بها، وهذا الأمر يؤكد غير باحث، فيرى نبيل علي - على سبيل المثال - أن "انتشال العقل العربي على صعيد التربية لا يمكن إلا بالتحرك من أسفل إلى أعلى عن طريق ما يعرف بأسلوب الإسقالات Scaffolding وفقاً للمصطلح التعليمي، ويتم ذلك بدعوة الطلبة إلى التفكير في مسائل متدرجة الصعوبة عبر خطة مدروسة تنهض بعقولهم من المستوى المتدني الذي خلفه التعليم التقليدي. أما التحرك من أعلى فبالإنقضاض عليه من فوق ويقصد بذلك تنمية ثلاث مهارات ميتاذهنية هي :

- الميتامعرفي metacognitive
- الميتاتواصلي metacommunicative
- الميتادلالي metasemantic

هذه التوجهات المجردة تحتاج إلى ترجمتها إلى أساليب محددة للتعليم والتعلم¹، وهذا ما يطرحه المحتوى المقترح واشتراطاته، مع اعترافنا أن مشكلة اللغة العربية متشعبة الأبعاد سياسياً وثقافياً

¹ نبيل علي، العقل العربي ومجتمع المعرفة عالم المعرفة (ج2)، الكويت 2009 عدد 370، ص 96

واجتماعيا واقتصاديا، وأنه لا يكفي التعويل على المدرسة، وما تقدمه من مناهج تقليدية تحت مسمى منهج اللغة العربية باعتباره الحيز الرئيسي لتعليم لغة عربية سليمة.

إن اللغة العربية ليست جهازا معجميا ونحويا ودلاليا مغلقا، وليست رصيذا ثقافيا ثابتا مقررا ومدونا في ذاكرة محددة، بل اللغة في أعراف اللسانيات الحديثة وعلوم الإنسان عامة؛ اقتدار فردي وجماعي على إنشاء التجارب الحضارية وعلى مواكبة حاجات الإنسان في زمن معين وفي إطار أو في حركة تنتظم الأعمال القولية في فضاء اجتماعي متطلع إلى المستقبل. إنها نظام من الكفايات والاقدرات المتجددة بتجدد وظائفها وحاجات أهلها، بل اللغة عند العرفانيين من اللسانيين وغير اللسانيين من فلاسفة اللغة هي الطاقة المولدة للفكر المؤسسة للرؤى الحضارية¹، وكيف يتم ذلك والإنسان العربي في علاقته مع لغته يعاني من الإحساس بالقطيعة بينها وبين حياته اليومية والاجتماعية والعلمية؟ ومعظم أشكال الممارسات اللغوية الحية، وتبلغ الخطورة مداها حين أن يتسرب هذا الغياب إلى لغة النخبة والمتقنين.

وقد طرح الباحث في مقدمة بحثه فكرة استخدام الميتالغة أو اللغاة الشارحة في تدريس اللغة العربية، وليس المقصد من المحتوى أن يقوم بديلا للمحتوى التقليدي، فهي على علاتها ضرورية كما لا يقصد الباحث في حديثه عن اللغة الشارحة أو الميتا لغة مجرد نقد مناهج تعليم اللغة العربية التقليدية، فهذا شائع ومتكرر في كثير من الأطروحات الجامعية وإعادة الكتابة فيه لا طائل منها، لكن ما يقصده الباحث تحديدا هو ضرورة دراسة اللغة من الخارج، في سياقها المجتمعي وفي حضورها بوصفها موضوعا معرفيا ملحا لا بد منه، فالهدف الرئيس هو امتلاك لغة أخرى تمتلك قدراً أكبر من التجريد الذهني والمفهومي، إذ تتجاوز الإطار اللفظي والمعجمي والتداولي المعتاد للغة إلى دلالات جديدة، من خلال دراسة جميع الأنشطة اللغوية التي تعمل في كيان المجتمع، بصورة تلقى الضوء على قضاياها الملحة سواء منها ما كان يتعلق بفاعليتها وكفائيتها المجتمعية، أو ما كان يتعلق بتفاعلها مع اللغات الأخرى إيجابا وسلبا، بحيث تدخل قضايا اللغة في بؤرة اهتمام طلابنا، لكي يتعلموها وهم مدركون خطورتها لديهم، وأهميتها في تشكيل وعيهم، فليس المحتوى المقترح بديلاً لمحتويات المناهج التقليدية، ولكنه مواز له أو مدعم له وفقا لما يراه أولو الشأن والاختصاص من تطعيم المنهج التقليدي بموضوعات منه، حيث توفر الدراسات الميتا معرفية ومنها الميتالغة أو اللغة الشارحة الفرصة لتنمية الوعي بالذات، باعتبار أنها العمليات التي تركز على وعي الفرد بذاته وبمعلوماته المعرفية التي يفترض أنها ضرورية في المهمة المعرفية، فالمتا معرفة - وتتضمن الوعي اللغوي والاجتماعي والمعرفي

¹ صالح بن رمضان: اللغة العربية نحو أي مستقبل، جنود (النادي الثقافي بجدة) ج21، ص 5 سبتمبر 2005م. ص 10

والثقافي - عموماً - تمثل أعلى مستويات النشاط العقلي الذي يبقي على وعي الفرد بذاته أثناء التفكير في مهمة ما، فالوظيفة ما وراء لغوية أو الميتالغة، هي الوظيفة التي تضطلع بالحديث عن اللغة من خلالها أو اللغة الواصفة، وكل منا يلجأ إلى هذه اللغة باعتبارها ضرورة تواصلية لا مناص من استخدامها للتعليم والشرح والتوضيح؛ للوصول إلى أعلى درجات الفهم المتبادل والتواصل الفعال، حيث "تتكفل الوظيفة ما وراء اللغوية من قبل اللغة بوصف اللغات وضبط ذاتي لوسائل التعبير والاتصال المتعلقة بلغة معينة. وهذا الوضع السيميائي خاص باللغة الطبيعية، من بين الأنظمة الدالة"¹، وبناء عليه فإن الميتالغة Meta-Language تؤدي دوراً رئيسياً يتمثل في اشتغال الوعي الذاتي باللغة كموضوع وبتجاهاته نحوها ومراقبة مستوى انتباهه حيالها. وإن كان ذلك يتوقف في بعض جوانبه على طبيعة التعليم ونوعه ومحتواه وطرائقه، يقول تشومسكي " وحقيقة التعليم هي أن نسبة ٩٩ % منها أن تجعل الطلاب يشعرون أن المادة مشوقة، أما النسبة الباقية فتتعلق بالطريقة التي تقدم بها هذه المادة... ولا بد أن يأتي التعلم بدافع داخلي، فيجب عليك أن ترغب في أن تتعلم؛ فإذا رغبت في التعلم فستحقق ذلك مهما بلغ سوء طريقة التعليم"²، وترتبط الدافعية التعليمية في مناهجنا التقليدية بأمرين: الدرجات، الوظيفة، والدرجات لا تصنع انتماء ولا تبني هوية، ووظائف اللغة العربية تقع في سلم الهرم الوظيفي مكانة اجتماعية ودخلاً مادياً، لذلك من الطبيعي أن يكون الدافع لتعلم اللغة ضعيفاً. فهذا المحتوى يتلمس مسلكاً جديداً لبناء الهوية وتجديدها وتحريك رآكدها لدى الطالب، ومن خلاله يصور الواقع اللغوي الذي نعيشه، بهدف خلق قناعات جديدة حيال اللغة العربية وتعديل وجهات نظر وانطباعات كانت مستقرة، وتنمية قيم ورؤى تسهم في الخروج من أزمة الفجوة اللغوية التي نعانيها على مستويات عدة، تربوية وتعليمية وإعلامية.

وإذا كانت الشعوب العربية تعيش أزمة هوية، فإن مصدر الخطورة في هذه الأزمة يتمثل في أن الوعي شديد الارتباط بالهوية، والوعي هنا هو الصفة التي يملكها الجميع، ولا يستطيع أن يعبر عنها سوى القلة، ومما لا شك فيه أن هذا "التيه الإيديولوجي" العام، لا بد أن ينعكس على الواقع التربوي العربي، هذا فضلاً عن أنه لم تحدث محاولات كثيرة للوعي بواقعنا في فلسفة تربوية عربية... ومن ثم نرى أزمة الهوية في الواقع الثقافي العربية تاركة ظلالها على هوية التربية العربية ويصبح هناك سؤال يعبر بدقة عن هذه الإشكالية: هل تنتظر التربية حتى تتبلور هوية المجتمع فتكون للتربية هويتها التي تبني عليها أهدافها ومناهجها واتجاهاتها؟³

¹ جوزيف ري - ديوف، الميتالغة: مقدمات ومعطيات أولية، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، ع8/ خريف 1989، لبنان 1989، ص 62: 76

² نعوم تشومسكي: اللغة ومشكلات المعرفة (محاضرات مانجوا) - ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني - دار تويقال - ط1 المغرب 1990م. ص 249

³ محمد أرزقي بركان، التحول هل هو بناء للهوية أم تشويه لها؟، مجلة فكر و نقد (المغرب) - عدد 35 - يناير 2001

إن كل إصلاح لغوي لا بد أن يكون مصحوباً بإرادة اجتماعية ومجتمعية صارمة تعطيه قوة دافعة، وما فعلته تركيا في خمسة عشر عاماً استغرق في النرويج قرناً ونصف¹، ومن الضروري أن تطرح المقررات الدراسية مشكلات بالمجتمع - أي كانت صعوبة وخطورة هذه المشكلات - ليتم دراستها بأمانة وصدق وفقاً لمعايير علمية دقيقة ومحددة، يسهم في حفز همم التلاميذ ويزيد من ميلهم لدراسة هذه المشكلات، وتدريبهم على إيجاد حلول لها ومعرفة أسباب تفشيها، وهذا في حد ذاته يعد من الأهداف الأساسية التي تسعى المدرسة إلى تحقيقها، إذ لا ينبغي الاقتصار على شحن عقل التلميذ بأفكار ومفاهيم نظرية، بل ينبغي تزويده أيضاً بأسلوب للحياة ونموذج للسلوك يقتدي به، ومن ثم يجب ربط المقررات الدراسية بالواقع المعاش. وفي مناهج اللغة العربية يتم طرح المشكلات الاجتماعية والقومية والبيئية والأدبية من خلال فرعي القراءة والتعبير، فالنحو فهو مغرق في معياريته، وقفت البلاغة عند حدود المنجز التراثي دون ربطهم مطلقاً بأية نظرية نقدية حديثة أو مذهب معاصر في نقد النصوص وتحليل الخطاب. أما بالنسبة لموضوعات مستقاة من علم اللغة أو مناقشة القضايا اللغوية الطارئة فتخلو مقررات التعليم منها، ويرجع عبده الراجحي ذلك للشكوك التي أحاطت بعلم اللغة الحديث إبان دخوله العالم العربي، وتركيزه على دراسة اللغة المنطوقة في صورها اللهجية، وتخصص عدد من أصحابه في دراسة اللهجات، فظن الناس أنه جاء ليحارب الفصحى.

ومنذ ذلك الوقت لم تتم مناقشة مسألة تضمين قضايا اللغة في مناهجنا التعليمية الأساسية وبعد الأساسية، أما في الجامعة فتظهر تلك الموضوعات على استحياء، نذكر في هذا المقام تجربتين دالتين في هذا الصدد:-

■ تجربة وليد العناتي في جامعة البترا بالأردن، من خلال طرحه لمادة (قضايا اللغة العربية في العصر الحديث)، وحدد لها محتوى وأهدافاً وطرائق تدريس متنوعة، وكانت النتائج مبشرة من الطلاب، حيث تعددت أنواع استجاباتهم، فتضمنت جوانب معرفية وفكرية وسلوكية، بل تجاوز بعض الطلبة ذلك إلى الاقتراح والتوصية²، مقدماً بذلك طريقة جديدة تخرج عن الأطار التقليدي في خطاب الدفاع عن اللغة العربية، ولعل في نجاح هذه التجربة ما يشكل حافزاً لكثير من الأساتذة في جامعتنا للسير على نهجها وتطويرها، وفي الإطار ذاته يمكن وضع محتوى يتناسب مع طلاب المرحلة الثانوية، من خلال عملية الانتقاء لبعض الموضوعات المحفزة لوعي الطلاب تجاه دور اللغة العربية على المستوى الذاتي والجمعي من قبيل قضايا التعريب والازدواجية اللغوية، والصراع اللغوي،

¹ الألكسو، السياسات اللغوية، تونس 2010م

² وليد أحمد العناتي، العربي وسؤال الهوية (بيان عن تجربتي في تدريس قضايا اللغة العربية في العصر الحديث وقائع ندوتي: الهوية اللغوية والعملة، واللغة العربية والهوية القومية - الأردن 2005م، ص 231

الذي " يحتل المركز الأول في أتون الصراعات، حتى وإن بدا الصراع اقتصاديا أو سياسيا أودينيا أو اجتماعيا في شكله العام، فإن محور الصراع إنما ينطلق من اللغة"¹، ناهيك عن قضايا ميلاد اللغات وانقراضها، اللغة العربية وعصر المعلومات، علاقة العربية بالعلوم المختلفة، إلى غير ذلك من الموضوعات التي من شأنها أن تنقل أبناءنا مباشرة إلى المشهد اللغوي العربي وقضاياها، ومن ثم تكوين وجهة نظر ووعي فاهم لخطورة اللغة العربية وأهميتها، إن موقف " أبناء اللغة منها يمثل رافدا لسيرورتها وازدهارها، وإن تجديد إحساس أبناء اللغة بحيوية دورها في حياتهم يمثل مطلبا جوهريا لبعث الروح في اللغة، واستتفار إمكاناتها الكامنة وطاقاتها الإبداعية"². ولعل في المحتوى المقترح في هذا المبحث ما يفتح الأبواب لرؤى أخرى أكثر نضجا واتساعا، خاصة أن تعليم اللغة مجال مفعم بالنشاط والحيوية، وهو لدى الأمم المهمومة بشأن لغاتها لا يتوقف عند حد، مع التأكيد أن هذا المحتوى ليس بديلا للمحتوى الأساس المتبع في تعليم اللغة فروعها المختلفة، ولكنه يحاول أن يعيد اللغة العربية لمجال اهتمام الطلاب، حيث الفجوة بين ما يتلقاه في أروقة الفصول وما يمارسه عمليا شديدة الاتساع، وتلك إشكالية رئيسية في تعليم اللغة العربية الأساسية.

■ مقترح إبراهيم عبد الفتاح إبراهيم، حول الدور الحضاري للغة العربية، ومقترحه عن وضع وحدة لطلاب المرحلة الثانوية لتدريس هذا الدور للغة العربية في مادة التاريخ، وقد أسس عبد الفتاح اقتراحه إجرائيا؛ لتحديد أبعاد الدور الحضاري للغة العربية التي ينبغي على مناهج التاريخ في المرحلة الثانوية أن تعمل على تجسيدها، والمصادر التي يمكن الاعتماد عليها في بناء هذه الوحدة من مثل دور العربية في الحياة السياسية والإدارية ونقل التراث إلى الغرب، وحركة الترجمة والتعريب، ودورها في التقريب بين أهالي البلاد المفتوحة. وبناء معيار يهدف إلى تحليل محتوى منهج التاريخ في ضوء أبعاد الدور الحضاري للغة العربية التي تم التوصل إليها من خلال الدراسة النظرية وتحديد مكونات هذا المعيار وصياغته، وضبطته من حيث صدقه وثباته، وبناء على هذا المحتوى تم تحديد أهم أساليب واستراتيجيات التعليم والتعلم الخاصة به والوسائل التعليمية والأنشطة المصاحبة وطرق التقويم، ويقترح الباحث إعادة النظر في فلسفة تدريس التاريخ في المرحلة الثانوية بحيث يركز على القضايا المعاصرة وجذورها التاريخية، وأهمية دوره في المحافظة على ثوابت الأمة، وأهمها تنمية الوعي اللغوي

¹ عبد الحميد عمروش، اللغة وتشكيل الوعي، حفرات معرفية في اللغة والثقافة والمصطلح، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مج1، 46/2021، جامعة العربي التبسي، الجزائر، ص: 302

² نهاد الموسى، اللغة العربية وسؤال المصير، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط1 الإمارات العربية المتحدة 2013، ص 17

وروح الاعتزاز باللغة العربية والتمسك بها ودعمها. ويقدر ما لهذه الوحدة المقترحة من أهمية إلا إن نقطة الخلاف الأساسية تتعلق بإدماج هذه الوحدة بمنهج التاريخ، إذ إن هذا الأمر من شأنه أن يجعل الطالب يتعامل مع الدور الحضاري بوصفه تاريخاً، وما يترتب على ذلك من ترسيخ للفصل فصل اللغة عن الواقع من ناحية، وفصل تاريخها الحضاري على قضاياها اللغوية والدلالية وتطورها الأسلوبي والجمالي، وهي أمور في صلب اللغة ولا ينبغي أن تنفصل عن مناهج اللغة العربية ذاتها، إذ إن كل دور تقوم به اللغة على المستوى الحضاري يستلزم تغيرات على مستوى اللغة ذاتها وبنيتها وألفاظها وهو أمر يصعب إغفاله. كذا نرى أن الدور الحضاري للغة العربية يستدعي جانبا تطبيقيا وأمثلة بمثابة شواهد وأدلة دامغة على أدوار اللغة العربية، هذه الأمثلة ذات طبيعة لغوية يصعب على منهج تاريخي أن يحتملها، وإن كنا نقبل بهذه الوحدة بوصفها وحدة مكملة تربط بين منهجي اللغة والتاريخ.

وفي طرح الباحث لهذه المحتوى لا يتوقف أمام دراسة قضايا اللغة المعاصرة فقط، بل كما أكد من قبل لابد من تضييره بالمناهج التقليدية التي تعتمد على اللغة أداة لتعليم والتثقيف، فالتوازن دائما مطلوب في المحتوى الثقافي والمحتوى اللغوي، لذلك لن نقترّب من المحتوى الثقافي والمعرفي الذي يظهر بجلاء في مناهجنا التعليمية من خلال موضوعات القراءة والمطالعة أو من خلال التعبير الموضوعي، وكلاهما يركز على الجانب الوعائي للغة وذلك أمر حتمي لتقديم المحتوى الثقافي والمعرفي. أما المقترحات المنهجية التي يقدمها الباحث فهي تتصل بزيادة الوعي اللغوي لدى طلاب المدارس الثانوية، بهدف وضع التصور المقترح لتضمين قضايا لغوية في المناهج الدراسية لتحقيق عدة أهداف منها:-

- تنمية الوعي اللغوي للطلاب للمتعلمين لمواجهة متغيرات العصر وعلومه المختلفة وإدراك تأثيرها على اللغة الأم.
 - تنمية اتجاهات المتعلم اللغوية نفسيا وعقليا بما يتيح رؤية أعمق لمشكلات لغته أيا كان تخصصه الجامعي بعد ذلك.
 - تمكين المتخصصين التربويين وواضعي المناهج الاستفادة من نتائج هذه الدراسة في تضمين إشكالات اللغة في المناهج الدراسية لطلاب لمرحلة الثانوية.
- ويتضمن المقترح التالي تعريجا على بعض الجوانب الغائب عن مناهجنا مما له دور في تنمية الوعي بأهمية اللغة ودورها في حياتنا حاملا وموضوعا، على أن يقوم بعض الباحثين في مجال التربية بوضع القياسات اللازمة وتحديد مكوناته وصياغته، وضبطه من حيث صدقه وثباته:

المحتوى التداولي :

من أهم عيوب مناهجنا الحالية إهمال الوظيفة التواصلية للغة والتي تمثل بجوار التمثيل أحد أهم وظائف اللغة، وتتم تلك الوظيفة على محورين أفقي ورأسي، فهي أفقياً رابطة بين أعضاء المجتمع الواحد، ورأسياً تمثل أهم عامل للترابط بين جيل وجيل، وانتقال الثقافات عبر العصور . وقد ازدادت هذه الوظيفة مع التطور التكنولوجي والمتغيرات المعلوماتية المتسارعة، وظهور صور من التواصل عبر الشبكة المعلوماتية مختلفة تماماً عما هو معتاد قبل ظهور تلك الشبكة التي من المنتظر أن تبلور لغة جديدة لها خصائصها ويمكن التأكيد على هذه الوظيفة التواصلية عبر قناتين:المحاورة الشفاهية، النصوص الحوارية بأشكالها المختلفة تراثية ومعاصرة، ويمكن الاستعانة بما يعرف بمسرحة المناهج؛ لتعليم اللغة لتنمية المهارات الحوارية، واستخدام ما يعرف بالتواصل عن طريق المواقف بهدف استخدام اللغة وظيفياً لرد التهمة المصقة باللغة العربية بأنها غير حوارية، رغم أنها في الحقيقة حوارية بالدرجة الأولى، ذلك" أن الاستقراء الكافي لاستعمالات الضمائر في عينة واسعة ومتنوعة من الكلام العربي يكشف أن استعمالات صيغة الخطاب ترجح استعمالات الصيغتين الآخرين، بحيث يقوم باللسان العربي قانون عام هو أن صيغة الكلام التي تتميز بها اللغة العربية هي صيغة الخطاب"¹ ، فمن الضروري وضع المحتوى التداولي - بمختلف مقتضياته الإقناعية والحجاجية- للغة في الحسبان عند التخطيط لأي منهج يتوخى النجاح والفاعلية، فاللغة العربية في أمس الحاجة للانطلاق من كونها أداة اتصال، أي إبلاغ وإخبار، لا غاية في حد ذاتها، لكن استراتيجية التربية اللغوية العربية لم تضع في اعتبارها تنمية مهارات الاتصال اللغوي بين أفراد المجتمع² ، وأي تراجع للغة هو تقليص لمساحات التواصل ومساسس بآليات التفكير وتشويش على الوجدان.

ومن المعروف أن التعليم والتعلم ظاهرة لغوية، تتم من خلال التفاعل اللفظي بين المعلم والطلاب؛ واللغة التي يستخدمها المعلم تحدد الإطار الذي يقوم التلاميذ من خلاله بمهام التعلم اللفظية والأدائية، وكذلك إطار التقييم لما هو مقبول وما هو مرفوض، وفي عبارة أخرى إن المعلمون يعلمون التلاميذ ماذا يفعلون ومتى وكيف باستخدام اللغة.

ونتوقف هنا عند أمر فيما يخص المنهج التقليدي، الأول غياب شبه تام للتداولية اللغوية لصالح النص الوعائي وسلطة التلقين والملقن، كما نلاحظ أن البلاغة بمفهومها الجديد- والتداول والحجاج في القلب منها- توسعت لتناقش مختلف أشكال الخطاب الشفاهي والمكتوب وأصبح كل خطاب موضوعاً للتحليل البلاغي الحجاجي، كالخطاب اللغوي العادي والخطاب الفلسفي والخطاب

1 طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة القول الفلسفي كتاب المفهوم والتأويل، بيروت 2005، ط2 المركز الثقافي العربي ص3
2 سمر روجي الفيصل، قضايا اللغة العربية في العصر الحديث، الهيئة السورية العامة للكتاب وزارة الثقافة 2010. ص

الأدبي... إلخ وإن المقاربة التداولية في مجال الأدب والنقد تجاوز التركيز على البنيات الشكلية والجمالية إلى الوظائف التداولية والإقناعية والحجاجية، " ودون مساءلة أفعال الكلام والمقصدية الوظيفية. فضلا عن ذلك تدرس اللغة العادية واللغة اللاعادية (اللغة الشعرية، اللغة الروائية، واللغة الدرامية... فالمقاربة التداولية هي دراسة العلامات في علاقة مع مستعملها. ومن ثم، تركز اللغة على ثلاثة مكونات ضرورية ومتكاملة حسب شارل موريس، وهي: التركيب، والدلالة، والوظيفة. ومن هنا، تُعنى المقاربة التداولية بالإشارات، والمقصدية، وأفعال الكلام، والوظيفة، والسياق، والإحالة المرجعية، والحجاج اللغوي، والإقناع"1

كذلك ترتبط التداولية بالكلام العادي والمحادثات الفعلية والواقعية مما يجعل للمواقف الحياتية نصيبا من الدراسة والتحليل ومن ثم يدرك الطالب دور اللغة وفعاليتها التواصلية والإقناعية، إن الخطاب الأدبي كان له النصيب الأكبر من الاهتمام في مختلف التيارات التداولية، " فالنص الأدبي بوصفه خطابا يحمل في طياته وظائف ومقاصد سياقية، فكل ما يوجد في النص يدل بشكل من الأشكال، ويحيل إلى أدوار تداولية ومقاصد مباشرة وغير مباشرة، فليس هناك في النص الأدبي ما هو مجاني وزائد، بل ترتبط الدلالة بالمعاني السياقية والرسائل الظاهرة والمضمرة. بمعنى أن لغة النص الأدبي وظيفية وتداولية تحمل في مظاهرها أبعادا سياقية سياسية، اجتماعية واقتصادية وثقافية"2، وبناء عليه تنظر المقاربة التداولية للنص الأدبي من داخله وخارجه، أو "من منظور كلي دون أن تهدر دلالاته وتراكيبه، وترتبط معانيه بسياقاته المقامية والإنجازية ومكوناته التلفظية والحجاجية ومستويات العلاقات التخاطبية بين منتج النص ومتلقيه بقصد التأثير فيه وتغيير في مواقفه السلوكية أو التأكيد عليها." فكل ما في النص يدل ويحيل ويحمل وظائف سياقية متنوعة سواء أكانت نصية داخلية أم مقامية خارجية"3 وعليه فإن المقاربات المغلقة التي تركز على بنية النصوص وتراكيبها وانزياحاتها لا تجدي فتىلا عن المقاربة الخارجية، بل من الضروري أن نذهب إلى ما ذهب إليه تودروف من أن تكون المقاربة الداخلية ينبغي أن تكون مكاملة للمقاربة الخارجية"4 وعليه فإن لا يمكن إلغاء الوظيفة التواصلية للأدب من ناحية، كما لا يمكن الحديث عن معنى ما لنص ما مجردا من سياقه ومتداوليه، حيث يتحدد المعنى التداولي من خلال علاقة النص بمنتجه من جهة وبالسياق المقامي من جهة أخرى، إضافة إلى جهة الاستعمال. وهذا الجانب من شأنه أن يزيد الوعي اللغوي بمستوياته المختلفة، وينمي إدراكهم بأهميتها ودورها في حياتهم.

1 جميل حمدوي، المقاربة التداولية في الأدب والنقد، <http://www.diwanalrab.com> موقع ديوان العرب 2012/1/6

2 جميل حمدوي، المقاربة التداولية في الأدب والنقد، العربية والترجمة، المنظمة العربية للترجمة، مج4، 9ع، 2012، ص63، 114

3 جميل حمدوي، السابق، ص71

4 - تودروف، الأدب في خطر، ت عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، المغرب 2007، ص18

إن الحديث عن التداولية هو حديث عن استراتيجيات خطابية مختلفة خاصة الإقناعية التي تتسم بالشمول ويمارسها الطالب في حياته، ولها بعدها التربوي، بوصفها أداة أساسية في الدعوة والتربية والتعليم في الفضاءات المختلفة، البيت والمسجد والمدرسة، واستجلاء إمكانات النصوص الإقناعية يكشف عن أبعاد أخرى وأدوار للنصوص الرئيسية مثل، القرآن الكريم و الشعر لم يلتفت إليها كثيرا وأهميته في حياة الطلاب

المحتوى التاريخي

يدرس الطلاب اللغة الأم بوصفها مادة دراسية منذ بدايات الطفولة دون ربطهم بتاريخ لغتهم الأم وتطورها على أهمية هذا الأمر ودون الحديث عن أهم اللغويين قديما وحديثا ودورهم في تطويرها نحو وصرفا وبلاغة ونقدا، لذا يمكن صياغة محتوى تاريخي يسير في اتجاهين: الأول يتعلق بتاريخ اللغة الأم وأهم المحطات التاريخية لتطورها في مرحلة من المراحل، دراسة بعض الشخصيات الأساسية في تاريخ العربية مثل: سيبويه والجرجاني والزمخشري وابن جني والفراهيدي ومن المحدثين ممن لا يحصى عددا، والكشف عن أدوارهم بصورة تكشف عن دورهم وتجعل منهم مثلا يحتذى. فتراجم اللغويين كغيرها من التراجم تقوم بعرض الصور التي تكثفت فيها خصائص الأمة وملكاتهما. والتربية الخلقية تركز على ركيزتين أساسيتين هما: المبدأ والمثال، أما المبدأ فهو ما تقوله للناس من الوجهة النظرية، أما المثال فهي المثال بمعنى تجسد ما تريده من المبادئ في أشخاص حقيقيين، عاشوا تلك المبادئ دون أن يرددوا ألفاظها، وشهد منهم مواقف عملية كانت بمثابة التطبيق الفعلي لما نريد لأنفسنا¹، ومن شأن هذا المحتوى أن يقوي الوعي التاريخي لدى الطلاب بمقومات وجودهم التاريخية من ناحية ويربطهم لغويا وفكريا وثقافيا بتراثهم بعيدا عن التمجيد الأجوفاً والشيفونية الزائفة.

المحتوى المقارن :

وهو ضروري وأشد ضرورة في ظل تكنولوجيا المعلومات ومجتمع العولمة، فلن تظهر خصائص العربية وعراقتها إلا من خلال محتوى مقارن يعطي الثقة في الطلاب حيال لغتهم وقوتها ويتعلمهم أكثر تماسكا إزاء اللغات الأخرى، فمن المعروف أن انتشار اللغات الأخرى واحتلالها مكان العربية في تدريس العلوم المختلفة لا يرتبط بطبيعة اللغة العربية وقصورها بقدر ما يرتبط بمركب النقص الذي استقر في العقلية العربية، فوعي الطلاب أن اللغات لا تهان

¹ زكي نجيب محمود مجمع جديد أو كارثة - الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة) القاهرة 2007م.

بعضها بعضا اللغات، ولا تترك بعضها بعضا وشأنها بل تحاول كل لغة أن تزيح الأخرى جغرافيا ووظيفيا، وهو ما يشكل محفزا أساسيا في إدراك أبعاد الظاهرة اللغوية وخطورتها. وفي هذا الإطار يمكن دراسة اللغة من حيث خصائصها المميزة مثل:

- الوسطية اللغوية
- المرونة النحوية
- ثراء المعجم
- الأبعاد الصوتية والنغمية
- الحساسية السياقية

ويمكن في هذا الإطار الاستعانة بما يعرف بالتحليل التقابلي الذي يحقق بالإضافة لأهدافه الأساسية من فحص أوجه التشابه والاختلاف، والتنبؤ بالمشكلات التي تنشأ عن تعلم اللغات الأجنبية ومحاولة تفسيرها، وتطوير مواد دراستها¹. إضافة لكل ذلك يلعب التحليل التقابلي دورا في تطوير تعلم اللغة الأم "إذ ثبت بالتجربة العملية أن كثيرا من الظواهر اللغوية في العربية تكون أكثر وضوحا حين تعرض للدرس التقابلي...ويثمر ذلك - بلا شك - رؤية أفضل نحو تطوير المواد الدراسية لتعليم اللغة الأولى²، ومن شأن المحتوى التقابلي القائم على الموضوعية أن ينمي مشاعر الولاء والانتماء للغة العربية على أساس علمي سليم دون مبالغة أو تقديس. وليس مقصد تضمين المنهج نماذج مقارنة التحيز غير المبرر للغة وإنما المقصد تبيان جوانب قوتها والعمل على تعزيز الرابطة بين الطلاب ولغتهم، في إطار علاقة وسطية متزنة.

المحتوى الإبداعي :

لا يقتصر دور اللغة على مكون التواصل كما هو متداول في بعض الدراسات اللسانية، بل إن لها أدوارا أخرى، تتمثل في عنصر الترميز، أي ترميز الصور والبنى اللغوية ذات الطابع الذهني/النفسي، كما لها القدرة على تمثيل الواقع والقدرة على التخطيط، والقدرة على الخلق والإبداع الذهني للعوامل الممكنة وغير الممكنة. فاللغة لها بنية معرفية وذهنية تجعلها قادرة على ترميز وتمثل العالم الفيزيائي الواقعي والاستعاري.

وفقا للمناهج التقليدية يقدم الإبداع الأدبي بمختلف أنواعه شعرا ونثرا وفقا لسلطة المنهج ومؤلفه، دون ترك أدنى مساحة للاختيار ليقوم بها الطالب، ودون مراعاة لاتجاهاته وميوله، وهو ما يجعل الطالب خاصة طلاب المرحلة الثانوية يضيقون بها ذرعا، فالتعليم كما يقول باولو

¹ عبده الراجحي: علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية- دار المعرفة الجامعية، ط1 الاسكندرية 1995م.ص48

² عبده الراجحي: علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية- دار المعرفة الجامعية، ط1 الاسكندرية 1995م. ص49

فريري ممارسة للحرية ولي مجرد نقل أو إرشاد إلى المعرفة الفنية¹ ، والحقيقة أن تعليمنا يعاني من نقص شديد في البحوث التي تتناول اتجاهات الطلاب القرائية، وميولهم الأدبية.

كذلك تسير المناهج التقليدية في مدارسنا الثانوية وفقا لفكرة العصور الأدبية، ورغم وجاهة هذه الفكرة إلا إن التركيز على فكرة العصور الأدبية يسهم بشكل أساسي في تنفير الطالب من اللغة العربية إذا يدرس الطالب في الصف الأول الثانوي أصعب نماذج للنصوص العصر الجاهلي شعرا ونثرا، ثم يدرس العصور الإسلامي والأموي والعباسي والأندلسي والعثماني والمملوكي والحديث تباعا في المراحل الدراسية التالية، وتظل النظرة التاريخية هي الحاكمة بصورة لا تراعي تذوق الطالب للنصوص وتفاعل معها، فمن أخطر ما يواجه مدرسو اللغات الحشو القائم على تقديم المعلومات والمعارف دون مراعاة المتلقى، لذا يرى الباحث ضرورة التحول من فكرة العصور إلى فكرة النصوص والذخائر القائمة على اختيار المتلقى ونقده لها، حيث تظل فكرة وضع منهج محدد وإجبار الطالب على دراسته من أهم العوائق التي تحول بين الطلاب وما أبدعته القرائ شعرا ونثرا، وربما كانت فكرة العودة إلى المنتخبات أكثر جدوى، إن تعليم اللغة هو تربية الحرية، ومن ثم لا جدوى من كل نص نلزم به الطلاب إلزاما . ونص واحد يحبه الطالب خير من منهج كامل يجبر علي على دراسته دون تفاعل معه ثم ينساه مع نهاية عامه الدراسي .

يضاف إلى ذلك بعد آخر يتعلق بتنمية الوعي اللغوي من خلال فن الخط العربي، وهذا الجانب لم يأخذ حقه من العناية ، حيث تضاف حصص الخط في المرحلة المتوسطة غالبا، وتهمل فيما بعد ذلك، وكأن الهدف الأساسي منها تقويم الحروف وكتابتها بطريقة صحيحة، وهنا يتساءل الباحث إذا كان هذا هو المستهدف في المرحلة المتوسطة أو الإعدادية فلم لا يتطور منهج الخط العربي ليتواكب مع مراهق المرحلة الثانوية وتنمية قدراته على إدراك المكونات الجمالية للحرف العربي ؟ إن الخط العربي بجمالياته من أنجع الوسائل - في رأي الباحث- في بث مضامين دينية وأخلاقية وقومية حيث يتضافر المستويان في تفاعل خلاق وبشكل فاعل متميز، تنتقل فيه زائفة المتلقي ما بين المستوى الجمالي والمضمون الفكرالذي يحمله. ومن ثم يكون الخط العربي مدخلا جماليا لتنمية الوعي اللغوي وإشباع الذوق الجمالي لدى الطلاب، وتأكيد الهوية اللغوية العربية، خاصة أن الحروف العربية تمتلك طاقة هائلة من الحركة والنطق والرقص والتمرد والإيقاع والرشاقة، وقابليته للبسط والمد والاستدارة والصعود والهبوط في حرية مذهلة وهو الذي يتخطى إطار الصورة لتعميق المشاركة بين الفنان والمتلقي. وفي حصة الخط وما تعانيه من إهمال تتجلى التبعية في أزهى صورها، إذ نجد أن الحاسب هو من يكتب الآن مختلف الخطوط، كما إن الخطاط الذي يكتب قد يكتب كلمات أجنبية بحروف عربية للدعاية

¹ باولو فريري: التعليم من أجل الوعي الناقد، ترجمة حامد عمار، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 2007م.ص213

والإعلان، ولم ينظر إليه بوصف فن عربي أصيل يجب المحافظة عليه والتأكيد على أهميته، وذلك لأننا تبيننا رؤية للفن استوردناها من الغرب، ولأن فن الخط ليس ضمن الفنون الغربية الجميلة فقد ضمّر فن الخط هنا، وهو من أهم الفنون العربية، لا لسبب إلا لأنهم لا يعترفون به فنا¹، إن التجربة الجمالية للفنون ومنها فن الخط تحتاج إلى مقاربتها من خلال الهوية واللغة معاً، فكما أنه لا يمكن لفيلسوف التعبير عن قضاياها خلال اللغة غير الوطنية؛ فإن أهم شيء في الفنون هو أن تنطلق من هوية وخصوصية، إذ أن الخصوصية هي التي تجعلها تقابل فنون الجغرافيات الأخرى.

وفي إطار المحتوى الإبداعي لابد من دراسة جادة لتعبير الطلاب الشفاهي والكتابي، وإتاحة الفرصة لهم ليتحرروا في التعبير عن ذاتهم، فالكتابة مسألة هوية وإذا كانت هوية المتكلم في الخطاب المنطوق تُقَدُّ من المظاهر الصوتية والنغمية، فإن ملامح الهوية في الكتابة تتشكل وتبين من خلال خصائص الكتابة المعجمية والدلالية والنحوية، تكشف عن اختيارات الطالب ومواقفه الخطابية من القضايا المطروحة، فيما يعرف بالذات الخطابية، وهي جملة من الهويات يكتسبها الفرد بمقتضى مشاركته في خطاب جماعة محددة، كما علينا أن نغير قناعتنا فيما يتعلق بالحفظ باعتباره يعد من أحسن آليات إنشاء المودة والحميمية بين الطالب والنص ودورها في تطوير ملكة النقد.

المحتوى النقدي :

يلاحظ على مناهج اللغة العربية توقعها عند شكل وحيد في تناول النصوص وشرحها وهو ما لا يمكن أن يسميه نقداً، إنما يسمى تحليلاً وتفسيراً، ومن ثم يكون مؤلف المنهج هو صاحب المعنى الوحيد وبانيه ومُشكّلة، ولا يبق للطلاب غير التلقي السلبي للحفظ، ودعك من الحديث عن الحوار والمناقشات بين الطالب والمعلم، فكل ذلك يذهب إدراج الرياح لأننا أسرى النص المكتوب وهو صاحب المصادقية؛ لذا كان ضروريا توجيه الطلاب إلى نوع من التفكير النقدي وتقديم بعض نظريات النقد الحديثة بصورة مبسطة عن نظريات السرد والبنوية والتفكيكية ونظريات الخطاب، وهو ما ينقلنا لقضية أخرى وهي كيف تعامل باحثونا ونقادنا مع الوافد النقدي نقلا وترجمة، لا مجادلة أو مساءلة، وهو ما يعكس أكثر أشكال التبعية خطورة، أقصد التبعية الفكرية من قبل النخبة المثقفة.

يوفر المحتوى النقدي السليم الفرصة لنمو وعي لغوي عن طريق طرح أسئلة ميتا معرفية قبل التعلم وأثناءه وبعده، فمن شأن هذه الأسئلة أن تخلق بناء انفعاليا ودافعيا ومعرفيا، وحين يبدأ

¹ المسيري، فقه التحيز، م س، ص 33

التلاميذ في استخدام الأسئلة يصبحون أكثر شعوراً بالمسؤولية عن تعلمهم ويقومون بدور أكثر إيجابية، حيث يسمح تتابع الأسئلة الممتا معرفية- من قبيل تساؤل طالب يقرأ فقرة ما، ماذا أقرأ؟، لماذا أقرأ هذا؟ لماذا يعد هذا مهماً؟... إلخ - بتكوين خطة لينتقل من البسيط إلى المركب ويخلق بناء يستخدمه في تكوين علاقات بين المفاهيم المختلفة ومن شأن هذا النشاط الفكري أن يخرج إلى الأنشطة الحياتية المتنوعة لغوية: وإعلامية وفنية وثقافية وسياسية .

وفي ظل السماوات المفتوحة والثورة الرقمية ومواقع التواصل، والهجوم الضاغط من العولمة لا بد أن يكون تعليمنا قائم على وعي نقدي يتكامل ويتشابك مع الواقع، بخلاف الوعي الساذج الذي يفرض نفسه على الواقع، فالإسهام المميز للتربية يتمثل في رأي فريري في تعليم نقدي، يعين على تكوين اتجاهات نقدية لمواجهة الوعي الساذج¹، ومع السلطوية المسيطرة على بناء المناهج واختيار محتواها، وفي ظل الحرية الزائفة التي توفرها تلك المناهج وامتحاناتها من خلال استبدال موضوع بآخر يصعب الحديث وعي نقدي لدى طلابنا .

¹ باولو فريري، التعليم من أجل الوعي الناقد، ترجمة حامد عمار، البار المصرية اللبنانية، القاهرة 2007م، ص72

خاتمة البحث

حاول الباحث في دراسته أن يمهد طريقا جديدا لنظرة أخرى للغة في إطار الوسطية اللغوية ونبذ الخطابات المتطرفة في تعاملها مع اللغة، واعتمد على طرح ما يعرف باللغة الموضوع في مناهجنا التعليمية لمناقشة اللغة المحمول إذا استخدمنا ثنائية الموضوع والمحمول باصطلاح المنطقة، وهي نظرة لا تغنى عن النهج المتبع في تعليم اللغة نحوا وصرفا وبلاغ، لكنها تعضدها وتستكمل ما بها من نقص، إذ لاحظ الباحث أن المناهج التقليدية تغرق في تفاصيل دون أن تلتفت الانتباه لأهمية تلك التفاصيل ودون تركيز على المعنى الكامن في تمييز اللغة العربية منهجيا عن غيرها، وفوائد الاهتمام باللغة التي لا تقتصر على تقييم اللسان وتصحيح الأخطاء، حيث أضاف عصر المعلومات والعولمة أدوار للغة تختلف بالكلية عن ذي قبل، تتعلق بأمور السياسة والاقتصاد والعلاقة بالآخر، وقضايا الصراع اللغوي والهويات اللغوية، وهو الأمر الذي يتطلب وجود محتوى مناسب يقدم زاد معرفيا لطلابنا بحيث يعي وعيا فاعلا أهمية تمسكه بلغته ووضع تصورات لآليات تطويرها، فمع الانفتاح على الآخر بالصورة التي نراها كان من الواجب أن يأخذ الوعي اللغوي مزيدا من الاهتمام ما دمنا واعين بأهميته، فلا نتركه هملا، فيضعف أو يندثر نهائيا على النحو الذي نرى مظاهره واضحة في مجتمعنا العربي، ولعل نظرة متعالية للغة ودورها وأهميتها ووظائفها تسهم في تكوين هذا النوع من الوعي الذي يمثل إطارا أساسيا لأنواع أخرى من الوعي، فهو كما ذكرنا الوعي الأساسي .

ومن خلال ما يعرف بالميتا لغة أي اللغة الشارحة قسم الباحث مستويات الوعي اللغوي إلى مستويات ثلاث ، وكان تركيزه على المستوى الثالث لسببين: الأول عدم تركيز مناهجنا التعليمية عليها، وذلك بحكم النظرة الوعائية للغة، أما الأمر الثاني فيتعلق بإمكانية تضمين مناهجنا ما ينمى هذا النوع لكونه ألق بتشكيل الهوية وبث روح الانتماء لدى الطالب العربي، وقد وضع الباحث في ختام الفصل الثالث من دراسته محتوى مقترح ارتأى أن من شأنه أن يرقى ويوسع هذا النوع من الوعي لدى طلاب المرحلة الثانوية الذين يفترض اكتمال معارفهم الأساسية فيما يخص تعلم اللغة وإتقان مهارتها الأربع الأساسية، وما يترتب على ذلك من التحرر من مفاهيم خاطئة ومشاعر سلبية تجاه لغته العربية، وإعادة التوازن له ذاتيا دون إحساس بالدونية الخفية التي تختفي تحت إهاب الرطانات والعجمة، بل من شأن الوعي اللغوي لو توافر بصورة طيبة أن ينشئ لنا أجيالا من الباحثين يبحثون عن زوايا جديدة لدراسة وتطوير اللغة بحثا وتعلما وتقانة.

فيما يخص الهوية القومية توقف الباحث سريعا لرصد تحولات الوعي اللغوي الموازية لتحولات المفاهيم الخاصة بالقومية والهوية وصدى ذلك في التعليم العربي، فدرس الباحث خطاب الهوية في التعليم العربي موضحا خطورة أدلجة الهوية وجناية ثبوتيتها على جمود اللغة وإعاقتها عن

التطور الفاعل، فالهوية تصنع ولا تورث، وكذلك اللغة مثل أوراق البنكنوت يملكها الإنسان ولا تملكه.

وفي النهاية...

يقترح الباحث ما يلي:-

1. تبني مفهوم الوسطية اللغوية في خطابنا اللغوي الذي لا يقوم على المبالغة غير المبررة، أو الغمط المجحف، وإنما يعتمد الحجة والبرهان والدليل على عظمة هذا اللغة التي تضرب بجورها في أعماق التاريخ وترتبط بكتاب سماوي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.
2. القيام بعمل استبيانات دورية لطلاب المرحلة الثانوية حول منهج اللغة العربية ومواطن القوة والضعف، وحول توجهياتهم نحو اللغة مقارنة باللغات الأخرى، ووعيهم بدورها.
3. دعوة الباحثين والمهتمين لبلورة مفاهيم الوعي اللغوي إشكالياته ومستوياته في المناهج الدراسية، وهذا الأمر بحاجة لعقول مبدعة وأفكار غير تقليدية.
4. التوسع في الخروج عن النطاق المنهجي إلى رحاب المجتمع ووسائل الاتصال الحديثة، وطرح الأشكال التواصلية الحديثة للنقاش والمتابعة الدقيقة للتعرف على توجهات الشباب اللغوية.
5. الاستفادة من وسائل الإعلام والتواصل بمختلف أنواعها في التوعية اللغوية، ويستطيع التلفاز أن يحدث طفرة في هذا المجال، خاصة في تجارب قنوات الأطفال الناجحة التي تبث برامجها باللغة الفصحى .
6. البعد الديني للغة العربي شديد الأهمية، وهو أكثر العناصر تأثيرا في الجمهور، يمكن في هذا الإطار استغلال خطب الجمع وغيرها من الدروس في التوعية اللغوية باعتبارها المنشط الحقيقي لتجديد الخطاب الديني تفسيرا وفقها .
7. إتاحة الفرصة للتجريب في مجال المدارس الثانوية المتخصصة (schools Magnet)، تشبه بعض المدارس التي استحدثت بالولايات المتحدة و تهتم بمجالات دراسية محددة: كالعلوم والتكنولوجيا، أو الآداب والإنسانيات واللغات، وتجذب الطلاب الذين يهتمون بالتخصص، وقد تضحى بالتنوع في مقرراتها لتركز على مجال التخصص، فوجود مدارس متخصصة في اللغات من شأنه، تحقيق التوازن في دراسة اللغة الأم دون افتئات على اللغات الأجنبية الضرورية، التمهيد للتخصص في أقسام اللغات مع امتلاك عدة معرفية أساسية عن اللغات الأخرى. غير أن هذا النوع من المدارس يتطلب دافعية أساسية لدى الطلاب، والتحرر من الرؤية التقليدية للتعليم أو النظرة الوعائية للغة وإهمال دورها في تنمية العمليات الذهنية والفكرية لدى دارسيها .

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولا المصادر:

1. ابن جني (أبو الفتح عثمان بن جني)، الخصائص، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط القاهرة، 2006م
2. أبو عبيدة عمر بن المثنى التميمي، (ت210هـ)، مجاز القرآن، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة ج1، دت
3. الجرجاني(علي بن محمد الجرجاني)، التعريفات، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الريان للتراث، القاهرة، دت
4. الرازي (فخر الدين محمد بن عمر الرازي)، مفاتيح الغيب، (التفسير الكبير)، دار الفكر، ط1 بيروت 1981
5. الزركشي(أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر)البرهان في علوم القرآن، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار التراث العربي، القاهرة1984م
6. الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري)، المفصل في صناعة الإعراب، تحقيق علي بو ملح، بيروت، مكتبة الهلال، ط1، 1993م
7. الشاطبي(أبو إسحاق إبراهيم بن موسى)، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق، محمد عبد الله دراز، المكتبة التجارية، مصر، دت
8. الشافعي (محمد بن إدريس)، الرسالة، سلسلة تقريب التراث، مركز الأهرام للترجمة، القاهرة 1988
9. الكفوي (أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني)، الكليات، القسم الثاني، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت ط2 1998م

ثانيا المراجع العربية

1. إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، دار المعارف، ط1 مصر 1970م.
2. إبراهيم صالح الفلاي، ازدواجية اللغة النظرية والتطبيق، مكتبة فهد الوطنية، ط1 الرياض 1996
3. أحمد بن نعمان، واقع اللغة العربية في أجهزة الإعلام (كتاب اللغة العربية إلى أين) منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) 1426هـ/ 2005م
4. أحمد خيرى العمري، البوصلة القرآنية، إبحار مختلف بحثا عن خريطة للنهضة، دار الفكر، ط3 دمشق 2010م
5. البدرأوي زهران، مقدمة في علوم اللغة، دار المعارف، القاهرة 1987م
6. بسام بركة، الترجمة إلى العربية دورها في تعزيز الثقافة وبناء الهوية، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي، إشكاليات التعليم والترجمة والمصطلح، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1بيروت 2013،
7. تمام حسان، البيان في روائع القرآن، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 2002م
8. جابر الكريم الجباعي، اللغة والمعرفة والقيود للحرية، مجلة الجديد، ع12، لندن 2016م.
9. جابر عصفور، النقد الأدبي والهوية الثقافية كتاب دبي الثقافية، ط1 دبي 2009 م

10. جابر عصفور، حوار الحضارات والثقافات، اليونسكو، كتاب في جريدة، ع101، 2007م
11. جابر عصفور، نظريات معاصرة، الهيئة المصرية للكتاب (مكتبة الأسرة)، ط1 القاهرة 1998م
12. جلال أمين، ماذا حدث للمصريين (تطور المجتمع المصري في نصف قرن 1945م، 1995م) الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة)، القاهرة 1999م.
13. جمعة سيد يوسف، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، عالم المعرفة، ع 145 الكويت 1990.
14. حسن الباهي، اللغة ولغة اللغة، مجلة المناظرة، ع2، الرباط 1989م.
15. الحسين الزاوي، الهوية وفلسفة اللغة العربية، منتدى المعارف، بيروت 2014.
16. حمزة المزيني، مراجعات لغوية، كتاب الرياض، ع 75، الكتاب الثاني الرياض 1420هـ
17. حمزة بن قبلان المزيني، التحيز اللغوي وقضايا أخرى، كتاب الرياض ع 125، 2004م
18. رءوف أبو سعدة، من إعجاز القرآن العلم الأعجمي في القرآن مفسرا بالقرآن، دار الهلال، ج1، 1994م
19. رانيا رجب شعبان، الوسطية، مجلة المسلم المعاصر ع152 لبنان، 2014م
20. رفيق لبوحسيني، الأبعاد الرابطة بين اللغة العربية والتواصل، دراسة في كتاب التواصل نظريات وتطبيقات بإشراف محمد عابد الجابري، الكتاب الثالث، الشبكة العربية للأبحاث والنشر بيروت 2010م
21. رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي، القاهرة ط3، 1994م
22. ريم بسيوني، علم اللغة الاجتماعي، محاور ونظريات، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، الرياض 2018.
23. زكي نجيب محمود، مجتمع جديد أو كارثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة) القاهرة، 2007م.
24. سعيد إسماعيل علي، الفكر العربي التربوي الحديث، عالم المعرفة، ع119، الكويت، مايو 1987م.
- ص 161
25. سلامة موسى، البلاغة العصرية، مركز هنداوي للنشر، القاهرة 2008م
26. سمر روجي الفيصل، قضايا اللغة العربية في العصر الحديث، الهيئة السورية العامة للكتاب وزارة الثقافة 2010.
27. السياسات اللغوية، المنظمة العربية للثقافة الأيسيكو، تونس 2010م
28. شريف الشوباشي، لتحيا اللغة العربية ويسقط سببويه، ط3 مدبولي الصغير، القاهرة 2004م
29. طه عبد الرحمن، روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، ط1 بيروت 2006م
30. طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة القول الفلسفي كتاب المفهوم والتأثيل، ط2 المركز الثقافي العربي، بيروت 2005م
31. عبد الإله بلقزيز، نهاية الداعية، الممكن والممتنع في أدوار المتقنين، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط2 بيروت 2010
32. عبد الجليل هنوش، ملاحظات حول تعليم اللغة العربية في المرحلة الثانوية، اللغة العربي إلى أين، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) 1426هـ/ 2005م
33. عبد الحميد إبراهيم، الوسطية العربية، مذهب وتطبيق، الكتاب الأول دار المعارف، ط3، القاهرة 1990م
34. عبد الحميد إبراهيم، الوسطية العربية، مذهب وتطبيق، الكتاب الثالث نحو وسيطة معاصرة، دارالمعارف، ط1، القاهرة 1991م

35. عبد الحميد إبراهيم، الوسطية العربية، مذهب وتطبيق، الكتاب الثاني، التطبيق، دار المعارف، ط1، القاهرة، 1986م
36. عبد الرازق الداوي، في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات، حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1 بيروت 2013.
37. عبد الرحمن بدوي، دفاعا عن القرآن ضد منتقديه، كتاب مجلة الأزهر، القاهرة، 2015م.
38. عبد السلام المسدي، العولمة والعولمة المضادة، كتاب سطور، ط1 القاهرة 1999م
39. عبد السلام المسدي، الهوية العربية، والأمن اللغوي، دراسة وتوثيق، المركز العربي للأبحاث والدراسات، بيروت 2014م
40. عبد السلام المسدي، العربية والإعراب، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1 ليبيا 2010م.
41. عبد السلام بنعبد العالي، ضد الراهن، دار توبقال للنشر، ط1 المغرب 2005م
42. عبد الصبور شاهين، عربية القرآن، مكتبة الشباب، ط1 القاهرة، 1997م
43. عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية (دراسة في الهوية والوعي)، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت 1986م
44. عبد القادر الفاسي الفهري، حوار اللغة، منشورات زاوية، ع1 الرباط 2007م
45. عبد القادر الفاسي الفهري، السياسة اللغوية والتخطيط، مسار ونماذج، إصدار مركز عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط1 الرياض 2014،
46. عبد الكريم بكار، تجديد الوعي، دار القلم، دمشق ط1، 2000م.
47. عبد الله الغدامي، اللغة والمرأة، المركز الثقافي العرب، ط3 بيروت 2006م
48. عبد الله ركيبي، الفرانكوفونية مشرقا ومغربا، دار الكتاب العربي الجديد- الجزائر 2009م
49. عبد الوهاب المسيري، الهوية والحركة الإسلامية، حوارات، تحرير سوزان حرفي، دار الفكر، دمشق 2009م
50. عبده الراجحي، علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية، دار المعرفة الجامعية، ط1 الاسكندرية 1995م.
51. عز الدين المناصرة، الهويات والتعددية اللغوية دار مجدلاوي، الأردن 2004م.
52. عزمي بشارة، أن تكون عربيا في أيامنا، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 بيروت 2009م
53. على حرب، حديث النهايات فتوحات العولمة ومأدق الهوية، المركز الثقافي العربي، ط2 بيروت 2004م.
54. عماد عبد اللطيف، البلاغة والتواصل عبر الثقافات، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 2012م.
55. كمال عبد اللطيف، سلامة موسى وإشكالية النهضة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2009م
56. لطفي عبد البديع، ميتافيزيقا اللغة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1997م
57. مازن المبارك، نحو وعي لغوي، مؤسسة الرسالة، بيروت 1979
58. محمد أبو القاسم حاج محمد، منهجية القرآن المعرفية، أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، دار الهادي، ط1 بيروت 2003م
59. محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس 1984م.
60. محمد المزالي، تعليم العلوم بالعربية، مجلة الحياة الفكرية، الهيئة السورية للكتاب، ع2 2009م
61. محمد أمارة، اللغة العربية في إسرائيل (سياقات وتحديات)، المركز العربي لحقوق والسياسات، دار الفكر الأردن 1010م.
62. محمد رشاد حمزاوي، العربية والحداثة، دار الغرب الإسلامي ط2، تونس 1986م

63. محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، اللغة، دار تويقال للنشر، المغرب 2004م
64. محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية ط9 بيروت 2009م
65. محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط5 بيروت 1994م
66. محمد عابد الجابري، فكر ونقد، عدد 24، ديسمبر 1999م
67. محمد فهمي زيدان، في فلسفة اللغة، دار النهضة العربية، بيروت 1985
68. محمد محمد داود، دموع الشوباشي بين يدي سيبيويه، دار غريب، القاهرة 2004م.
69. محمد محمد مدني، وسطية الإسلام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 2014م
70. محمد نافع العشيرى، مفهوم اللغة ومفهوم الهوية ومظاهر التفاعل، عالم الفكر، ع4/ مجلد 43، أبريل، يونيو 2014
71. محمود أمين العالم، الفكر العربي بين الخصوصية والكونية، دار المستقبل العربي، القاهرة 1996م
72. محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1997م
73. مصطفى حجازي، الإنسان المهودور، دراسة تحليلية نفسية اجتماعية، المركز الثقافي العربي، ط1 المغرب 2005م
74. مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، ط9 بيروت 2005م
75. مصطفى ناصف، اللغة والتفسير والتواصل، عالم المعرفة عدد 193، الكويت 1995 م
76. منى أبو الفضل، الأمة القطب، نحو تأصيل منهجي لمفهوم الأمة في الإسلام، مكتبة الشروق الدولية، ط1 القاهرة 2005.
77. منير الحافظ، الوعي اللغوي، دار الفرقد 2005 دمشق.
78. نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، عالم المعرفة، ع265، الكويت 2001
79. نبيل علي، تحديات عصر المعلومات، الهيئة المصرية العامة للكتاب مكتبة الأسرة، القاهرة 2003م.
80. نبيل علي، العرب وعصر المعلومات، ط2 مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1999م
81. نبيل علي، العقل العربي ومجتمع المعرفة، عالم المعرفة، عدد 370(ج2) الكويت 2009 م
82. نبيل علي، الفجوة الرقمية، رؤية عربية لمجتمع المعرفة، عالم المعرفة ع318، الكويت 2005م
83. نصر حامد أبو زيد، الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية، سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1992م
84. نفوسة زكريا سعد، تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، دار نشر الثقافة ط1 الإسكندرية 1964م
85. نهاد الموسى، اللغة العربية وسؤال المصير، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط1 الإمارات العربية المتحدة 2013،
86. نهاد الموسى، اللغة العربية في العصر الحديث قيم الثبوت وقوى التحول، دار الشروق ط1، عمان 2006م
87. يحيى الرخاوي، دليل الطالب الذكي في علم النفس والطب النفسي، دار عطوة للنشر، القاهرة 1980م، ج1
88. يحيى الرخاوي، مراجعات في لغات المعرفة، دار المعارف، القاهرة 1997م
89. يوسف القرضاوي، كلمات في الوسطية ومعالمها، دار الشروق ط3، القاهرة 2011م

ثالثا الدراسات والأبحاث العربية

1. إبراهيم عبد العزيز أبو حميد، السن المناسبة لتعليم اللغات الأجنبية، مجلة الدراسات اللغوية، مج 2/ع 3 الرياض 2010
2. أحمد حسين حسنين العربي، دراسة لغة التعليم وتأثيرها في الهوية ميدانية على عينة من الطلاب المصريين في ظل أنظمة تعليمية متباينة، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي إشكاليات التعليم والترجمة والمصطلح، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت 2013م
3. أحمد مختار عمر، اللغة العربية بين الموضوع والأداة، فصول، مجلد 4، عدد 3، 1984م.
4. أحمد موسى الخطيب، اكتساب الطفل العربي للغة الأم في زمن العولمة، وقائع ندوتي: الهوية اللغوية والعولمة، واللغة العربية والهوية القومية الأردن 2005م
5. ريماء سعد الجرف اتجاهات الشباب نحو استخدام اللغتين العربية والإنجليزية في التعليم الجامعي، موقع ديوان
6. سعد مصلوح، بسيم عبد العظيم، العربية بين اللغات: رؤية مغايرة، سياقات اللغة والدراسات البينية، الإصدار الأول، ع3 القاهرة 2016.
7. صالح بن رمضان، اللغة العربية نحو أي مستقبل، جذور (النادي الثقافي بجدة) ج21، مج 5 سبتمبر 2005م.
8. عادل بن الحاج رحومة، تنشئة الهويات الفردية عند الشباب عبر الفضاءات الاتصالية والمعلوماتية، إضاءات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2010م
9. عبد الإله بلقزيز، الآخر وأنا في الوعي العربي المعاصر، التسامح، ع 18 سلطنة عمان، ربيع 2007م.
10. عبد الحميد عمروش، اللغة وتشكيل الوعي، حفريات معرفية في اللغة والثقافة والمصطلح، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مج1، ع4/2021، جامعة العربي التبسي، الجزائر، ص302: 321
11. عبد السلام بنعبد العالي، نحو نشأة مستأنفة، مجلة فكر ونقد، عدد 11، سبتمبر 1998م
12. عبد الوهاب المسيري، فقه التحيز، دراسة ضمن سلسلة أبحاث إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهد، ط3 المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، 1998م
13. عبد الوهاب المسيري، هاتان تقاحتان حمران، دراسة في التحيز وعلاقة الدال بالمدلول، دراسة ضمن سلسلة أبحاث إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهد، ط3، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، 1998م
14. عثمان سعدي، التعريب في المغرب العربي في مواجهة الفرنكوفونية، الدستور الأردنية، ملحق اللغة والهوية موقع الجريدة 25، حزيران 2010 م
15. عز الدين إسماعيل، أيديولوجيا اللغة، مجلة فصول م5، ع4، ج2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1982
16. عقيل بن حامد الزماي الشمري، العربية بين عوامل الازدهار والانحدار: قراءة لمؤشرات مكانتها العامة في التاريخ والواقع، مجلة التخطيط والسياسة اللغوية، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربي، ع7، إبريل 2018، ص8: 59

17. عودة منيع الله القيسي ، العربية الفصحى (مرونتها- وعقلانيتها- وأسباب خلودها) ، دار البداية ط1 الأردن 2008م
18. فالح بن شبيب العجمي، الحقوق اللغوية في إطار هيمنة اللغة الانجليزية، وضع اللغة العربية نموذجاً، التخطيط والسياسة اللغوية، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ع9 سبتمبر 2019
19. فتح الله الشيخ، الوعي شبح يستعصي على العلماء والفلاسفة الكتب وجهات نظر، القاهرة ديسمبر 2001
20. فهمي هويدي، إعلام وثقافة الوسط، ضمن مجموعة أبحاث مؤتمر الوسطية منهج وحياء بالكويت، مايو 2005م
21. كمال أبو ديب، اللغة مكونة من الوعي الحدائي (لغة النص ورؤياه) نزوي، عمان، ع 59 يوليو/2009م.
22. محمد أحمد الخطيب، الوسطية بين الإفراط والتفريط، بحث ضمن كتاب مؤتمر الوسطية الدولي الأول، لبنان 2008
23. محمد أرزقي بركان، التحول هل هو بناء للهوية أم تشويه لها؟، مجلة فكر ونقد (المغرب) ع 35 يناير 2001م
24. محمد أكرم سعد الدين، اعتداء الفكر العربي الحديث على ذاته اللغوية: نحو رؤية معاصرة وفتح باب الاجتهاد ، دراسة ضمن سلسلة أبحاث إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، ط3، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا 1998م
25. محمد الصاوي، 20 مبدأ في تعلم اللغة وتعلمها، ، مجلة المعرفة العدد 192، الرياض 2011 م
26. محمد جبرون، انشقاق الهوية جدل الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى من منظور تاريخي من كتاب اللغة والهوية بالوطن العربي إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت 2013م
27. محمود بن عبد الله المحمود، التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية، تأصيل نظري، مجلة التخطيط والسياسة اللغوية، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ع5، إبريل 2018،
28. معاذ بن عامر، البديل الحضاري الإسلامي في حمى العولمة، اللغة نموذجاً، مجلة ألباب ع2، الرباط 2014
29. منصور بن مبارك ميغري، عقيل بن حامد الزماي الشمري التصورات الشعبية عن اللغة في الأدبيات اللسانية المعاصرة: مقارنة إبستمولوجية ضمن كتاب التصورات الشعبية عن اللغة العربية، مفاهيم، وقضايا، وحالات، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، الرياض 2017،
30. نادر سراج، تجاذبات اللغة والثقافة والانتماء، التسامح عدد 5، سلطنة عمان شتاء 2004م
31. وليد أحمد العناتي، العربي وسؤال الهوية، بيان عن تجربتي في تدريس قضايا اللغة العربية في العصر الحديث ، وقائع ندوتي : الهوية اللغوية والعولمة واللغة العربية والهوية القومية - الأردن 2005 ،

ثالثاً المراجع المترجمة عن الإنجليزية:-

1. أ.ف.بتروفسكي، م.ج.ياروفسكي، معجم علم النفس المعاصر، ت حمدي عبد الجواد، عبد السلام القاهرة ، دار العالم الجديد ط1996م

2. أدغار موران، النهج ، إنسانية البشرية، الهوية البشرية، ت هناك صبحي - هيئة أبو ظبي للتراث ،كلمة، ط 1أبوظبي 2009
3. إدوارد سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ت محمد العناني، دار رؤية، القاهرة2006م
4. أليكس ماكشيلي، الهوية، ترجمة على وطفة، دار الوسيم دمشق 1993.
5. باولو فريري، التعليم من أجل الوعي الناقد، ترجمة حامد عمار، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 2007م
6. بول ريكور، صراع التأويلات دراسات هيرمينوطيقية، ت منذر عياشي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت2005
7. توين فان دايك، الخطاب والسلطة، ت غيداء العلي، المركز القومي للترجمة، ط القاهرة 2014
8. جون جوزيف، اللغة والهوية (قومية - إثنية- دينية)، عالم المعرفة، ع 342 الكويت 2007م
9. جون ر. سيرل، رؤية الأشياء كما هي، نظرية الإدراك، ت إيهاب عبد الرحيم علي،عالم المعرفة، ع 456، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 2018.
10. جون سوان وآخرون، معجم اللغويات الاجتماعية، ت فواز محمد راشد، عبد الرحمن حسني، مركز الملك عبد الله بن عبد الملك الدولي لخدمة اللغة العربية، الرياض 2019،ص245
11. دانيال جولمان، الذكاء العاطفي، ترجمة ليلي الجبالي، عالم المعرفة ، عدد 262، الكويت2000 م.
12. ديفيد كريستال، اللغة وشبكة المعلومات العالمية، ت أحمد شفيق الخطيب، المجلس الأعلى للثقافة، ط1القاهرة 2020
13. روبرت ل كوبر: التخطيط اللغوي والتغيير الاجتماعي، ت خليفة أبو بكر الأسود، مجلس الثقافة العام ليبيا 2006
14. رولان بارت، درس السيمولوجيا، ت عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، ط3 المغرب 1993م
15. رولان بارت، هسهمة اللغة، ت منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري دار كنعان، ط1 دمشق 1999م.
16. رومان ياكسون، قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي، مبارك حنون، دار توبقال للنشر ، ط1 المغرب 1988م
17. ستيرورات هول، حول الهوية الثقافية، ترجمة بول طبر، مجلة إضافات، مركز دراسات الوحدة العربية، ع2 ربيع بيروت 2008م.
18. سكوت ل مونتجومري، هل يحتج العالم للغة عالمية، عالم المعرفة، ع 419 الكويت 2014م
19. سيلفان أورو وآخران، فلسفة اللغة، ترجمة بسام بركة، المنظمة العربية للترجمة ط1 بيروت 2012م.
20. غاي دويتشر، عبر منظار اللغة لم يبدو العالم مختلفا بلغات أخرى ، ت حنان عبد المحسن مظفر، عالم المعرفة، ع429 الكويت، أكتوبر، 2015م
21. فلوريان كولماس، اللغة والاقتصاد، ت أحمد عوض، عالم المعرفة ع263، الكويت2000م
22. كيس فرستيج، تاريخ العربية، ت محمد الشرقاوي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2003 م
23. منصور بن مبارك ميغري، عقيل بن حامد الزماي الشمري التصورات الشعبية عن اللغة في الأدبيات اللسانية المعاصرة، م س، ص57
24. موريس أولندر، لغات الفردوس، آريون وساميون: ثنائي العناية الإلهية، ت جورج سليمان، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة 2016

25. ميشيو كاكو، مستقبل العقل، الاجتهاد العلمي لفهم العقل وتطويره وتقويته، ت سعد الدين خرفان، عالم المعرفة، ع 447، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 2017.
26. نعوم تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة (محاضرات مانجوا)، ت حمزة بن قبلان المزيبي، دار توبقال، ط1 2001 المغرب 1990م.
27. نورمان فيركلف، الخطاب والتغير الاجتماعي، ت محمد عناني، المركز القومي للترجمة، ط1 القاهرة 2015
28. وليس جان كالفي ، حرب اللغات والسياسات اللغوية، المنظمة العربية للترجمة، حسن حمزة ، بيروت 2008 م

رابعاً الدراسات والأبحاث المترجمة

1. جوزيف ري . ديوف، الميتالغة: مقدمات ومعطيات اولية، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، ع8/ خريف 1989، لبنان 1989
2. كلود دوبار، رندا بعث، أزمة الهويات ، ترجمة، إضافات، مركز دراسات الوحدة العربية ع 7 صيف بيروت 2009م
3. ولهانز جورج غادامير، الإنسان واللغة، ترجمة عبد الحي اليزمي، مجلة علامات- عدد 22، المغرب 2004م.

خامساً المراجع باللغة الإنجليزية

1. Barjesteh, Hamed.& Vaseghi, Reza: Language Awareness Within The Context Of Changing Perspectives On Grammar Pedagogy. LEKSIKA.2012.Vol.6 No.2 – August 1-7
2. Bryan S. Turner :The Cambridge Dictionary of Sociology Cambridge University Press 2006
3. Paul Kroskrity: Language ideologies: Evolving perspectives 2010
<https://www.researchgate.net/publication/285809637>
4. David Crystal :Language death.Cambridge University–press 2003.
5. James Bourke :A Rough Guide to Language Awareness, 2008.Teaching Forum,12-21.
6. Kobena Merker: welcome to the jungle Jonathan Rutherford(Ed) Identity Community, Culture, Difference, London Lawrence and Wishart.1990
7. Landry, R. And Bourhis, RY :Linguistic– Landscape and Ethnolinguistic Vitality An Empirical Study . . Journal o Language and Social Psychology–1997,
8. Peter A.Angeles :Dictionary of Philosophy: – New York, N.Y. 1992.

9. Reaser Jeffrey Language Awareness in Middle School Wolfram–North Carolina State University 2004
10. Yasir suleiman :The Arabic Language and National Identity Study in Ideology –Edinbur Ghuniverstty–press 2003
- 11.10 Weinstein, B: Language planning in Francophone Africa. Language Problems and Language Planning 4 (1),1980 pp..55–77

سادسا مواقع على الشبكة العنكبوتية:-

1. افكار@afkaronline.or (مجلة أفكار الإلكترونية)
2. http://www.isesco.org.ma (المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)
3. /http://www.wasatia.org /الوسطية منى أبو الفضل الوسطية مشروع لا موقف، موقع
4. www.alecso.net (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو)
5. www.aljabriabed.net/indexl.htm (موقع د محمد عابد الجابري)
6. www.elmessiri.com (موقع د/ عبد الوهاب المسيري)
7. www.nizwa.com (موقع مجلة نزوي العمانية)
8. www.saidbengrad.com/ouv/index.htm (موقع د/سعيد بنكراد)
9. أثارة من علم، قناة د سعد مصلوح على تويتر، مايو 2022
10. مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية

فهرست الموضوعات

تمهيد

الفصل الأول : الفصل الأول نحو مفهوم للوسطية اللغوية

المبحث الأول مفهوم الوسطية اللغوية

- المبحث الثاني موقف القرآن من اللغة
- المبحث الثالث مفهوم الوسطية اللغوية

الفصل الثاني: اللغة العربية بين خطابين

- المبحث الأول الخطاب اللغوي العربي (محطات تاريخية)
- المبحث الثاني خطاب التقديس
- المبحث الثالث خطاب التبعية والاستلاب

الفصل الثالث الوعي اللغوي وبناء الهوية

- المبحث الأول: دراسات في وعينا اللغوي المعاصر
- المبحث الثاني: اللغة والوعي والهوية

الفصل الرابع : الوعي اللغوي العربي : مستوياته وإشكالياته

- المبحث الأول الوعي اللغوي ومستوياته
- المبحث الثاني: إشكاليات الوعي اللغوي العربي

الفصل الخامس: الوعي اللغوي والتعليم

- المبحث الأول: الوعي اللغوي في مناهجنا التعليمية
- المبحث الثاني: الوعي اللغوي والبحث عن محتوى تعليمي

الخاتمة